التطوّرات السياسيّة والثقافيّة في عصر الإمام علي الهادي A - سردية روائية -

الباحث
عباس حسن علي (كمال السيد)
مؤسسة نفط الجنوب، العراق
kamal.moozan@gmail.com

Political and Cultural Developments in the Era of Imam Ali al-Hadi: A Narrative Account

Researcher
Abbas Hasan Ali (Kamal Al-Sayyid)
South Oil Company, Iraq

الملخص:-

يمتدّ عصر الإمام علي الهادي A من سنة 214 هـ الموافق لعام 829م إلى سنة 254هـ الموافق لعام 868م وقد شهدت هذه العقود الأربعة تطوّرات سياسيّة مثيرة وتحوّلات ثقافيّة غاية في الأهميّة..

عاش الإمام الهادي A معظم الحقبة السامرائيّة من العصر العبّاسي الثاني والتي اتّسمت بتفاقم نفوذ الضباط الأتراك وهيمنتهم على أجهزة الحكم والقيادة العسكريّة.. وقد بلغ نفوذهم أنّهم كانوا يتحكّمون بالحياة السياسيّة وقد تراجع نفوذ الخليفة العبّاسي إلى حد كبير وأصبح بعض الخلفاء العوبة بأيديهم ونجم عن ذلك تراجع كبير للحكم المركزي افضى إلى استقلال الحكام في الولايات البعيدة عن العاصمة سامراء والتوجّه نحو تأسيس كيانات سياسيّة مستقلّة أو شبه مستقلّة سواء في الشرق أو في الغرب..

وفي هذه الفترة اندلعت ثورات عديدة كان أخطرها ثورة الزنوج في جنوب العراق وتحديداً في الأهوار والمسطحات المائيّة وسقوط مدينة البصرة وقد استمرّت هذه الثورة قرابة خمسة عشرة عاماً إلى جانب ثورات العلويّين الذين كانوا يعانون أشدّ أساليب الاضطهاد والقهر ويتعرّضون إلى سياسات ممنهجة في إبادتهم والقضاء عليهم.. ومع ذلك فقد تمكّنوا من تأسيس دولة قويّة في شمال إيران هي الدولة الزيديّة..

وفي هذه الفترة الزمنيّة كان المجتمع الإسلامي يتألّف من عناصر متنوّعة تصل إلى حدّ التناقض الثقافي.. ومنذ عام ٢٢٠ هـ أدخل المعتصم العبّاسي العنصر التركي وتمّ طرد العنصر العربي من الجيش لتصبح المؤسّسة العسكريّة مغلقة على الأتراك ولذلك دعيت العاصمة سامراء واشتهرت بـ «العسكر»..

يكفي أن نتصوّر وجود معسكرات يقطنها الأتراك تشتمل على ربع مليون جندي ومئة وستّين ألف حصان حربي!!

الكلمات المفتاحية: الإمام علي الهادي A، التطورات السياسية، التطورات الثقافية، المعتصم العباسي، العنصر التركي، ثورات العلويين.

Abstract:-

The era of Imam Ali al-Hadi spans from 829 CE to 868 CE, a period marked by significant political developments and crucial cultural transformations. Imam al-Hadi lived through much of the Samarra phase of the second Abbasid period, characterized by Turkish officers' growing influence and dominance over the governance and military leadership. Their control was so extensive that they dictated political life, greatly diminishing the authority of the Abbasid caliphs. Some caliphs became mere puppets in their hands, leading to a substantial decline in central governance. This decline allowed rulers in distant provinces to gain autonomy, pushing towards establishing independent or semi-independent political entities both in the east and west.

During this time, several revolts erupted, the most significant being the Zanj Rebellion in southern Iraq, particularly in the marshlands and wetlands, leading to the fall of Basra. This rebellion lasted for about fifteen years. Additionally, the Alawite uprisings were notable, driven by the intense persecution and systematic extermination policies they faced. Despite these challenges, they established a strong state in northern Iran, known as the Zaydi state.

Islamic society was composed of diverse elements in this historical context, often leading to cultural contradictions. From the year 220 AH, the Abbasid caliph al-Mu'tasim introduced Turkish elements into the military, expelling Arab elements, thereby transforming the military institution into exclusively Turkish. Consequently, the capital, Samarra, became famously known as "al-Askar" (the military).

One can imagine the presence of camps housing Turks with approximately a quarter of a million soldiers and one hundred and sixty thousand warhorses.

Key words: Imam Ali al-Hadi, political developments, cultural developments, al-Mu'tasim the Abbasid, Turkish element, Alawite revolts.

المقدمة:

في ظل التفوق العسكري التركي في الدولة العباسية بوجود معسكرات يقطنها الأتراك تشتمل على ربع مليون جندي ومئة وستّين ألف حصان حربي، فقد تمّ تهميش العنصر الفارسي الذي اتّجه نحو الحياة الثقافيّة على نحو كبير أمّا العرب الذين تمّ تسريحهم من الجيش العبّاسي فقد اتّجهوا نحو الانتماء إلى الحركات الثوريّة المناهضة للنظام العبّاسي..

وانتبه بعض خلفاء بني العبّاس إلى تعاظم نفوذ الأتراك فاستعانوا بعناصر أجنبيّة لا يجاد حالة من التوازن فظهر المغاربة والفراغنة وأصبح لهم دور عسكري وسياسي كبير ومصيري..

ومن الناحية الدينيّة شهدت الأمّة انقساماً حادّاً على صعيد الانتماء المذهبي أفضى إلى نشوب النزاعات الطائفيّة والمذهبيّة بين سنّة وشيعة وحتّى داخل أهل السنّة نشبت نزاعات شديدة على خلفيّة أفكار معيّنة كما حصل على خلفيّة «خلق القرآن» حيث لقي الكثيرون حتفهم لعدم تبّنيهم عقيدة خلق القرآن.. وقد وصل الأمر إلى تبادل الأسرى مع الروم حيث رفضت الدولة افتداء الأسرى المسلمين الذين لا يقولون بخلق القرآن!!

وتعرّض أتباع أهل البيت Δ إلى موجات رهيبة من الاضطهاد خاصّة في عهد الطاغية العبّاسي المتوكّل الذي حكم الدولة بالحديد والنار ومارس الارهاب الحكومي الممنهج في القضاء عليهم..

وقد ظهر التفكّك الاجتماعي على نحو واضح من خلال انقسام المجتمع إلى طبقات حيث تجثم طبقة رجال الدولة الذين استحوذوا على المقاطعات الزراعيّة والأراضي وأصبحوا مهيمنين تماماً على اقتصاد الدولة.. فيما يرزح عموم المجتمع المسلم تحت نير الضرائب وضغط الحروب والنزاعات الداخليّة الدامية.. إلى جانب طبقة الرقيق الأسود الذين استقدموا للعمل في الأراضي الزراعيّة والحقول وخاصّة في جنوب العراق.. وقد أدّت سياسات الاضطهاد إلى حدوث الانفجار المسلّح حيث اندلعت ما يعرف تاريخيّاً بـ «ثورة الزنج» عام ٢٥٥هـ واستمرّت زهاء خمسة عشر عاماً وأزهقت أرواح زهاء نصف مليون انسان..

إلى جانب طبقة أهل الذمّة.. وكانت السياسات الحكوميّة ازاءهم تتراوح بين التسامح

اللامحدود وبين التضييق عليهم إلى حدّ الاضطهاد وقد تسنم بعض اليهود مناصب حسّاسة جدّاً كما هو الحال مع ما عرف بـ «الديزج» الذي انتدب لعمليّة هدم مرقد الإمام الحسين A في كربلاء وحرث الأراضي المحيطة به وطمسه تماماً بعد اغراق المنطقة المحروثة بمياه الفرات.. وقد كوفئ بتعيينه قائداً للشرطة في العاصمة سامراء.. وقد حصلت كرامة كبرى عندما غمرت المياه جميع الأراضي المحروثة ما خلا بقعة صغيرة هي البقعة المباركة التي تضمّ سيّد الشهداء الإمام الحسين A وأنصاره وأهل بيته وظهر ما عرف تاريخيّاً فيما بعد «الحائر الحسيني».

وقد أشارت بعض المدوّنات التاريخيّة إلى أن الثيران العشرة التي حرثت الأراضي كانت تحيد عن البقعة التي تضمّ الجثمان الطاهر لسيّد الشهداء A[١]..

وإشارة سريعة إلى الحالة الثقافيّة في العصر العبّاسي الثاني الذي شهد ظهور فرق كثيرة ساعدت الترجمة كثيراً على انتشارها ويمكن القول ان الترجمة من اللغات اليونانيّة والهنديّة والفارسيّة أحدثت غزواً فكريّاً كبيراً وقد وصل الأمر إلى أنّ الفيلسوف الكندي انصرف إلى تأليف كتاب خطير تحت عنوان «تناقضات القرآن»!!

أمّا الأحوال الاقتصاديّة.. فقد نجحت الدولة العبّاسيّة في تنظيم شبكات الري واقامة السدود في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي إيران واشتهرت مفردة «المهندس» وأصلها فارسي منذ ذلك الوقت وكانت مهام المهندسين مراقبة وصيانة السدود[٢].

الخلفيات التاريخيّة:

في مطلع سنة 234 هجرية أوعز الطاغية جعفر المتوكّل إلى الكاتب العربي البليغ إبراهيم الصولي بتنظيم رسالة دعوة للإمام الهادي A وهي في الحقيقة استدعاء قسري وإن جاءت الرسالة في غاية الاجلال والاحترام وتضمّنت عبارات وديّة ذلك أن الكاتب كان من الموالين لأهل البيت Δ وهو يخفي ذلك تقيّة وقد أورد الشيخ المفيد رضي الله عنه نصّ الرسالة في كتابه «الإرشاد»[٣].

وقد جاءت هذه الدعوة على خلفيّة تقارير حاكم المدينة المنوّرة «بريحة العبّاسي» المعروف بحقده على أهل البيت Δ وقد تضمّنت الرسالة تكذيباً رسميّاً لهذه التقارير

وكذلك إقالته من منصبه[٤] وتنصيب محمّد بن الفضل الجرجراتي.

تمّ فرض الاقامة الاجباريّة على الإمام الهادي A منذ ذلك التاريخ وتعيّن عليه الحضور إلى قصر الخلافة يومي الاثنين والخميس اسبوعيّاً مرتدياً الزي الرسمي العبّاسي الحالك السواد.

وقبل أن يتم اللقاء بين الانسان الحرّ والطاغية دار حوار بين الأخير مع الضابط يحيى بن هرثمة الذي أشرف على مهمّة حضور الإمام A إلى سامراء فقد تساءل المتوكّل عن أوصافه وكان الإمام يومها في العشرين من عمره المبارك فأجاب الضابط:

ـ فتى أسمر شديد السمرة وسيع العينين عريض الصدر أقنى الأنف مليح الوجه وهو ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل.

وعندما سأله عن بعض ممارساته الشخصيّة أجاب الضابط أنّه يتعطّر دائماً كما أنّه رفيق سفر طيب..

بعد أيّام قام الإمام بشراء قصر كبير في سامراء تعود ملكيته إلى المهندس النصراني دليل بن يعقوب الذي أشرف على تنفيذ المشاريع الكبرى في سامراء وأقلّ التقادير في مساحة هذا القصر تقدر بستة عشر ألف متر مربع والقصر مبني على الخريطة الرومانية[٥] وقد بقيت هذه الخطوة تثير العديد من التساؤلات سيما وأن أثاث القصر كان بسيطاً ويخلو تماماً من أثاث القصور!!

أسس المتوكّل جهازي استخبارات عام وخاص للتجسس على أفراد الشعب وكذلك مراقبة تحركات المسؤولين والشخصيات البارزة وقد أشار الطبري صراحة إلى أنّ المتوكّل هو أكثر خلفاء بني العبّاس اهتماماً بـ «الخبر».

ولذا يعد عهد المتوكّل الذي استمر خمسة عشر عاماً من أكثر العهود دمويّة وقسوة وقد عانى العلويّون على نحو خاص وشيعة أهل البيت Δ على نحو عام صنوفاً من القهر والاضطهاد..

عرف عن المتوكل ولعه الشديد ببناء القصور الكبرى واقامة الاحتفالات وقد استنزفت مشاريعه عشرات الملايين من الدنانير الذهبيّة وفي فترة مبكرة تمكّنت احدى محظياته التي بقي اسمها مجهولاً واشتهرت باسم «قبيحة» لشدّة جمالها من التحكم بشخصيّة المتوكّل ودفعته إلى طلاق زوجته الرسميّة «ريطة» والدة «محمّد المنتصر»..

عرف عن المتوكل شغفة بإقامة الحفلات الساهرة وفي شعبان سنة 236هـ 518م طلب المتوكل حضور إحدى جواريه الحسان فقيل له انها ذهبت إلى الحج فاستغرب الطاغية وقال: وهل الحج في شعبان..

ولدى عودتها وقد بدا عليها آثار السفر قالت: ان مولاتي قد خرجت إلى الحج وأخرجتنا معها.. وعندما استنكر ذلك قالت: كان حجّنا إلى قبر الحسين[٦].

وقد استمرّ هذا التقليد عشرات السنين ويصادف الخامس عشر من شهر شعبان ذكرى الاسراء والمعراج حيث تشهد مدينة كربلاء آنذاك قدوم آلاف الزوّار لزيارة مرقد الإمام الحسين في ما عرف شعبياً بـ «الحج».

وقد أثارت هذه الحادثة حقد المتوكّل وأمر بهدم المرقد الطاهر وحرث وهدم جميع الدور المحيطة وحرث مساحات شاسعة من الأرض وكسر نهر الفرات واغراق الأراضي المحروثة ليظهر[٧] ولأوّل مرّة مصطلح «الحائر» فقد اغرقت مياه الفرات جميع الأراضي.

ومن الجدير ذكره ان ولي العهد محمّد المنتصر كان يعارض بشدّة سياسة أبيه وينتقده وكان المتوكل يتمادى في اذلال ابنه ووصلت الأمور إلى مستوى خطير عندما طلب من رئيس وزرائه في احدى الحفلات أن يقوم بصفعه واهانته وأن يسقى الخمر بالقوّة كما قرّر سرّاً القيام باغتياله وتمّ تحديد موعد العمليّة في يوم الخامس من شوّال سنة ٢٤٧ هـ ومن المحتمل كذلك أن يتم اغتيال الإمام الهادي في نفس الموعد.

حوادث سنة ٢٣٧هـ /٨٥١م:

- المتوكّل يأمر باغتيال رئيس سلطة القضاء المقال أحمد بن أبي دؤاد مع أولاده ومصادرة جميع أموالهم.
- اشتباكات مع الرومان في البحر الأبيض المتوسط وبسط السيطرة على أجزاء أخرى من صقلية ومهاجمة جنوب ايطاليا.
- ثورة في افغانستان بقيادة يعقوب بن الليث الصفار والسيطرة على البلاد.
- الاسطول الروماني يهاجم الشواطىء المصريّة واحراق مدينة دمياط.

حوادث سنة ٢٣٩هـ /٨٥٣م:

- المتوكّل يأمر بهدم جميع الكنائس التي بنيت منذ بدء التاريخ الإسلامي.
- المتوكّل يأمر بإقالة رئيس السلطة القضائيّة يحيى بن أكثم ومصادرة ممتلكاته.
- ثورة في مدينة حمص السورية والمتوكّل يرسل حاكماً أكثر قسوة لقمعها.

حوادث سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م:

- تنظيم عمليّة لتبادل الأسرى مع الروم تمّ بموجبها تحرير ٨٠٠ أسير و١٢٥ أسيرة وكانت الامبراطورة تيدورا قد نفذت مذبحة بحق الأسرى المسلمين راح ضحيتها ألف ومئتي أسير.
- اندلاع الثورة مرّة أخرى في مدينة حمص ومذبحة بحق المسيحيين لاشتراكهم ومساندة الثوار.
- غارات يشنها الروم على الحدود الشماليّة الشرقيّة ونقل آلاف اليهود إلى مناطق البلقان.
- الشهب والنيازك تنهمر على بغداد طول الليل.

حوادث سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م:

- الروم يشنون هجوماً معاكساً ويتوغلون في مناطق الموصل وسوريا ويحتلون مدينة آمد ويأسرون عشرة آلاف مسلم.
- قيصر **پاراداس** يتمكّن من السيطرة على العرش الروماني ويجبر أخته تيودورا على دخول الدير وقد كانت تيودورا الوصية على عرش ابنها القاصر ميخائيل الثالث.

- الانتهاء من بناء المسجد الجامع الشهير بمئذنته الملويّة وتجهيزه بنافورات دائميّة تستمد مياهها من نهر دجلة عبر قنوات جوفية.

- المتوكّل يأمر ببناء مدينة جديدة شمال سامراء (المتوكليّة) ويوزع الأراضي على بعض الشخصيّات البارزة لبناء دور لهم والانتقال إليها لتسهل مراقبتهم.

الهجوم على بيت الإمام A:

أفادت تقارير سرّيّة بوجود تحرّكات مشبوهة وجمع للسلاح واستعدادات لحركة مسلّحة فصدرت أوامر باقتحام الدار بعد منتصف الليل.. تسلق المهاجمون جدران البيت الكبير من أجل مفاجأة من فيه.. وعثر على الإمام في حجرة خالية من الأثاث.. كانت الغرفة مفروشة بالحصا ووجدت بعض كتب الدعاء ولم يعثر على أيّ سلاح باستثناء سيف معلّق على الجدار.. ومع ذلك فقد اعتقل الإمام ليودع في سرداب في قصر الخلافة..

وقد تمكّن أحد أصحاب الإمام ويدعى صقر من مقابلته وذلك بالاستفادة من علاقته مع أحد كبار المسؤولين في التشريفات ويدعى زرافة ويتم اللقاء في السرداب المظلم وكان الإمام يتلو آيات من القرآن الكريم تتحدّث عن طغيان قوم عاد وما آل إليه مصيرهم وبعد مرور حوالي ساعة من اللقاء نصح الإمام صاحبه بمغادرة المكان قائلاً:

- ودع واخرج فلا آمن عليك.

وقال يوضح له فلسفة الحياة الدنيا.

- الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر فيها آخرون..

وبعد مدّة أفرج عن الامام A وفرضت عليه اجراءات الحبس المنزلي(٨).

حوادث سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م:ـ

- المتوكّل يبني قصراً كبيراً في ضواحي دمشق ثمّ يلغي قراره باتّخاذ دمشق عاصمة للدولة ويقرّر العودة إلى سامراء بعد أن ساورته مخاوف من محاولة انقلابيّة قد يقوم بها بعض الضباط الأتراك.

- ميخائيل الثالث يجهز اسطولاً ضخماً لاستعادة الحصون المحتلة في صقليا فيمنى بهزيمة ساحقة.

- المتوكل يأمر بتصفية النحوي الكبير يعقوب ابن السكيت وكان المتوكل قد أوكل إليه مهمّة تعليم اثنين من أبنائه فسأله يوماً: يا يعقوب أيّهما أحبّ إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين!

فأجاب ابن السكيت ببسالة:

- والله إنّ قنبراً خادم علي خير منك ومن ابنيك!

فغضب الطاغية وأمر بإعدامه فوراً، فقتل على نحو مؤسف(٩).

حوادث سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م

- المتوكل يأمر بإعادة العمل في نظام استيفاء الضرائب في أيّام النيروز.
- مصادرات ماليّة كبيرة تطال عدداً من المسؤولين في سامراء وبإشراف مباشر من الطاغية شخصيّاً.
- المتوكل يوكل مشروع شق نهر في المدينة الجديدة إلى المهندس النصراني دليل بن يعقوب وقد بلغ عدد العمال والمهندسين في هذا المشروع اثني عشر ألفاً يعملون ليل نهار بنظام الوجبات.

هجوم على دار الإمام الهادي A:

اعتاد المتوكّل على قراءة التقارير الأمنيّة قبيل بدء حفلاته الليليّة أو أثناءها.. وكان في تلك الليلة في حالة سكر عندما قرأ تقريراً أمنياً يتحدّث عن نشاط سرّي يقوده الإمام A.

فصدرت الأوامر بمداهمة الدار والقبض على الامام واحضاره بنفس الهيئة حتّى لو كان في ثياب النوم! وبسرعة توجّهت دورية مسلّحة تصطحب معها عدداً من السلالم الحبليّة وقطعت مسافة أربعة أميال عربية (الميل العربي = ٢ كم) وكما في المرّة السابقة كانت التقارير كاذبة وتمّ اصطحاب الإمام بنفس الهيئة التي وجد فيها.. كانت الحفلة صاخبة حيث يقوم بعض المهرجين بحركات مضحكة.

وهنا فاجأ المتوكل الإمام A بكأس من الخمر وأمره أن يشرب فردّ الإمام A قائلاً:

- إنّه لم يخامر لحمي ودمي أبداً.

فقال الطاغية:

- إذن انشدني شعراً.

فقال الذي عنده علم الكتاب:

إني لقليل الرواية للشعر.

فأصرّ الطاغية:

- لابدّ من ذلك.

هنالك أنشد الإمام شعراً بليغاً دفع بالطاغية السكران إلى البكاء.. وقد أوردت المدونات التاريخيّة قصيدته القصيرة الشهيرة ومطلعها:

- باتوا على قلل الأجبال تحرسهم

غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم

وأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا(١٠).

ويبلغ عدد أبياتها ١٤ بيتاً تتحدّث عن مصير الطغاة.. وقدتوقع بعض الحضور انها نهاية الإمام حتّى ان بعضهم لملم ثيابه خوفاً من تلطخها بالدماء.. لكن موقف المتوكّل كان معاكساً إذ أمر بإعادته إلى داره معززاً مكرماً بل وأمر له بجائزة(١١).

حوادث سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م:

- مفاوضات مع الروم واتفاق حول تبادل الأسرى.

نصر بن الأزهر الشيعي زعيم الوفد: الامبراطور الفعلي ليس ميخائيل وإنّما خاله قيصر (باراداس).

- قيام الدولة الزيديّة في اليمن في مدينتي صعدة وصنعاء.

- اغتيال الشاعر العربي الكبير دعبل الخزاعي في مدينة سوسة (الشوش) في غرب ايران حيث مرقد النبي دانيال شمال مدينة الأهواز، وكان آخر ما قاله حول تحكم الضباط الأتراك بمقدرات البلاد الإسلاميّة قوله:

لقد ضاع أمر الناس إذ ساس ملكهم

«وصيف» و«أشناس» وقد عظم الكرب

سقوط الطاغية:

شهد عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م سلسلة من الحوادث المثيرة نلخصها بما يلي:

- المتوكّل يرسل تهديداته إلى الإمام ويتوعده إذا لم يبادر إلى بناء أرضه في المدينة الجديدة واخلاء داره في سامراء والإمام يصر على البقاء في داره.
- مؤامرات تحاك في الظلام وتحركات تقودها «قبيحة» زوجة المتوكّل اليونانيّة الأصل لازاحة ولي العهد الرسمي محمّد المنتصر واسناد ولاية العهد إلى ابنها المعتز.
- محمّد المنتصر ينتقد سياسة والده المعادية لأهل البيت Δ واقامة الحفلات الماجنة وقيام المهرجين والمخنثين بأداء أدوار تمثيليّة تسيء إلى الإمام عليّ بن أبي طالب A.
- المتوكل يصغي إلى رئيس وزرائه بضرورة التخلّص من محمّد المنتصر واغتياله واغتيال الإمام الهادي A.
- محمّد المنتصر يتلقى معلومات مؤكّدة حول مؤامرة لاغتياله فيؤلف تكتلاً من الضباط الأتراك وفي طليعتهم الحارس الشخصي للمتوكل وهو ضابط تركي يدعى «باغر» والذي يتمتع بنفوذ كبير داخل القصر غير أن مسار الاحداث المثيرة انتهى إلى حدوث أخطر محاولة انقلابيّة في تاريخ الإسلام.

كان من المقرّر اغتيال محمّد المنتصر في الخامس من شوال سنة ٢٤٧هـ ولذلك استبق محمّد المنتصر التاريخ وصدرت الأوامر إلى «باغر» بتنفيذ عمليّة الانقلاب العسكري بعد منتصف ليلة الثالث من شوال.

وقد جرت الحوادث في مسار مثير بدأ في الأوّل من شوّال حيث تقرّر أن يؤم المتوكل المصلّين في المسجد الجامع (الملويّة) في سامراء وأداء صلاة العيد..

أوعز رئيس الوزراء الفتح بن خاقان إلى تنظيم استقبال رسمي يمتدّ من قصر الجعفري وإلى المسجد الجامع وأن يصطف آلاف الجنود على جانبي الطريق.. وأن يتم حشد أكبر

عدد ممكن من الناس في مراسم الاستقبال..

وتقضي توجيهات القصر بضرورة حضور الشخصيّات البارزة في الدولة والمجتمع إلى باب القصر الجعفري.. وهكذا حضر الإمام الهادي A..

ولعقد نفسية وأحقاد دفينة أوعز المتوكّل إلى رئيس الوزراء في أن يجبر الإمام الهادي على الترجل عن بغلته وأن يقطع المسافة الممتدة من القصر إلى المسجد الجامع سيراً على الأقدام.

قال المتوكّل للفتح:

ـ قل لابن الرضا أن يترجّل ويمشي قدّامي.

لكن الفتح بن خاقان حذر الطاغية من ردود فعل في الأوساط الشعبية:

فقال له:

ـ يا سيّدي ان في ذلك شناعة عليك وسوء قالة!!

وأمام اصرار المتوكّل اقترح الفتح بن خاقان أن يصدر الأمر إلى جميع القادة والأشراف وذوي النفوذ بالترجل حتّى لا يظنّ أنّ الإمام A هو المقصود.. ووافق الطاغية الذي كان يتلذّذ لمشهد الإمام A وهو يمشي..

ترجل القادة وذوو النفوذ عن مراكبهم وكان بعضهم يتذمّر من هذه الإهانة.. وقد استثني الفتح من هذا الإجراء.

كان الإمام الهادي A يومها يعاني من وعكة صحيّة ولم يكن بمقدوره قطع مسافة ثمانية كيلومترات مشياً على الأقدام.. فقد كان يتصبب عرقاً..

وكانت الغوغاء من الجماهير مفتونة لمشهد موكب الخليفة وهو يسير وسط صفين طويلين من آلاف الجنود.. الغوغاء يهتفون بحياة الخليفة.. همس الإمام A:

ـ الغوغاء قتلة الأنبياء.

وقال بصوت مسموع:

ـ لقد قطع رحمي قطع الله رحمه(١٢).

كان الامام ينقل خطواته على هون وكان الهاشميّون يرافقونه في السير وقد خالجهم شعور بالمرارة من ابن عمهم الذي جعل مقاليد الحكم بأيدي الغرباء بل وبأيدي النساء والمخنثين الساقطين.

قال رجل هاشمي تجاوز عمره الخمسين للإمام A:

ـ يا سيّدنا ما في هذا العالم أحد يستجاب دعاؤه فينا فكيفينا الله؟

قال أبو الحسن الذي ورث رسالات الله:

ـ في هذا العالم من قلامة ظفره أكرم على الله من ناقة ثمود لما عقرت وضجّ الفصيل فقال الله: **[تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ]**(١٣).

وصلت الحشود المتعبة مدينة سامراء وتبددت مع الغبار فرحة العيد... أذان الصلاة ينساب من فوق المئذنة الملويّة.. وقعت عينا زرافة المسؤول في تشريفات القصر على الامام منهكاً يتصبب عرقاً فساعده وأخذ بيده إلى دهليز في المسجد وأخذ منديلاً وراح يجفف العرق المتصبب وحاول التخفيف من حالة الحزن التي بدت على الوجه الأسمر فقال:

ـ ابن عمّك لم يقصدك بهذا دون غيرك.

فأجاب الإمام وهو يكشف له جانباً من الحوادث المثيرة التي ستقع بعد ثلاثة أيّام بالضبط.. فتلا بخشوع آية الانذار قبل هبوب العاصفة:

إليك عني(١٤).

ثمّ تلا بخشوع الآية الكريمة:

ـ تمتعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب.

وانتهت الحوادث إلى مصرع المتوكّل مع رئيس وزرائه في قصر الجعفري وكان المتوكّل في حالة سكر شديد..

الحوادث من شوّال ٢٤٧ هـ إلى ربيع الأوّل ٢٤٨هـ:

- محمّد المنتصر يأمر بالعودة إلى سامراء عاصمة للدولة فتتحوّل المتوكليّة إلى خرائب.
- المنتصر يشدّد على إنهاء سياسة اضطهاد العلويين ويعيد إليهم الأموال المصادرة كما يأمر باعادة مقاطعة فدك إلى بني فاطمة الزهراء عليها السلام.
- المنتصر يرفع الحظر المفروض على زيارة مرقد الإمام الحسين A في كربلاء ومرقد أميرالمؤمنين A في النجف ويوجّه بإعادة بناء مرقد الإمام الحسين A.
- اغتيال المنتصر بمبضع مسموم بعد أن أقنع الضباط الأتراك ابن طيفور الطبيب باغتياله لقاء مبلغ كبير جداً...اقترح ابن طيفور الذي أجرى فحوصاته على المنتصر وكان يعاني من حمى شديدة أن يجري عمليّة فصاد للدم فأجرى العمليّة بمبضع مسموم.

وشاء القدر أن يلقى ابن طيفور مصيره بعد أيّام في حادث غامض حيث أُجريت له عمليّة فصاد للدم بذات المبضع الملوّث وقام بالعمليّة مساعده!!!

رحل المنتصر الذي أصرّت والدته على اعلان موقع قبره ليكون الخليفة العبّاسي الأوّل الذي يعلن عن مكان دفنه..

كان المنتصر قد قرّر وضع حدّ لنفوذ الضباط الاتراك واقالة أحمد بن الخصيب واسناد رئاسة الوزراء إلى شخصيّة؛ أخرى غير الضباط الأتراك استبقوا الأمور وتمّت عمليّة اغتياله.

وتمّ اسناد منصب الخلافة رمزيّاً إلى أحد أحفاد المعتصم ومنح لقب المستعين بالله.

تلقى الإمام الهادي تهديدات من ابن الخصيب الذي قام بزيارة الإمام A في داره فقد صرّح له مباشرة بضرورة اخلاء الدار فقال الإمام A:

- لأقعدنّ لك من الله مقعداً لا تبقى لك معه باقية.

لم تكد تمر سوى أربعة أيّام فقط حتّى قام الضابط التركي «اوتامش» باعتقال ابن الخصيب ثمّ نفيه إلى جزيرة «كريت» في البحر الأبيض المتوسط وتمّت مصادرة جميع ممتلكاته وممتلكات أبنائه أما اوتامش فقد نصّب نفسه رئيساً للوزراء(١٥).

حوادث سنة ٢٤٨ ـ ٢٤٩هـ / ٨٦٣م:

- اعتقال اوتامش واعدامه مع سكرتيره الخاص.
- تعيين محمّد بن الفضل الجرحرائي رئيساً للوزراء.
- اندلاع اضطرابات شعبيّة في بغداد بسبب هزائم الجيوش الإسلاميّة في جبهات البحر الأسود والجبهة الشماليّة الشرقيّة.

حوادث سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م

- قيام الدولة العلويّة في طبرستان (شمال إيران) بزعامة الثائر العلوي الحسن بن زيد.
- ثورة عارمة بقيادة عمر بن يحيى حفيد الإمام زين العابدين ورفعه الشعار الشهير «الدعوة إلى الرضا من آل محمّد» وجيش جرّار يقمع الثورة واستشهاد قائد الثورة.

- ثورة في مدينة حمص وموسى بن بغا يقمع الثورة وجيش الخلافة يرتكب مذابح مروّعة.

حوادث سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥

- اندلاع النزاع على النفوذ بين الضباط الأتراك واغتيال «باغر» قائد العمليّة الانقلابيّة التي اطاحت بحكم المتوكّل مطلع شوّال ٢٤٧هـ.
- الخليفة «المستعين» يفرّ إلى بغداد وبرفقته بعض الضبّاط الأتراك إثر التمرّد العسكري في سامراء.
- المتمرّدون يطلقون سراح «المعتز» و«المؤيّد» وينصبون المعتز خليفة.
- المعتز يقوم بمصادرة ممتلكات المستعين وممتلكات والدته ويجهّز جيشاً كبيراً للزحف صوب بغداد.
- فرض الحصار على بغداد وبدء الحرب الأهليّة.
- أمير بغداد محمّد بن عبدالله بن طاهر يفاوض على استسلام بغداد مقابل رفع الحصار وابعاد المستعين إلى واسط وتوقيع وثيقة تنازل عن الخلافة.
- المعتز يفوض وصيف شؤون الدولة ويمنحه صلاحيات واسعة.
- المعتز يمنح أخاه، أبا أحمد طلحة بن المتوكّل لقب الموفّق بالله لانتصاره في الحرب مع بغداد.
- المعتز يخلع أخاه المؤيّد من ولاية العهد ويوعز باغتياله في السجن.
- المعتز يوجه باستدعاء المستعين سراً إلى سامراء ويأمر بتصفيته على مشارفها وسعيد الحاجب ينفذ المهمّة ويقدم رأسه إلى المعتز فيما كان الأخير مشغولاً بلعبة الشطرنج.
- وفاة الضابط التركي «أشناس» وقيام المعتز بمصادرة أمواله التي تقدر بنصف مليون دينار.
- تحرك قطعات عسكرية تركية في (كرخ) سامراء واعتقال «وصيف» وتصفيته.
- موسى بن بغا يزحف باتّجاه الشمال الإيراني للقضاء على الدولة العلويّة حديثة التأسيس.
- ثورة في جنوب مصر بقيادة إبراهيم بن محمّد بن يحيى الطالبي المعروف بـ «ابن الصوفي».

وأخيراً:

- انقلاب عسكري خطير في القسطنطنيّة يطيح بالأسرة العمورية المالكة ويقوم باسيل قائد العمليّة بتنصيب نفسه امبراطوراً جديداً مؤسّساً بذلك لحكم الأسرة المقدونيّة..

وكان باسيل رئيس التشريفات قد اقنع ميخائيل الثالث بضرورة اغتيال خاله قيصر بارداس فوافق.. وبعد تنفيذ عمليّة الاغتيال ارتدّ إلى ميخائيل نفسه وقام بخنقه بيديه الغليظتين واعقب ذلك الاستيلاء على القصر الملكي وقتل وتشريد الأميرات ومسلسل القتل يطال الامبراطورة تيودورا التي اجبرت على دخول الدير[١٦] منذ عام ٨٥٦م.

- الإمام الهادي يجتمع بتاجر الرقيق بشر بن سليمان النخاس ليلاً ويوجهه بالسفر إلى بغداد لشراء جارية روميّة بمواصفات محددة..

السردية الروائية

الفصل الأول

وصلت القصر تقارير خطيرة من المدينة المنورة تفيد بأن علي بن محمد المعروف بابن الرضا يشكل خطراً على الدولة، وأن الأموال تتدفق إلى منزله ومن الممكن أن يشتري بتلك الأموال الطائلة أسلحة لاشعال ثورة مسلّحة.. أنه يطرح نفسه قائداً.. فاذا كانت للعاصمة حاجة في «الحرمين» الشريفين مكة والمدينة فلتبادر إلى اقصاء علي بن محمد على الفور..

وكانت التقارير توقع دائماً باسم «بريحة العباسي» المسؤول العام عن أمن الحرمين.. وما زاد الطين بلّة ان زوجة المتوكل بدأت ضغطها بهذا الاتجاه.

إن رسالة واحدة تكفي لاثارة مخاوف الخليفة الحاكم فكيف إذا تتابعت الرسائل؟!(١٧)

وادرك الكثيرون ان هذا الوغد يعرف كيف يتسلّق.. يعرف الطريق إلى المزيد من النفوذ والتسلط، وليس هناك طريقة أقصر وأيسر من الصعود على جثث الضحايا والابرياء من أبناء علي.. من أجل هذا أرسل الامام الشاب رسالة كذّب فيها مزاعم الوغد العباسي..

وكان وصول الرسالة إلى سامرا مدعاة لعقد جلسة طارئة اسفرت عن نتائج وقناعات مرضية..

ان تقارير بريحة العباسي عارية من الصحة.. وأن الأخبار المؤكدة

تفيد بأن علي بن محمد ذا الثامنة عشر عاماً شخصية محبوبة في المدينة المنورة بسبب طيبته واحسانه إلى الفقراء والمعوزين..

ومن المؤكد أن أموالاً ضخمة تحمل إليه لاعتقاد شيعته واتباعه بضرورة دفع الحقوق الشرعية إليه من خمس وزكاة.

ولذا فان بقاءه في المدينة يشكل خطراً على الحكم العباسي، بسبب حساسيته إزاء العلويين بشكل عام، والائمة بشكل خاص.. ثم إنه ابن صهر الخليفة العباسي المأمون وحفيد ولي عهده.. وما يزال يدعى بابن الرضا ولذا فان ابعاده عن الحجاز أمر ضروري، بل أن وجوده في سامراء سيوفر للحكم افضل موقع لمراقبته ومراقبة الذين يتصلون به.. واذا كانت بغداد مهيأة لحركة شعبية مضادة للحكم كالتي حاول تفجيرها احمد بن نصر الخزاعي فان سامراء اكثر المدن ولاء للحكم لأنها تشبه معسكراً كبيرا للجيش والقوّات المسلحة..

لهذا أوعز المتوكل إلى كاتبه البليغ ابراهيم الصولي بتسطير رسالة رقيقة، تتضمن أمراً بعزل بريحة العباسي، وتعيين محمد بن الفضل الجرجرائي(١٨) اضافة إلى تأكيد رغبة الخليفة في حضور علي بن محمد إلى سامراء تعزيزاً للعلاقات الطيبة بين البيتين العباسي والعلوي(١٩).. كما وضع تحت تصرّفه قوّة مسلحة تتألف من ثلاثمئة جندي بقيادة يحيى بن هرثمة(٢٠).

كان القيظ شديد الحرارة، وتموز في ذلك من سنته اكثر لهيباً بسبب الجفاف.. وكان محمد بن الفضل الذي عين كاتباً يرافق يحيى وله ميول شيعية، كما كان هناك قائد عسكري وهو خارجي المذهب.

وارتسمت ابتسامة ساخرة في وجه يحيى بن هرثمة فهو «ظاهري» والكاتب «شيعي» والقائد العسكري «خارجي».. وكان لابد أن يصطدم الخارجي مع الشيعي ويحتدم بينهما الجدل.. ولذا وجد هرثمة أن افضل وسيلة لقطع الطريق هي الاستمتاع بالاستماع اليهما.. وفي منتصف الطريق وقد مضت خمسة أيام فاجأ الخارجي الكاتب الشيعي بسؤال محرج:

ـ ان إمامك علي يقول: «انه ليس في الأرض بقعة إلاّ وهي قبر أو ستكون قبراً»؟ انظر اننا نسير في هذه البادية التي لم يطرقها انسان فكيف تكون قبراً؟!

تدخل هرثمة وخاطب الكاتب:

ـ هل حقاً أن علياً قال ذلك؟

قال الكاتب:

ـ أجل اننا نروي ذلك.

قال هرثمة بدهشة وسخرية:

ـ صدق الرجل اين من يموت في هذه البراري حتى تمتلىء قبوراً؟!

سكت الكاتب وانسحب إلى نفسه، فيما استغل الخارجي ذلك وراح يتندر وهتف جندي سمع الحوار:

ـ انظروا هناك مقبرة كبيرة..

لم تكن هناك وعلى مدى الافق البعيد سوى الرمال، واستغرق بعضهم في الضحك من أحاديث الشيعة التي لا تعقل!

في أخريات تموز وصلت القوّة المسلّحة المدينة المنورة، يقودها هرثمة الذي اتجه إلى قصر الوالي لاطلاعه على طبيعة مهمته في المدينة.. ان لديه أوامر مشدّدة بتفتيش منزل علي بن محمد..

وكان حضور هذا العدد الكبير من الجنود ومعظمهم من الاتراك قد أثار مخاوف الناس، وانتشرت شائعات حول احتمال اعتقال علي بن محمد..

في نفس اليوم كان هرثمة ومعه عشرات الجنود يتوجهون إلى منزل الامام.. ومما أثار دهشته أن عدد كبيراً من الناس كانوا يترقبون بقلق هذه اللحظة وعندما وقعت عيونهم على هرثمة يحف به جنود غلاظ تأكدت مخاوفهم..

حقاً ان الانسان الطاهر يؤسس عرشه في القلوب.. هؤلاء البسطاء يرون في علي بن محمد نقطة السلام في هذا الزمن المليء بالخوف.. ان هذا الفتى الاسمر ذي العينين المفعمتين بالنور يبعث في القلب الطمأنينة والسلام..

لم ينس أهالي المدينة وخاصّة الشيوخ حوادث قديمة.. لقد أخذ الرشيد موسى بن جعفر إلى بغداد، فذهب ولم يعد ثم جاء المأمون فاستدعى علي بن موسى الرضا فذهب إلى مرو ولم يعد، ثم

جاء الخليفة المعتصم فاستدعى محمد بن علي بن موسى فذهب إلى بغداد ولم يعد وتوفي في ريعان شبابه. وجاء الدور للمتوكل ليأخذ من بينهم علي بن محمد بن علي بن موسى إلى سامراء!!

حق لهم أن يشعروا بالمخاوف من أجل الفتى الطيب علي.. وعندما صرحوا بمخاوفهم

للقائد يحيى خاطبهم مهدئاً:

ـ اقسم لكم بانني لم أؤمر فيه بمكروه.. ان معي أوامر بتفتيش منزله فقط..

وفي الأثناء فتح الباب فدخل القائد ومعه ثلاثة من الجنود.. سلّم يحيى رسالة الخليفة.. فقرأها الفتى بدقة ورفع رأسه قائلاً:

ـ لا مانع من السفر معكم.

ـ غدا!؟

ـ كلاّ.. بعد ثلاثة أيام.

ـ حسناً بعد ثلاثة أيام!

ـ ان معي أوامر بتفتيش المنزل.

ـ نفذ ما أمرت به!

فتش القائد بنفسه المنزل تفتيشاً دقيقاً، فلم يعثر على شيء سوى مصاحف وكتب للدعاء وسيف واحد.

قال مجاملاً:

ـ هذا سيف عراقي؟!

ـ أجل أهداه لي أبي قبل وفاته.. أرسله اليّ من العراق(٢١).

انتهت عملية التفتيش، وتنفس القائد يحيى الصعداء ان كل شيء يمضي على ما يرام.. يستطيع أن يؤكد لأهل المدينة أن هذا الفتى الذي يحبوه لن يتعرّض إلى أدنى شيء، ان

التقارير التي وصلت سامراء كاذبة ولا تعكس الحقيقة..

وهتف في اعماقه: كم هو ذكي هذا الفتى ان الرسالة وإن بدت تخيّره في القدوم إلى العاصمة ولكنها تنطوي على ما يشبه الاضطرار وفي اليوم التالي بكّر يحيى لتفقد الفتى والتعرّف على شخصيته اكثر لقد استهواه هدوئه وسكينته.. لقد صادف كثيراً من العلويين ولكنه لم ير مثل هذا الفتى الاسمر.. وهتف في اعماقه: كم هو أحمق بريحة وهو يكتب إلى الخليفة يحذّره من خطر علي بن محمد؟!

ولج الحجرة التي يجلس فيها الفتى العلوي لم يكن وحيداً كما توقع، كان معه خيّاط يقصّ بمقص كبير لبوداً وخفاتين وبرانس..

ان منظره يثير السخرية.. أن المرء لايستسيغ رؤية ملابس شتوية في تموز ذروة الصيف اللاهب.

خاطب الفتى الخياط بمحبّة:

ـ استعن على انجازها بجماعة من الخياطين.. إذ ينبغي الفراغ منها اليوم..

وموعدنا غداً في مثل هذا الوقت.

والتفت إلى يحيى:

ـ الرحيل غداً في مثل هذا الوقت.. اقضوا اعمالكم في المدينة اليوم.

لم يجد القائد بداً من النهوض.. فمنظر اللبود والخفاتين لا يبعث على الراحة ثم أنه ينبغي انجاز كل شيء في هذا اليوم..

وارتسمت في أعماقه دهشة وهو يغادر المنزل.. دهشة من هذا الفتى الذي يهيء ملابس شتوية في فصل الصيف اللاهب..

قال في نفسه: هذا الفتى لم يسافر ابداً.. انه لا يحتاج إلى كل هذه الثياب.. نحن في تموز وفي حرّ الحجاز وبيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام فقط.. فما يصنع بهذه الثياب؟!

وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه: اتعجّب من الرافضة يقولون بإمامة هذا الفتى...

في صباح اليوم التالي كان كل شيء جاهزاً وحضر القائد يحيى ومعه قوّاته المؤلفة من ثلاثمئة جندي.

كان الفتى يصدر آخر تعليماته إلى مجموعة من الغلمان:

ـ خذوا من اللبابيد والبرانس ما يكفيكم..

والتفت إلى يحيى:

ـ لقد حان الرحيل..

تبادل يحيى مع رجاله نظرات ذات معنى، وانطلقت ضحكات مخنوقة وهمس

جندي في اذن رفيقه:

ـ انظر: انه يخاف أن يلحقنا الشتاء في العراق؟!

ـ هذا فتى حجازي لم يسافر.. يتصور ان الصيف في الحجاز فقط..

كان الغلمان يمارسون أعمالهم بشكل طبيعي، وبدت لهم استعدادات الفتى واحضاره ملابس شتائية ومطريات أمراً في غاية الحكمة، فالحجاز في هذه السنوات متطرف المناخ والطقس، ولا يعرف له ثبات.. لكأن القلق الفكري وعدم الاستقرار السياسي القى بظلاله على الطبيعة ايضاً فقد يصادف في النهار أن ترتفع درجة الحرارة فتشوي الوجوه حتى إذا حلّ المساء انقلب الجوّ انقلاباً عجيباً اذ تنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر وربما هطل المطر بغزارة بل ربما رامت السماء ثلجاً وبَرَداً(٢٢)..

كل شيء بات جاهزاً في ذلك الصباح وقد ارتفعت الشمس فوق البيوت الطيبة المتواضعة.. فيما اصبح منظر اللبابيد موضوعاً لتندر الجنود اللذين امضوا وقتاً ممتعاً في تبادل كلمات التهكم والسخرية!

القافلة جاهزة وقد رفعت النوق رؤوسها متأهبة لسفر طويل...

وبدا واضحاً أن القوّة المسلّحة قد اصبحت مهمتها حراسة القافلة التي تدفق أهل المدينة لتوديعها بأسف وحزن.. لقد غادر السلام المدينة ورحل الرجل الذي يحسن اليهم ويواسيهم في البأساء والضرّاء.. والفتى الذي يذكرهم وجهه البهي بالنبوّات الراحلة..

وداعاً ايها السيد.. ايها الفتى الطاهر.. ليحرسك الله ويحميك من الشرور..

الفصل الثاني

ابتعدت بيوت المدينة.. غرقت في بحر السراب وقد الهب تموز ذرات الرمال.. فيما بدت اشجار النخيل رماحاً مركوزة في المياه الخيالية..

وفي قلب الرمال الممتدة حتى البادية تواصل القافلتان المسير.. قافلة تتألف من خيل وجمال وهي قافلة الفتى العلوي الذي فضل اصطحاب بعض أفراد اسرته بالرغم من الغموض الذي يكتنف نوايا الخليفة..

القافلتان تمعنان في الرمال، وتموز يرسل لهيبه واضحى منظر اللبود فوق النوق أمراً يفجّر في اعماق الانسان مزيجاً من السخرية والجنوح إلى الضحك!

وصلت القافلة صحراء تزخر بالرمال، وكان منظر الكثبان الرملية التي بدت لوهلة أمواجاً بحرية مسحورة تبعث الرهبة في ذلك الاصيل.

بركت الجمال وانصرف بعض الجنود إلى ضرب الاوتاد كما بادر الغلمان ومعهم الفتى العلوي إلى صنع مخيم صغير للراحة بعد رحلة شاقة..

وفضل بعض الرجال الذين جاءوا من المدينة مسافرين[٢٣] أن يضربوا خيامهم الصغيرة قرب مخيم علي بن محمد..

وفي المساء، تحلّق بعض المسافرين حول الفتى الذي أوتي علم الكتاب فراح يتحدث اليهم بمحبة وودّ، قال رجل تبدو عليه سيماء الصالحين:

ـ يا سيدي أنا أعرف أباك لقد كان تقياً..

وسكت لحظات ثم قال متسائلاً:

ـ لقد كنت أهابه وأخشاه مع أن لم يكن سلطاناً!

قال علي:

ـ من اتقى الله يُتقى، ومن اطاع الله يطاع.

وأضاءت الوجوه بعد أن افلح غلام في اشعال بعض العيدان والحطب التماساً للنور

وكانت السماء تزخر بالنجوم المتألقة نظر الفتى إلى الرجل وكان اسمه فتح:

ـ يا فتح! من أطاع الله لم يبال بسخط المخلوقين، ومن اسخط الخالق فليوقن أن يحلّ به سخط المخلوقين.

يا فتح: ان الله جلّ جلاله لا يوصف الا بما وصف نفسه فأنّى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه..

والأوهام أن تناله، والخيال أن يحدّه..

والأبصار أن تراه..

جلّ عما يصفه الواصفون..

وتعالى عما ينعته الناعتون..

نأى في قربه..

وقرب في نأيه..

فهو في نأيه قريب..

وفي قربه بعيد..

كيّف الكيف.. فلا يقال كيف؟

وأيّن الأين فلا يقال له: أين؟

إذ هو منقطع الكيفية والأينية..

الواحد الاحد، جلّ جلاله.. وسكت قليلاً وقد خشعت القلوب لذكر الله العظيم، خالق السموات والصحاري والنجوم، خالق الشمس والقمر والانسان..

واستأنف الفتى كلماته المضيئة كالنجوم:

ـ بل كيف يوصف بكهنه محمدo، وقد قرن الخليل اسمه باسمه واشركه في طاعته، وأوجب لمن أطاعه جزاء طاعته، فقال سبحانه: **[وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ]**.

وقال تبارك اسمه يحكي قول من ترك طاعته: (يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا).

ولأن الحكم الجديد يحارب علياً بن أبي طالب استطرد حفيده وحامل رسالته واسمه فراح يتحدث عن علي:

ـ أم كيف يوصف من قرن الجليل طاعته بطاعة رسول الله حيث يقول: **[أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ]**.

يا فتح:

كما لا يوصف الجليل جلّ جلاله ولا يوصف الحجّة فكذلك لا يوصف المؤمن المسلّم لأمرنا.. فنبيّنا أفضل الانبياء ووصيّنا افضل الاوصياء..

وسكت الامام ليقول للفتح:

ـ فأورد الأمر اليهم وسلّم لهم..

وأردف بعد لحظات:

ـ إذا شئت.

الحقائق الكبرى تسطع في أعماق الفتح الذي كان يصغي إلى كلمات خطيرة.. كلمات لو سمعها المتوكل لانفجر غيظاً أنه يتحدّى وحيداً التيار الفكري الجديد الذي بدأ يهبّ كالاعصار...

الخليفة يرسم صورة جديدة للألله صورة تنسبه الانسان له عينان ولسان وشفتان!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فهذا الفتى ينسف القاعدة التي يرتكز عليها الحاكمون.. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

الانسان الذي مسّته السماء، هو وحده الذي يجب أن يطاع، هو وحده القائد الحقيقي لقافلة الانسانية نحو التكامل المنشود..

فضل فتح الانصراف فقد يسمع بعض الحرس كلمات الامام الخطيرة.. ان هذا الفتى كآبائه لا يخشى أحداً إلاّ الله..

وساد الصمت ما خلا هسهسة النار وكان الجمر يخبو شيئاً فشيئاً، فيما اشتد سطوع النجوم.. وكانت رياح نديّة من جهة البحر الأحمر قد بدأت هبوبها في آخر الليل..

وعندما اشرقت الشمس وظهرت من فوق كثبان الرمال فوجئ يحيى وجنوده بمنظر فجرّ ضحكات مخزونة منذ أيام..

السماء صافية زرقاء زرقاء.. وظهر الفتى في منظر عجيب على فرسه مطرية، وذيل الفرس معقود وعلى رأسه برنس.. منظر عادة ما يرى في الشتاء في مواسم المطر.. لا في تموز في موسم الجفاف الرهيب وتصاعدت ضحكات مكتومة حتى من بعض الرجال المسافرين أما الغلمان فقد احتذوا بالإمام ولم يكونوا ليكترثوا لموجة الضحك التي تعالت من قبل الجنود..

وهتف جندي دون لياقة:

ـ يا لهذا الحجازي.. انه لم يسافر في عمره أبداً!

وسارت القافلتان بين كثبان الرمال.. طوت النوق والخيل ثلاثة أميال.. واشتد هبوب الرياح الندية وظهرت في الأفق سحب داكنة.. وما اسرع أن اختفت الشمس واستحالت السماء إلى ملعب للغيوم الغاضبة وبدا الجوّ مشحوناً بالصواعق...

وراح القائد يصدر صيحاته المتوالية للتوقف وعقد أذناب الخيل وضرب الخيام.. ولكن شلال المطر كان قد تدفق من قلب الغيوم التي تشبه الدخان.. وزخت السماء ثلجاً وبَرَداً سادت الفوضى الجنود.. وضاعت صيحات القائد الذي فوجىء بغلام يسلّمه مطرية،

ويسلّم الكاتب الشيعي برنساً.. فيما تبعثر الجنود، وفقد بعض الفرسان السيطرة على خيولهم فقذفت بهم من فوق ظهورها بعنف، وظن البعض وهم يشاهدون عنف البَرَد الثقيل أن السماء تمطر صخوراً!!

هدأ الجوّ وجاء القائد يتفقد جنوده الذين هزموا في معركة عجيبة..

وشعر بالألم يعصر قلبه لمرأى بعض القتلى.. كانوا ثمانية جنود.. بعضهم كان يملأ الصحراء بضحكاته المدويّة فإذا هو الآن جثة هامدة لا حراك فيها..

وأوصى القائد بعض الجنود أن يزيدوا في عمق القبور فهذه البادية مليئة بالضباع. ونظر الامام إلى أكوام الرمال وقال:

ـ هكذا تمتلأ البراري بالقبور!

وراح بعض الجنود يعصرون ثيابهم المبتلّة من المطر ويفرغون احذيتهم من المياه.. وكان منظرهم ينتزع البسمة حتى الفتى العلوي شوهد مبتسماً..

علامات سؤال ودهشة تموج في أعماق يحيى الذي راح ينظر بهيبة للفتى وادرك علي ما يجول في اعماق القائد فالتفت إليه قائلاً:

ـ أعرف أنك مندهش مما رأيت ولعلك توهمت بأني أعلم الغيب.

قال يحيى:

ـ أجل لقد رأيت الاعاجيب.

قال الفتى الحجازي:

ـ ليس الأمر كما تظن.. ولكنّي نشأت في البادية فأنا أعرف الرياح التي تحمل المطر.. فتأهبت لذلك(٢٤).

وفي المحطة الأخيرة وقد وصلت القافلة أرض العراق جاءت امرأة ومعها ابنها الأرمد.. راحت تتوسل إليه:

ـ إذا كان معكم رجل علوي فدلّوني عليه.

ـ ماذا تريدين منه؟!

ـ أريده يرقى عين ابني!

نظراتها الذليلة المنكسرة ولهجتها المتوسلّة دفعت بالقائد إلى أن يرشدها إلى علي:

ـ هناك فتى مبارك اسمه علي..

وهوت المرأة إليه..

ومدّ علي كفاً سمراء مسح بها على عين الطفل ونظر إلى السماء البعيدة الغور وتمتم بكلمات مقدسة..

وانفتحت العينان البريئتان كنافذتين تطلاّن على عالم مغمور بالنقاء..

واشرقت الفرحة في القلوب.. مبارك اسمك يا علي.. مباركة خطواتك.. نظراتك وخلجات قلبك الطاهر.. قلبك الذي ينبض بالحبّ والسلام.

الفصل الثالث

القافلة تقترب من بقعة مباركة طيبة في واد مهيب من بعيد تلوح للمسافرين في طريقهم إلى الكوفة قبة بيضاء كحمامة حطّت بعد رحلة في الصحاري.. حطت لتستريح..

أنها قبّة مهيبة هي قبة الانسان الذي قهر الشيطان وهزم الموت واكتشف ينابيع الخلود.. قبة يرقد في ظلالها انسان قذف الله حبّه في قلوب الفقراء الطيبين.. «علي بن أبي طالب».. علي الذي اصبح انشودة الاحرار، وهاجساً يطارد الاشرار، لانه يمثل حنان الحياة العميق، وطبيعة الدنيا الخيرة تحنو على ابنائها وتغمرهم بالخير أيّاً كانوا.. ولوت النوق أعناقها باتجاه القبة البيضاء الناصعة.. من أجل علي تحط القوافل عصيَّ الترحال.. ومن أجل شذى كشذى البنفسج هوت النوق جهة بقعة مباركة من الوادي الأيمن.. لكأنها تتذكر وطناً تبحث عنه.. كان سرّاً دفيناً في الأرض، فاهتزت وربت، وانبتت.. يا لغربتك في هذه الصحراء.. ويا لعنفوانك إذا يخشاك الحاكمون بعد قرنين من الزمن.. ما يزال ذو الفقار يقاتل الذين ظلموا في كل مكان.. في بغداد وسامراء وفي كل المدن الآثمة..

تحت هذه القبة الناصعة يرقد تاريخ الإسلام في عنفوانه وملحميته وهنا يرقد الانسان المؤمن الذي احتقر الدنيا. فكان آية التكامل الانساني بعد معلمه العظيم..

وجاء حفيده وسميّه.. جاء الفتى الاسمر يخاطب الراقد في هذه البقعة المباركة من الوادي.. جاء ليسجل ميثاق الوفاء في زمن انعدم فيه الوفاء وقد هبت العاصفة الصفراء من قصر جاثم في سامراء.. ووقف الفتى الاسمر يعلن شهادته للتاريخ والاجيال:

ـ «انت أول من آمن بالله وصلّى له..

وجاهد.. وأبدى صفحته للشرك.. والأرض مشحونة ضلالة.. والشيطان يعبد جهرة..

لك المواقف المشهودة والايام المذكورة.. يوم بدر ويوم الاحزاب.. إذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر..

ويوم خيبر إذ اظهر الله خور المنافقين وقطع دابر الكافرين.. والحمد لله رب العالمين.

«وشهدت مع النبيo جميع حروبه.. تحمل الراية أمامه.. وتضرب بالسيف قدامه.. ثم لحزمك المشهور وبصيرتك في الأمور أُمّرك في المواطن ولم يكن عليك أمير».. لك الله يا علي وقد..

«اشبهت في البيات على الفراش[٢٥] الذبيح اسماعيل.. إذ أجبت كما أجاب، وأطعت كما أطاع.. صابراً! قال له: «يا بني اني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين».

وكذلك أنت إذ أمرك النبي أن تضطجع في مرقده، واقياً له بنفسك.. اسرعت إلى اجابته مطيعاً، ولنفسك على القتل موطنا.. فشكر الله طاعتك، وأبان عن جميل فعلك بقوله جل ذكره: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله).

وسكت الفتى لحظات ثم أستأنف خطابه باعلانه الشهادة للتاريخ والاجيال:

ـ «اشهد أنك لم تزل للهوى مخالفاً، وللتقى محالفاً، وعلى كظم الغيظ قادرا، وعن الناس عافيا غافراً، واذا عصي الله ساخطا، واذا اطيع الله راضياً، وبما عهد اليك عاملاً.. راعياً لما استحفظت، وحافظاً لما استودعت».

أجل يا علي لقد كنت جبلاً في ثباتك ونهراً متدفقاً في عنفوانك.. كقطرة ندى في طهرك وصفائك.. قوّياً كالعاصفة.. دافئاً كعش عصفور.. أخضر كالربيع.. طيباً كنسائم الصباح.. وكنت امّة وحدك «وأنت القائل لا تزيدني كثرة الناس حولي عزّة ولا تفرقهم عنّي وحشة.. ولو أسلمني الناس جميعاً»..

ومرّة أخرى سكت الفتى وحبس التاريخ انفاسه.. ان هذا الفتى يحمل ميراث جدّه العظيم.. لا يهاب أحداً وهو يعلن أمام الحاكمين ميثاق الرسالة في اعلان علي بن أبي طالب وليّاً على الامّة الإسلامية وقائد أعلى بعد النبي:

- «ان الله تعالى استجاب لنبيّه فيك دعوته، ثم أمره بإظهار ما أولاك لإمته اعلاءً لشأنك، واعلاناً لبرهانك ودحضاً للأباطيل وقطعاً للمعاذير..

فلما اشفق من فتنة الفاسقين، واتقى فيك المنافقين أوحى إليه ربّ العالمين: **[يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ]** فوضع على نفسه أوزار المسير، ونهض في رمضاء الهجير، فخطب واسمع ونادى فأبلغ ثم سألهم أجمع فقال: هل بلّغت؟ فقالوا: بلى، فقال: اللهم فاشهد، ثم قال: الست أولى بالمؤمنين من انفسهم؟ فقالوا: بلى، فأخذ بيدك وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله..

فما آمن بما انزل الله فيك على نبيّه الاّ قليل، ولا زاد أكثرهم غير تخسير»..

لك الله يا علي.. وأنت تقاوم عاديات الزمن وأمواج المحن.. لك الله وأنت تسير في طريقك المضيء وحيداً.. اكثر من ربع قرن من الزمن امضيتها مقهوراً محاصراً.. لأنّك قلب الامّة النابض.. ولك الله بعد أن نهضت بالأمر..

«ثم محنتك يوم صفين، وقد رُفعت المصاحف حيلة ومكراً»..

رفعوها على الرماح من أجل تمزيق آيات الله وقد تألقت في عينيك وفي كل وجودك..

«اشبهت محنة هارون إذ أمرّه موسى على قومه فتفرّقوا عنه وهارون ينادي بهم ويقول: «يا قوم انما فتنتم به وان ربّكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى».. وكذلك انت لما رفعت المصاحف قلت: يا قوم انما فتنتم بها وخدعتم. فعصوك»..

فلك الله يا علي..

«وصلوات الله عليك.. غادية رائحة وعاكفة وذاهبة، فما يحيط المادح وصفك، ولا يحيط الطاعن فضلك»..

تذوب القرون عند قدميك كما تذوب حبّات الملح على شاطىء المحيط.. وتنتهي الكلمات.. أما أنت فباق، ما بقي للورد شذى، وللأرض سما.. وما بقي الانسان.. وداعاً

ايها الراقد تحت الثرى.. وسلام على روحك العظيم..

الفصل الرابع

على مقربة من سجن «المطبق» الرهيب يجثم قصر قديم يشبه القلعة اتخذه اسحاق بن ابراهيم قائد الشرطة العام مقراً له منذ سنين طويلة..

ومنذ انتقال العاصمة إلى سامراء تنامت بسرعة تربية الحمام الزاجل الذي اختص بالبريد الرسمي، ونقل الاخبار الهامّة العاجلة..

ومن الطبيعي أن ينتبه أهل بغداد إلى هذه الظاهرة العجيبة فقد يصادف أن يحط الطائر الرشيق فوق قصر اسحاق، فتحدث جلبة داخل البناء المخيف، وقد تخرج دورية مسلحة من رجال الشرطة إلى منزل ما في بغداد، وربما حدثت حركة غير عادية في سجن المطبق.. حتى اصبح حمام الزاجل الجميل في نظر الكثيرين أكثر شؤماً من الغراب!

كان الخضر بن محمد البزاز(٢٦) وهو شيخ مستور في طريقه إلى السوق ليفتح دكانه الذي عادة ما يبكّر إليه.. ولم ينتبه إلى حمام الزاجل الذي غادر القصر متجهاً إلى الشمال الغربي من بغداد..

كان ذهنه مشغولاً برؤيا عجيبة استغرقت وجوده وما تزال تسيطر على مشاعره.. كانت المشاهد الملوّنة.. ما تزال ماثلة تنبض بالحياة لكأنها حقيقة وليست حلماً يراه الانسان في عوالم غامضة:

«دجلة هو نفسه في عالم المنام.. يتدفق باتجاه الجنوب.. والشاطىء يزخر بالنخيل، والشيخ في طريقه إلى رحبة الجسر.. الرحبة وهي ميدان واسع يكتظ بالناس يزحم بعضهم بعضاً.. وهتافات تقول: قد أقبل بيت الله الحرام..

وما هي إلاّ لحظات حتى ظهرت الكعبة بستائرها الحريرية كانت تنساب كزورق في بحيرة هادئة.. الكعبة تعبر الجسر إلى الجانب الشرقي من بغداد.. الناس يطوفون بالبيت العتيق ويهلّلون.. ولكن إلى اين يمضي البيت الحرام.. ها هو يدخل قصر خزيمة»..

آه يالـه من حلم عجيب؟! كف الشيخ عن محاولة اكتشاف الرموز في رؤياه العجيبة

وما لبث أن استغرقه العمل بعد أن دبّت الحياة في الأسواق والمدينة..

وفي ذلك الصباح غادر اسحاق بن ابراهيم قائد الشرطة بغداد إلى الضواحي القريبة بعد وصلته انباء عن اقتراب القافلة.. وأنّها قد تصل «الياسرية» بين ساعة وأخرى..

كما انتشر الخبر في المدينة بقرب وصول «ابن الرضا» فغمرت الناس حالة من الشوق لاستقباله كانت القافلة تقترب من بغداد ولأسباب ما حطّت رحالها في الياسرية ريثما تصل أوامر واضحة من قائد الشرطة والحاكم الفعلي لبغداد..

كانت نسائم دجلة تهبّ برفق، فتنعش القلوب.. واشرقت ابتسامة بريئة على وجهي محمد وحسن[٢٧] وهما ينطلقان في البريّة.. ووقف الأب يراقبهما بحبّ وأمل..

وجاء الفتح، الذي نفث الشيطان في روعه كلمة الكفر قال بعد أن حيّا الشاب الأسمر بأدب:

ـ يا بن رسول الله أتأذن لي في كلمة اختلجت في صدري ليلتي الماضية؟

أجاب الشاب:

ـ سل وأصخ إلى جوابها سمعك.. فان العالم والمتعلّم شريكان في الرشد.. مأموران بالنصيحة..

أما الذي اختلج في صدرك فان يشأ العالم أنبأك.. ان الله لم يظهر على غيبه أحداً الاّ من ارتضى من رسول.. وكل ما عند الرسول فهو عند العالم، وكل ما اطلع الرسول عليه فقد اطّلع اوصياؤه عليه.

يا فتح ان الشيطان أوهم عليك.. فيما ذكرته لك حتى أراد إزالتك عن طريق الله المستقيم.. فقلت: متى أيقنت انهم هكذا فهب أرباب!!

وظهر على وجهه البرىء حزن سماوي وهو يستطرد:

ـ معاذ الله: انهم مخلوقون مربوبون مطيعون داخرون راغمون.. فاذا جاءك الشيطان فاقمعه!

وسكت لحظات ليقول:

ـ يا فتح لا تتبع خطوات الشيطان..

وهوى الذي مسّته السماء إلى الارض ساجداً لله رب العالمين وكانت الكلمات الخاشعة تناسب كجدول يدندن:

ـ راغماً لك ياخالقي.. داخراً.. خاضعاً..

وعندما استوى جالساً التفت إلى الرجل الحائر:

ـ يا فتح كدت تهلك.. وما ضر عيسى لو هلك الذين اتخذوه الهاً.. إذا شئت رحمك الله..

وحتى يحطمّ في صدر الرجل وساوس الشيطان أوى إلى خيمته.. وتناول صحناً من قمح وقال:

ـ اجلس يا فتح.. فان لنا بالرسل أسوة كانوا يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق..

ولم ينس مهاجمة «المجسمة»[٢٨] فاستطرد قائلاً:

ـ ان كل جسم يتغذى الاّ خالق الاجسام.. الواحد الأحد.. منشىء الأشياء ومجسّم الاجسام.. تبارك وتعالى الله عما يقول الظالمون..

وسكت ليقول بعد لحظات:

ـ إذا شئت رحمك الله..

كل شيء يتوقف على وجود النور.. والنور يحتاج إلى عيون.. كما الحقيقة تحتاج إلى قلب يتفتح.. فالزهرة تتفتح للربيع، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام..

هذه هي الحقيقة ايها الحيارى.. فإن شئتم فافتحوا العيون والقلوب وتنفسوا ملء صدوركم شذى الربيع والعبير..

وغادر الفتح المكان وودّع الامام، وقد اشرقت في أعماقه أنوار الحقيقة.. والله أعلم أين يجعل رسالته..

وصل قائد الشرطة العام ومعه مسؤولون في الدولة لاستقبال الامام..

وعقد بعد ساعة اجتماعاً مع القائد يحيى قال فيه اسحاق:

ـ ان هذا الفتى من ذرّية الرسول.. وأنت تعرف جيداً رأي المتوكل وانحرافه.. ان كلمة واحدة تقولها ضده تكفي لقتله.. وعندها سيكون النبي خصماً لك يوم القيامة.

قال يحيى الذي بهرته سيرة علي:

ـ والله لم أر منه إلاّ كل شيء جميل!

ومع ذلك فقد احتاط قائد الشرطة عندما سأله يحيى قائلاً:

ـ متى تدخل بغداد؟

ـ في الغروب.

ـ ولماذا!

ـ في الظلام لن يراه أحد أن بغداد تتشوق لرؤيته[٢٩].

كان النبأ قد أحيا بغداد بقرب وصول «ابن الرضا»، ولذا اجتمع الكثيرون في الجانب الغربي قريباً من الجسر..

الشمس تغطس وراء النخيل المصطف على جبهة النهر كرموش حسناء..

ووصلت القافلة بغداد وقد بركت النوق في خان على أبواب المدينة المدوّرة..

وكان الاتفاق أن يكون قصر خزيمة في الجانب الشرقي من بغداد داراً لاستراحة الفتى المدني الحجازي الذي وصل على قدر..

وكانت فكرة اسحاق أن يمضي الفتى العلوي ليلة واحدة في بغداد، يغادر بعدها إلى سامراء..

وكان حمام زاجل قد ولى شطره صوب سامراء، ليكون قصر الخلافة على علم بآخر الأنباء..

سرعان ما استحال الرجل الذي وصل بغداد في الغروب إلى موكب مهيب، فقد احتشد أهالي بغداد للاحتفاء خاصّة الاحياء المتناثرة على الجانب الغربي من المدينة..

وشاهد الشيخ وقد جذبته الضجة فوق الجسر موكباً مهيباً واستطلع الأمر من الذين تجمهروا عند الرحبة في الجانب الشرقي فقال أحدهم وهو يتشوق إلى القادم:

ـ لقد قدم ابن الرضا..

وكاد الأمر يكون عادياً لو لم يلمح القادم المدني العزيز متجهاً نحو قصر خزيمة.. هتف الشيخ في اعماقه:

ـ هذا تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقاً(٣٠).

هذا فتى مبارك يحمل في صدره ميراث النبّوات الغابرة.. كم يشبه أباه.. ان ذاكرته ما تزال تتألق بوجه الجواد الأسمر قبل عشرين سنة!

الجماهير الظامئة إلى زمن الطهر والسلام تتدافع من أجل أن تمسّ الأكف سيّداً علوياً....

من أجل طهرك ايها السيد.. من أجل عينيك اللتين تفيضان أملاً وبراءة.. من أجل سلامتك المباركة.. من أجل مجدك يا بن الانبياء تستمر الحياة..

ليالي بغداد في أخريات تموز لها نكهة خاصّة فقد تناثر الذين ينشدون الهواء الندي والنسائم المنعشة على شطآن دجلة.. فيما كانت بعض القوارب تمخر المياه المنسابة في سكينة وصمت..

وكانت بعض القصور تتدفق من نوافذها الأنوار.. واصوات موسيقية طروب مفعمة بانغام غناء عذب تترقرق في الأزقة والسكك خاصة الشمالية حيث منازل التجار واصحاب النفوذ.. أما قصر خزيمة في ذلك المساء الصيفي فقد شهد مناجاة الانسان الذي يرنو نحو السماء إلى عوالم مليئة بالنور والنجوم.. وانسابت كلمات طاهرة مباركة هي نجوى الانسان مع الاله وحركته منه إليه فهو المبدأ والنهاية والانطلاقة والغاية:

ـ «الهى! صل على محمد وآله..

وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري..

وامحّى من المخلوقين ذكري..

وكنت في المنسيين كمن قد نسي..

«الهي تاهت أوهام المتوهمين

وتلاشت أوصاف الواصفين

واضمحلت أقاويل المبطلين

فأنت في المكان الذي لا يتناهى(٣١).

وسُمع وهو يأوي إلى فراشه ويحدّق في النجوم في أنوارها السحيقة يقول:

- «لا إله إلاّ هو الحي القيوم

وهو على كل شيء قدير

سبحان الله رب العالمين

وإله المرسلين..

وسبحان الله ربّ السماوات السبع وما فيهنّ..

وربّ الارض السبع وما فيهنّ..

وربّ العرش العظيم

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين[٣٢]..

ومع خيوط الفجر الأولى اتجهت القافلة إلى الشمال الغربي مولّية شطرها إلى مدينة سامرا متخذة من الساحل طريقاً إلى عاصمة بني العباس الجديدة..

الفصل الخامس

سامراء مدينة الاشباح.. مدينة يحكمها فرد واحد.. فرد لا يرى سوى منافعه ومصالحه.. لا يرى غير نفسه.. ولا هدف له سوى اللهاث وراء غرائزه المجنونة..

فهو السيد الأوحد المطاع الحاكم بلا رقيب أو حسيب، ولا يسأل عمّا يفعل وأما

الآخرون فهم العبيد.. عبيد يعيشوا من أجله.. الشعب كلّه يجب أن يستحيل إلى عبد ذليل يتضرع إلى حاكمه من أجل ان يبقى حيّاً..

لا معنى للحرّية، ولا وجود للأحرار.. ولك الله يا علي ايها القادم من بادية الحجاز على قدر.. كيف ستقضي العمر في هذه المدينة العجيبة؟!

اتجه القائد يحيى إلى قصر وصيف التركي وأحاطه علماً بوصول علي بن محمد.

تساءل التركي وهو يحدّق مليّاً في يحيى:

ـ هل شاهدت شيئاً مريباً؟

أجاب يحيى الذي لم ينس توصية اسحاق بن ابراهيم:

ـ كلاّ لم أرَ منه إلاّ الجميل.. انه فتى مبارك.

قال وصيف متهدداً:

ـ يا يحيى! والله لئن سقطت منه شعرة لا يطالب بها سواك[٣٣]! وامتلأت نفس يحيى اجلالاً لهذا الفتى.. إن سرّاً عجيباً يكمن في نفسه[٣٤].. لم يره انسان إلاّ احبّه وهابه في الطريق رأى اشياء عجيبة لو أخبر بها أحد لأتّهم بالجنون[٣٥].

غادر يحيى المكان متجهاً إلى قصر الخلافة.. من بعيد لاح آلاف العمال منهمكين في بناء قصر جديد.. ولكن ما ادهشه فيما بعد ان المحدّثين ورواة الاخبار في اجتماع دائم مع المهندسين ثم سمع بعد ذلك أن الخليفة يرغب ببناء القصر وفق ما ورد من أخبار حول قصر سليمان النبي، وما حواه من ابهة وما بداخله من تماثيل ذهبية وكان يؤكد على العرش الملكي الذي سيتصدّره أسدان ذهبيان وستحفه تماثيل الطيور في طليعتها تمثال الهدهد[٣٦].

وجد يحيى صعوبات جمة في لقاء الخليفة، ولم يستطع لقاءه الاّ قبيل الأصيل حيث اطلعه على تفاصيل طمأنته من ناحية «علي بن محمد».. وفوجيء يحيى بسؤال مباغت إذ قال له المتوكل:

ـ ماهي أوصافه؟

قال يحيى وقد تألّقت مشاهد عديدة في ذاكرته:

ـ فتى اسمر.. شديد السمرة[٣٧].. وسيع العينين.. عريض الصدر.. «قنى الانف.. مليح الوجه..

قال بدناءة:

ـ قصير أليس كذلك؟

أجاب يحيى:

ـ انه ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير.. معتدل القامة.

ـ ما الذي أعجبك فيه خلال السفر.

ـ انه رفيق سفر طيب أحاديثه تغسل الروح.. وهناك صفة تحببه إلى الناس..

ـ ماهي؟!

ـ انه يتعطر دائماً.. فيحس الذي يجلس معه أنه جالس في حديقة ملأى بورود الربيع.

كف المتوكل عن المشي، ورمى بنفسه على سريره الذهبي ورأى يحيى ساقيه الصفراوين(٣٨).

أومأ بكفّه إلى القائد أن انصرف.. أحنى يحيى رأسه وتراجع إلى الوراء..

تحرّكت في نفس المتوكل كوامن حقد كالسمّ اذ يموج في بطون الافاعي استدعى الحاجب سعيد بن صالح.. كان الخليفة يعرف أن في نفس حاجبة ميولاً شيعية فأراد أن يحطم ذلك باذلال الرمز قال له:

ـ لقد وصل علي بن محمد..

ـ أجل يا سيدي سمعت بذلك.

ـ سمعت من أين؟!

ـ في هذه المدينة تنتشر الاخبار بسرعة يا سيدي.

ـ ليقض ليلة في خان الصعاليك.. استقبله غداً في الصباح..

انحنى الحاجب الذي غادر منطوياً على ألم عميق..

عندما رآه سعيد كان يتوضأ للصلاة.. الشمس تغرق في الغروب الدامي وبدا الأفق حزيناً كجراح الانبياء..

قال سعيد مواسياً بعد أن أخبره بأمر الخليفة:

ـ فداؤك روحي، انهم يريدون إطفاء نورك.. والتقصير بك.. حتى انزلوك هذا الخان الأشنع.. خان الصعاليك(٣٩)..

ابتسم الفتى قال وهو يغمره بالحنان:

ـ انظر إلى الأفق البعيد.. ماذا ترى؟

ـ أرى افقاً دامياً ملتهباً متوقداً كالجراح..

قال الفتى:

ـ انظر ابعد من ذلك.. حدّق جيداً وتأمل ما وراء الأفق..

ـ لا استطيع يا سيدي.. لا استطيع.

قال الفتى:

ـ انك لا تريد ولو أردت لرأيت.. انني أرى عالماً يغمره السلام.. عالماً أخضر يرفل بالسكينة والجلال.. عالماً مغموراً بالجمال.. هناك لحظات تنكشف فيها ستائر الزمن السوداء.. وعندها تبدو للعيان عوالم مستورة بالغيب..

ما الذي جعل اصحاب الحسين يقاتلون يندفعون كالعاصفة إلى قلب الموت؟! لأنهم رأوا فيه ينبوع الخلود.. وعندما نظروا ما وراء غابات الرماح والسيوف رأوا جنّات من نخيل واعناب.. تتدفق خلالها الانهار..

في عاشوراء تفتحت أبواب السماء ورأوا عالمَ الحقيقة المطلقة.. ولذا منحوا اجسادهم تمزّقها السيوف..

وبكى سعيد هملت عيناه دموعاً من أجل الحسين:

ـ آه ليتني كنت مع الحسين.

ـ انك معه يا سعيد.. والذين يعشقون الحسين سيكونوا في قافلة الحسين.. انظر يا سعيد إلى ما وراء الأفق الدامي البعيد..

ورأى سعيد تلالاً من نور وجنائن معلّقة مغمورة بالسلام.. تزخر بالحياة.. كل شيء أخضر.. بلون الربيع..

ورأى سعيد في ذلك الغروب الحزين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولم يخطر على قلب بشر.

وأدرك سعيد أن علياً ينظر إلى المديات البعيدة.. إلى المديات التي يتطلع اليها الأنبياء..

الفصل السادس

الذين يعرفون خلفيات الصراع بين البيتين العباسي والعلوي.. الحكام والمعارضين.. الذين يعيشون في القصور والذين ينبض حبهم في قلوب الفقراء.. يعرفون ان الفتى الذي دخل سامراء على قدر ليس شخصاً عادياً أنه زعيم البيت العلوي بكل ما يحمله ذلك البيت الرفيع من زخم تاريخي..

انه من سلالة علي بن أبي طالب..

شمس تموز الأخيرة تطلّ من نافذة المسجد الجامع في قلب المدينة، وكان الفتى الذي أدى فريضة الفجر، قد فضل المكوث قريباً من نافذة مشرعة.. وقد هبت نسائم فجر نديّة تحمل معها عبير مياه النهر.. وكانت باحة المسجد مفعمة بعبير المياه المتدفقة من نافورة(٤٠) تستمد مياهها من دجلة.. وعندما غادر المسجد كانت الحياة قد دبّت في المدينة التي تبدو كمعسكر كبير! بسبب حركة الخيول وكثرة الفرسان الاتراك الذين يفضلون امتطاء صهوات جيادهم والهاب ظهورها بالسياط! ولم يكن عجيباً أن يطلق اسم «العسكر» على هذه المدينة التي ولدت قبل عقد ونصف من السنين.

وبالرغم من ذلك فقد بدا على الفتى الاسمر أنه قد أحبّها من أعماقه.. لقد جاءها مجبراً.. ولكنه لن يغادرها الاّ مجبراً.

الفتى الاسمر الذي اجتمعت في نفسه كل صفات الانسان يسير في طريقه إلى ملك طاغية لا يرى سوى نفسه.. ان التاريخ على موعد مع لقاء عجيب بين الانسان الحرّ والطاغية.. بين انسان يحب كل البشر وبين مخلوق لا يهتم الاّ بمنافعه الشخصية ولذائذه الهابطة.. بين انسان يرى في الكرامة شرف الانسان وبين حاكم يرى مجده في الثروة والتسلّط..

لك الله يا علي..

تعمّد المتوكل ذلك الصباح استقبال علي بالمزيد من مشاهد الابهة فقد اصطف الحرس على طول المدرّجات العريضة إلى بوابة القصر الداخلية..

وكان الفتى الاسمر يرتقي الدرجات واثقاً غير مكترث بهذه المظاهر التافهة..

وقف عملاقان يؤديان التحية على جانبي الباب الكبير المصنوعة من اشجار الجوز،

وفي الرواق المؤدي إلى البهو الواسع أزاح الخدم ستائر مخملية.. وباتت الطريق مفتوحة إلى البلاط الملكي، حيث يرتفع سرير ذهبي يقذف الهيبة في قلوب الضعفاء..

من المؤكد أن المتوكل لن يحب هذا القادم الاسمر بطوله الفارع وهيئته العربية وسمرته المحببة وخطاه الواثقة أنه رجل ذو كرامة.. ومن عادة الطاغية النفور من هؤلاء.. انه بطبيعته لن يحب الرجل الشريف ذا الروح العالية.. ولا يحب صاحب الشخصية المستقلة.. لأن الطاغية يدّعي في قرارة نفسه الوضيعة احتكار هذه الصفات الحميدة.. وبهذا يرى في الاحرار ذوي الكرامة والشخصية مزاحمين له في الجلال والسيادة.. ان وجود الانسان الحرّ في نظر الطاغية يعدّ في حدّ ذاته اعتداءً على سلطته! من أجل هذا يختار الطاغية الفاسدين من البشر ليكونوا له اصدقاء فهم عبيد التملّق والنفاق..

والطاغية يسكره التملّق وينتشي من كلمات النفاق.. ومن أجل هذا يفضّلهم على غيرهم من الشرفاء فترى موائده تعج بالمنافقين الأغبياء والحمقى المتملقين.. أما الأحرار فهم محاصرون أو مطاردون أو في اعماق المعتقلات والسجون!

كان المتوكل على سريره وكان يتصور أنه سيلتقي فتىً حجازياً قد بهرته المدينة الجديدة بقصورها أو أرعبه الحرس الغلاظ.. أو خطفت بصره فسيفساء القصر وبريق تماثيله الذهبية!!

فاذا بالعينين النجلاوين كانتا تسبران أعماقه، وقد وجد نفسه يقفز من سريره الذهبي ليعانق القادم ويقوده إلى حيث كان يجلس.. ولكن كل هواجس الشك والتوجس من هذا الشاب الاسمر قد ايقظت مخاوفه.. أنه لا يثق بأي انسان فكيف بهذا الفتى الذي يعتقد الألوف من البشر بامامته..

ماذا لو دعى اتباعه إلى الثورة المسلّحة.. ولكن التقارير كلها تؤكد أنه ليست له مساع في الثورة، أو الخروج على سلطة الخليفة..

قال المتوكل وقد أراد أن يسبر ما في اعماق الفتى الذي يصغره بعشرة أعوام:

ـ ما يقول أبناء علي في العباس؟!

قال الفتى وهو يدفعه باتجاه الخير:

ـ ماذا تريدهم يقولون في رجل أمر الله الناس باطاعة أولاده، وينتظر من أولاده أن يطيعوا الله؟!

ابتهج المتوكل للجواب وإن جاء في صيغة سؤال استنكاري فيه حث على طاعة الله.. ولكنه على كل حال جواب مطمئن.. ان عينيه تتألقان صدقاً..

ـ ستقيم في «سر من رأى».. اعرف أنك امضيت ليلة في ذلك الخان البائس.. سوف

تستلم مبلغاً يساعدك على شراء دار جديدة..

ابتسم الفتى في ودّ ونهض يغادر القصر.. فشيعه الخليفة بنفسه، وقفز خادمان يرفعان الستائر أمامه.. ومن فوق المدرجات العالية القى الفتى الاسمر نظرة مفعمة بالأمل على الافق البعيد..

يستطيع الطغاة أن يفعلوا أشياء كثيرة ولكن هل يستطيعون وقف المياه في دجلة.. أو منع الشمس من الشروق.. أو القمر من التألق في السموات.

وهل بامكانهم منع الايمان أن يتلألأ في القلوب المضيئة؟!

الطغاة عاصفة مجنونة.. عاصفة هوجاء ربما تطيح ببعض الاشجار التي لم تضرب بجذورها الارض.. ولكنها لن تستطيع أن تمس ورد البنفسج الهادىء المختبىء في مكان من سرّة الأرض يبعث بشذاه ولا أحد يراه..

لم يطل بحث الفتى عن منزل مناسب فقد عثر على ضالّته في الشارع الكبير المؤدي إلى المسجد الجامع انه منزل «دليل بن يعقوب» المهندس النصراني المشهور (٤١)بيت فسيح فيه حديقة خلفية..

وفي باحة البيت يوجد مدخل مزوّد بسلالم تؤدي إلى سرداب كبير يتوسطه حوض.. يستمد مياهه من قناة جوفية تجلب المياه من دجلة وهناك سدّاد يتحكم في تدفق الماء الذي يؤدي فيما بعد إلى الحديقة(٤٢).

لقد دعا الله أن يرزقه منزلاً طيباً وها هو يعثر عليه في نفس اليوم.. كثيرون غبطوا الفتى على منزله الجديد وكثيرون أيضاً حسدوه!

وهكذا انتقل الامام مع أفراد عائلته إلى المنزل الجديد الذي يقع على الشارع الرئيسي في المدينة في ما يعرف بدرب الحصا.. سيكون هذا المنزل مأوى الفقراء وواحةً وسط الصحراء.. صحراء الحياة..

سوف يستحيل السرداب إلى صومعة في الليالي وسيكون له شأن في مستقبل الايام.. والأيام حبلى بالحوادث.. من يدري؟!

وربّما تندثر المدينة.. ستستحيل إلى اطلال ولكن المنائر والقباب سوف تشق في هذه البقعة التراب.. وتمتد إلى الفضاء تعانق زرقة السماء.. وسوف تطوف حولها حمائم بيضاء.. هنا يكمن سرّ الانسان الذي عرف زيف الزمن واكتشف نبع الخلود!

ولكن ذلك يتطلب صبراً عجيباً واستقامة على الطريق.. طريق محمد وعلي والحسين!

الفصل السابع

نحن الآن في شتاء سنة ٢٣٣هـ، ورياح شباط من سنة ٨٤٨م تلفح الوجوه وقد زاد من قساوتها الجفاف الذي ضرب أطنابه منذ شهور..

وكان هذا العام عاماً مشؤوماً.. فقد ضربت الزلازل الشام في أنطاكيا ودمشق وسقطت منارة الجامع الأموي وشرفاته وتصدّع محرابه.. ولقي الكثيرون حتفهم تحت الانقاض..

كما اجتاحت السيول الموصل وغرق آلاف السكان.. فيما كانت رياح السموم تنفح

الوجوه في اقليم الحجاز..

أما سامراء فقد ضربها زلزال من نوع آخر إذ قاد المتوكل عملية قلب لنظام الحكم فقد أطاح أولاً بالمذهب المعتزلي الذي اصبح مطارداً بعد أن كانت له السيادة، كما قام الخليفة بتكريم احمد بن حنبل الذي ظل في سامراء شهرين ليعود إلى بغداد بعدها ويصبح مستشاراً للخليفة..

وامتلأت السجون برجال العهد البائد اضيف اليهم بعض الشخصيات المتعاطفة مع أهل البيتΔ.

وفيما كانت الزلازل تهز بلاد الشام والسيول تجتاح شمال العراق والناس يموتون تحت الأنقاض ويغرقون في المياه.. كان الخليفة الذي بلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة يقضي لياليه الحمراء بين اصدقائه من المهرّجين والمتملّقين والتافهين..

بلاط المتوكل يعجّ بهؤلاء وكان «عبادة المخنّث» يقوم بحركات بهلوانية والمتوكل يضحك.. المخنث يعرف كيف يدخل إلى قلب الخليفة.. وضع تحت ثوبه مخدّة وشدّها إلى بطنه ورمى بقلنسوته فبدت صلعته.. راح يؤدي رقصات مضحكة.. فيما راح الخليفة يقهقه.. ثم قام بحركة جعلت الخليفة يقفز ضاحكاً.. المخنث المنحط يصيح:

ـ أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين!

وأدرك الجميع أن المتوكل يحقد على علي بن أبي طالب حتى اكثر من عدوّه اللدود معاوية.

رمى المتوكل بصرّة مليئة بالذهب فتلقفها المخنث وعيناه تبرقان دناءة.. وفي هذه اللحظة.. انبرى شاعر انتهازي ليهتف:

كانت خلافة جعفر كنبوّة ... جاءت بلا طلب ولا بتنحل

وهب الاله له الخلافة مثلما ... وهب النبوّة للنبي المرسل[٤٣]

وانتشى الخليفة لقد بدأ زمن الطغيان وتأليه الطاغية..

صاح الخليفة:

ـ اعطوه خمسين الف درهم!

وقفز شاعر آخر اكتشف طريق المجد.. انه يمرّ من فوق مجد الأحرار.. وهل هناك أفضل من الهجوم على السيدة الزهراء وابنائها؟ وعلي بن أبي طالب ومجده؟ الكلمات المنتفخة بكل قذارات الدنيا تخرج من فم مليء بالصديد:

ملك الخليفة جعفر ... للدين والدنيا سلامة

لكم تراث محمد ... وبعد لكم تنفى الظلامة

يرجو التراث بنو ... البنات ومالهم فيها قلامة

والصهر ليس بوارث ... والبنت لا ترث الامامة

مـــــــا للـــــــذين تنحّلـــــــوا ميـــــــراثكم إلاّ الندامـــــــة(٤٤)

وهتف الخليفة:

ـ انثروا عليه عشرة آلاف درهم.. وهذه لا تكفي أبداً اجعلوه حاكماً على البحرين واليمامة.

نظر علي بن الجهم بحقد إلى منافسه مروان وهمس في أذن الخليفة:

ـ انك لم تعطني شيئاً..

قال المتوكل هازئاً:

ـ لأنك لم تهاجم الرافضة..

استأنف المخنث حركاته المضحكة، وراح الخليفة يحتسي المزيد من كؤوس الخمرة.. عندما تقدّم «ايتاخ» ليهمس في أذن الخليفة بخبر طارىء..

سيطر الوجوم قليلاً على وجه المتوكل.. وما لبث أن عاد إلى مرحه.. ان هرب أحد القادة(٤٥) لن يشكل خطراً.. واليوم خمر وغداً أمر..

ورفع المتوكل كأساً بلورياً جديداً، ولوّح به أمام أصدقائه معلناً استئناف المرح..

أجلس الخليفة ايتاخ إلى جانبه.. ايتاخ الرجل الدموي الذي يسيطر على البلاط.. في

يديه الغليظتين قيادة الجيش والحرس الخاص.. من مغاربة وأتراك ومسؤولية البريد الملكي والحجابة وشؤون القصر وفي قلبه الذي يشبه كتلة من الرصاص اسرار كثير من الذين لقوا حتفهم على يديه..

باستطاعته أن يهدم القصور على ساكنيها.. إشارة واحدة للحرس تجعلهم ينقضون على أي هدف يحدّده..

وجهه القاسي ونظراته التي يرسلها.. أشاعت رهبة لدى الحاضرين.. وشعر المتوكل بعقدة الحقارة وبموجة من الحقد تتجه إلى هذا العملاق الذي يجلس إلى جانبه.. كم يبدو تافهاً في نظر الآخرين.. نهض البحتري لينقذ الموقف ويبدي مواهبه الشاعرية: منشداً:

ـ عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتلم..

نظر إلى الحاضرين ولكن احداً لم يتفاعل مع شعره.. فشعر بالحزن ولكنه راح يهزّ رأسه ويتراجع إلى الوراء متفاعلاً مع الشعر ويرفع يديه ملوّحاً مغمضاً عينيه مكرراً ثم أردف:

ـ قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم..

الصمت ما يزال مهيمناً ولذا هتف:

ـ احسنتُ والله..

والتفت إلى الحاضرين قائلاً:

ـ مالكم لا تقولون لي أحسنتَ.. هذا والله لا يحسن أحد أن يقول مثله!

ورمقه المتوكل باحتقار.. والتفت إلى أحد المهرّجين لكي يسخر منه.. اندفع المهرّج مقلّداً حركات الشاعر البحتري:

من أي سلْح تلتقم وبأي كف تلتطم

يا بن الثقيلة والثقيل على قلوب ذوي النعم

ارتد الشاعر إلى الوراء وغادر المكان فيما طارده المهرّج وهو يصيح:

من أي ملح تلتقم وبأي كف تلتطم

يا بن الثقيلة والثقيل على قلوب ذوي النعم(٤٦)

فيما استغرق المتوكل في الضحك فوق سريره ومتعمداً ضرب بقدمه ايتاخ الذي نظر إليه واجماً.. راح المتوكل يعبّ كؤوس الخمرة، التي لعبت برأسه وبدأت مكنونات خفيّة.. تأخذ طريقها إلى البروز.. تحت وطأة السكر يتعرّى الانسان وتظهر كل نواياه.. ابتدأ أولاً يسب ويشتم.. شتم الزيّات.. ثم عرّج على عمر بن فرج.. الذي لم يصله الدور بعد..

وعندما وقعت عيناه المتوهجتين على ايتاخ ضربه بقدمه.. وصاح بصوت فيه سكر

ـ ايها البغل ماذا تفعل؟.. أما زلت تجيد الطبخ يا ايتاخ؟(٤٧)

واطلق البعض ضحكات مكبوتة.. وفارت الدماء في رأس ايتاخ الدموي..

وضع كفّه الغليظة على سيفه وقد اجتاحته رغبة في البطش بهذا المخلوق التافه..

وحبس الجميع أنفاسهم أن كارثة قد تحصل في أية لحظة.. ان الخليفة لا يدري ما يفعل ونهض ايتاخ وبأشارة واحدة اختفى المهرّجون والمخنثون..

في عيني ايتاخ بريق من جُرح كبرياؤه.. بريق ينذر بالخطر ودّ لو ينقضّ على هذا المخلوق التافه الذي لا يهمّه في الحياة سوى لذائذ هابطة..

وفي الصباح عندما أفاق المتوكل من غيبوبته وعرف ما حصل في ساعات الليل.. كان أول شيء فعله أن انطلق نحو ايتاخ رجل سامراء القوي.. ان اصلاح الأمور في نفس اللحظة أفضل.. فأيتاخ يستطيع أن يحيل سامراء إلى خرائب.. هذا الرجل الدموي لا يتورع عن فعل أي شيء.. من أجل هذا خاطبه بلهجة متملّقة ذليلة:

ـ ايتاخ! أنت مثل أبي.. أنت رئيسي وأبي.. أنت رئيس دولتي[٤٨].. ان السكران لا يدري ماذا يقول.. وفعلت الكلمات المتملّقة فعلها في الرجل الذي مات قلبه من كثرة ما حصد من الرؤوس.. لهذا أقلع نهائياً من التفكير بقتل المتوكل فهو على كل حال الحاكم الفعلي ورئيس الدولة.. أمّا المتوكل فلن يكون سوى أداة في يده..

من أجل هذا انحى للمتوكل معرباً عن ولائه له وعندما غادر المكان شيعه بنظرات

حاقدة وقد اضمر في نفسه اغتياله[٤٩] وفي تلك اللحظات دخلت زوجته الباهرة الجمال.. الحسناء الساحرة التى اختفى اسمها الحقيقي ليكون اسمها «قبيحة» لشدّة حسنها.. دخلت ترتدي ثياب الغلمان وقد صففت شعرها بطريقة تشبه طريقة الغلمان ايضاً..

لقد اصبحت زوجته الرسمية الوحيدة بعد أن كانت مجرّد جارية.. انها تعرف ميول سيّدها ورغباته الشاذة.. من أجل هذا تمكنت من طرد زوجته «ريطة» وأن تأسره..

ها هي تتقدم نحوه وقد جاءت بمكر جديد.. كتبت على خدّها الأسيل «جعفر» أما الحبر فقد كان من مسك مداف بزعفران..

لم تكتف بهذا بل أمرت إحدى جواريها المغنيات أن تقف خلف الستائر الحريرية وتشدو بصوت عذب:

وكاتبة بالمسك في الخدّ جعفرا ... بنفسي خط المسك من حيث أثرا

لئن أودعت سطراً من المسك خدّها ... لقد أودعت قلبي من الحبّ أسطرا[٥٠]

آه أيتها الفاتنة اللعوب.. ما أجملك!! انني أهيم بك.. أعبدك..

وأخذ بيدها وغابا خلف الستائر المخملية في جناح الحريم..

الفصل الثامن

الرياح القارسة البرد، تولول في أزقة سامراء وشوارعها، والليل البهيم يلقي بكلاكله الثقيلة، حتى الذئاب كفّت عن العواء وأضحت الشوارع مقفرة، كمدينة مهجورة، ما خلا اشباح تمرق في الظلام.. وما يزيد الرهبة ان تلك الاشباح لم تكن ملثمة بسبب البرد فهناك مهمات سرّية جداً.. سامراء مدينة يحكمها الجواسيس..

وفي قلب هذا البرد الشديد يلحظ المرء منزلاً على الشارع الكبير في درب الحصا.. منزلاً مغموراً بالدفء والنور.. ولو أرهف الجواسيس اسماعهم لسمعوا لحناً سماوياً.. تنساب تلاوة دافئة مضخمة بالحزن، مفعمة بأسىً شفيف.. ان هذا الواقف في محرابه في صمت الليل.. فتى علوي طوى من رحلة العمر عشرين سنة.. ينظر إلى حواليه فيرى شريعة جدّه السمحاء غريبة.. منزوية في المساجد قد انحسر مدّها في اجهزة الدولة والأسواق والعلاقات الانسانية يرى مجتمعاً متفككاً.. يحكمه رعب وخوف.. ويرى أناساً يعبدون الطاغية من دون الله.. من أجل هذا يرفع بصره إلى السماء إلى نقطة ما هي محور الوجود.. الوجود كلّه فتأتي كلماته وثيقة ادانه لهذا العصر المنحط:

- «يامن تفرّد بالربوبية، وتوحّد بالوحدانية.. يا من أضاء باسمه النهار.. واشرقت به الانوار.. واظلم بأمره حندس الليل.. وهطل بغيثه وابل السيل..

يا من دعاه المضطرون فأجابهم.. ولجأ إليه الخائفون فآمنهم..

بك اعتصمت.. من الذين ألحدوا في اسمائك وأرصدوا بالمكاره لاوليائك..

وأعانوا على قتل أنبيائك واصفيائك..

وكذّبوا رسلك، وصدّوا عن آياتك..

وعبدوا طواغيتهم بدلاً منك..

أسألك اللهم باسمك الذي خشعت له السماوات والارض واحييت به أموات الأشياء، وأمتّ به جميع الاحياء.. واتممت به الكلمات، وأريت به كبرى الآيات..

أن تصلّي على محمد وآل محمد..

وأن تجعل شيعتي من الذين حملوا فصدقوا واستنطقوا فنطقوا.. آمنين مأمونين»[٥١]..

واستحال المحراب في ذلك الليل البهيم إلى ساقية تترقرق بالآيات.. آيات السماء.. وتألّقت سور القرآن صوراً ومشاهد ملوّنة.. من سورة الحديد.. سورة الحمد سورة ياسين.. سورة الرحمن[٥٢]..

وعندما يسلم الانسان قلبه إلى السماء.. تضيء في أعماقه الآيات الكبرى.. فيرى الوجود حركةً متوحّدة متناسقة تتجه إلى غائية وهدف.. وعندما يختار الانسان بإرادته الاندماج في هذه الحركة.. الانصهار في بوتقة الوجود.. عندها يرى الاشياء على حقيقتها بعيداً عن زيف الزمن.. لأن الحقيقة تكمن دائماً خارج الزمن.. سوف يرى القصور المنيفة والقلاع خرائب.. والمدن الآثمة أطلالاً، والطاغية مخلوقاً تافهاً، وشجرة بلا جذور ما لها من قرار..

ومهما اشتد برد الشتاء مهما ولولت رياحه القارسة.. ومهما تضاعف هبوبها فان حركة الزمن تتجه نحو الدفء والربيع.. فليس هناك شتاء أبدي.. كما لا يبقى الصقيع إلى ما لا نهاية..

والله وحده الربُّ محرّك الوجود وبارئه، منذ الأزل إلى الابد..

«الهي تاهت أوهام المتوهمين.. وتلاشت أوصاف الواصفين.. فأنت في المكان الذي لا يتناهى.. يا أولي يا واحداني»[٥٣]..

أين النمرود في أرض بابل؟! وأين فراعنة الأرض؟! أين الطغات على مدار التاريخ؟

المجد وحده للإنسان عندما يسجد لله.. المجد لمن يعبد الله وحده.. والحرّية لمن لا يرى نفسه عبداً إلاّ لله.

ويستحيل المتوكل إلى مخلوق ضئيل أكثر ضآلة من ذبابة أو بعوضة.. أنه لا يصبح مخيفاً الاّ في النفوس التي لم تذق طعم العبودية لله.. ولله العزّة ورسوله وللمؤمنين.

وعندما يتجه الانسان إلى ربّه.. عندما يلتحم بحركة الوجود فأنه يستمدّ طاقات جبّارة هي جذوة من القدرة المطلقة.. وقبس من الإرادة اللانهائية..

من أجل هذا كان علي بن محمد قويّاً كالجبل.. طاهراً كقطرات الندى.. سخياً كالينابيع.. مهيباً كالعاصفة.. أخضر كالربيع.. شفافاً كالقمر والنجوم..

من أجل هذا كان المتوكل يخشاه.. يهابه.. يجد نفسه حقيراً ضئيلاً في حضرته!

الذين يرتعدون أمام الطاغية هم ضعيفو النفوس.. المنحطون التافهون الذين لاهم لهم سوى البطن وأسفله.. أما الاحرار الذين يتطلّعون إلى ملكوت السماوات فقد تخلصوا من الأسر البشري.. انهم يرون حركة الوجود.. حركة التاريخ.. ويرون الاشياء على حقيقتها.. كل شيء بابعاده الحقيقية.. لقد انطلقوا من أسر قضبان الزمن الصدئة واكتشفوا سرّ الخلود..

اطلّ رمضان بوجهه الكريم وبدأت رحلة الانسان المؤمن إلى الله.. رحلة الجوع والارادة التي لا يقهرها الشيطان.. ولكنّ الذين خضعوا للشيطان وسجدوا له لم يكترثوا لرمضان.. ورمضان الكريم كنهر تنثال مياهه العذبة على الشطآن.. فتهب الظامئين الكوثر.. والحيارى ظلالاً وارفة..

في الصباح استيقظت سامراء على حدث آخر.. لقد اعتقل «عمر بن فرج»!!

الذين توقعوا نهاية الزيات السوداء توقعوا لعمر نفس ذلك المصير.. ولكن المتوكل الذي يحقد على هذا المخلوق انتهج اسلوباً آخر في معاملته.. سوف يدفع به إلى الحضيض.. ولكن بعد أن يرفعه كثيراً.. ومن ثم يدفع به نحو الهاوية ليكون سقوطه مدوّياً.. سوف يدفعه إلى المزيد من الحقارة والتفاهة والانسحاق..

تحمل المتوكل منادمته.. حضوره المستمر في البلاط وكان عمر بن فرج يظن أنه يلتقي مع الخليفة على صعيد هام! هو الحقد المشترك على علي وابناء علي.. ولقد أفاد المتوكل من هذا المخلوق كثيراً انه غافل عما يخطط له الآخرون.. هناك على أبواب القصور انتهازيون كثيرون ينتظرون دورهم في اختطاف لحوم البشر.. هناك الكثير من الذئاب التي لا ترحم.. وما أدسم هذا الصيد.. عمر بن فرج الذي مضت عليه أعوام وهو يكتنز الأموال في بغداد وسامراء والأهواز..

وأخيرا سقط الثور.. فتخطفته الانياب.. لقد سمن بما فيه الكفاية..

وقع كل شيء بسرعة فقد حضر اسحاق بن ابراهيم حاكم بغداد وتسلّمه شخصياً، حيث نقل إلى بغداد وصودرت جميع أمواله المنقولة وغير المنقولة ووزعت مئة جارية على قصور الخلافة.. والقي في إحدى زنزانات المطبق سجن بغداد الرهيب(٥٤).

وجاء رجل يعدو إلى منزل الامام يبشّره.. كم هو جميل منظر سقوط الطواغيت.. وكم هو عميق درس هذا السقوط؟.. قال الفتى العلوي لصاحبه:

ـ أتدري كم كان يضايق أبي؟ كان يومها حاكماً على المدينة خاطبه أبي في شيء فقال له عمر: أظنّك سكران..

تألم أبي بشدّة لقد كان صائماً حينها.. سمعته يدعو عليه قائلاً: اللهم انك تعلم اني صائم.. اللهم أذقه ذل الأسر»(٥٥).

الامام يستعد للذهاب إلى قصر المتوكل كما تقضي المراسم في ذلك.. احضر ياسر الخادم ثوباً جديداً.. كما احضر قدحاً مليئاً بالماء.. تلا الامام سورة القدر وسورة التوحيد وسورة الكافرون.. ونضح قطرات من الماء على الثوب الجديد.. وابتدأ بارتداء الثوب من اليمين.. وقال لياسر في ودّ:

ـ اخبرني أبي ان جدّي علي الرضا كان يفعل ذلك وقد قال: من فعل هذا بثوبه من قبل أن يلبسه لم يزل في رغد من عيشه ما بقي منه سلك»(٥٦).

واستوى علي فوق بغلته التي راحت تتقدم باتجاه السوق وعندما حاذى دكان «يونس النقاش» هبّ الرجل لتحيته، وردّ العلوي التحية مفعمة بابتسامة ومودة..

كان النقاش يستبشر خيراً كلما رأى هذا الفتى المبارك.. ولم يكن يصغي لشائعات كثيرة عن جواسيس يراقبون الفتى الحجازي.. وأن الخليفة يضمر له الشرّ ويتحيّن له الفرص.. فقد كان يزوره(٥٧)، ويقوم ببعض الخدمات تعبيراً عن حبه واحترامه..

عندما وصل السيد العلوي القصر كانت البوابة تكتظ برجال فوق خيولهم وبغالهم ينتظرون الأذن بالدخول.. وعندما وصل الفتى لم يملكوا انفسهم من القفز من فوق دوابهم اجلالاً لهيبته ووقاره ان له جلالاً عجيباً.. جلالاً يدفع بالانسان إلى الخضوع في حضرته.. حيّا الرجال الفتى العلوي واحنوا رؤوسهم، وقد ظهرت حالة من الخشوع في عيونهم.. حتى إذا اجتاز الامام البوابة الكبرى.. عادوا فامتطوا صهوات الخيول..

انبرى رجل عباسي حانقاً:

ـ لمن نترجل؟! لهذا الغلام؟! انه ليس بأشرفنا، ولا بأكبرنا سنّاً..

واستطرد محرّضاً بغيظ:

ـ والله لا نترجّل له إذا خرج..

ردّ «أبو هاشم الجعفري» بثقة:

ـ والله لتترجلنّ له صغاراً وذلّة!

لم يكد الفتى يقترب من الستائر المخملية للقصر، حتى هب الخدم لرفعها أمامه.. انهم

يفعلون ذلك تطوعاً ويجدون في تصرّفهم لذّة عجيبة.. هذا فتى نبيل تشع من وجهه أنوار روحانية وما زاد تودّدهم له أنهم سمعوا بعد ذلك أنه من نسل النبيo ان دماء الرسول تجري في عروقه..

هبّ المتوكل للقائه، على الرغم منه.. قاده إلى سريره ليشاطره الجلوس.. وسيطرت على الجميع سكينة النفس الكبيرة.. حتى «علي بن الجهم» ذلك الشاعر الذي لا يكتم أحقاده على علي وأبناء علي استغرقته حالة من الوجوم وقد كان سيّد الحديث قبل أن يصل علي ابن الرضا..

المتوكل يعرف عقدة الشاعر من علي[٥٨] لأنه ابن علي..

أراد المتوكل أن يكسر الصمت فقال لشاعره:

ـ من هو أشعر الناس.

راح ابن الجهم يعدّد شعراء في العصر الجاهلي وبعده.. ويستشهد ببعض الأبيات.. حى ان المتوكل ضجر منه فالتفت إلى إبن الرضا وسأله:

ـ ما رأيك يا أبا الحسن؟

قال الامام بإباء:

ـ الحمّاني حيث يقول:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة ... بمطِّ خدود وامتداد أصابع

فلما تنازعنا المقال قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع

ترانا سكوتاً والشهيد بفضلنا ... عليهم جهير الصوت في كل جامع

فإن رسول الله احمد جدّنا ... ونحن بنوه كالنجوم الطوالع(٥٩)

تساءل المتوكل:

ـ وما نداء الصوامع يا أبا الحسن؟!

قال الامام:

ـ اشهد ان لا إله الاّ الله واشهد ان محمد رسول الله.. جدّي أم جدّك.

أجاب المتوكل:

ـ أجل جدّك.. لا ندفعك عنه[٦٠].

وعندما غادر الامام القصر. قفز الذين ينتظرون عند البوابة من خيولهم، وارتفعت هتافات تكبير وتهليل، ونهض الجالسون إجلالاً لهيبته تمتم «الجعفري» باعتزاز:

ـ «ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين» «الله اعلم حيث يجعل رسالته»!!

والتفت إلى الذين أقسموا أنهم لن يكترثوا له قائلاً:

ـ أليس زعمتم انكم لا تترجلون له؟!

أجابوا منبهرين:

ـ والله ما ملكنا انفسنا حتى ترجّلنا!

الفصل التاسع

الليل في سامراء بهيم.. والسماء بلا قمر خيمة كحْلية تنبض فيها النجوم كقلوب واهنة.. كل الاشياء اخلدت إلى النوم وارتدت ثوب الغموض والأسرار..

في الليل تنام الكائنات ترقد في سباتها، وتستيقظ الدسائس والمؤامرات تستيقظ الغرائز المجنونة لتنطلق وتعربد، وكان المتوكل يحتفل بليلة حمراء تذبح فيها الكرامة الانسانية على مذبح الشهوات الآثمة..

كان «ايتاخ» الرهيب يصدر تعليماته موجزة، قاسية ونافذة، عندما اقترب منه أحد افراد الحاشية.. عيناه تبرقان بالمكر وعندما حيّا ايتاخ كان قد ارتدى ثوب الناصحين فقال بدهاء:

ـ إنّك تتعب نفسك ايها القائد..

ـ ماذا تعني؟!

ـ اعني ينبغي أن تخلد إلى الراحة قليلاً..

ـ ان مسؤولياتي كثيرة.. كثيرة جداً..

ـ هذا صحيح.. ولقد بلغت المجد وحزت على ثقة الخلفاء.. ولكن هناك ما ينبغي أن تقوم به لتبلغ ذروة مجدك..

هبّت كل خلايا مخّه:

ـ عمل!! أي عمل؟!

ـ أطلّ هلال ذو القعدة.. وآن لك أن تحج إلى بيت الله الحرام.. الحج واجب، وأنت قائد مسلم، وعلى المسلم حج البيت إذا استطاع سبيلاً.. المسلمون لا يغفرون لأحد يتساهل في أداء الواجب.. أتذكرُ ما حلّ بالأفشين.. قتلوه وحرقوه.. لأن القاضي أشاع عليه أنه لم يختتن.. لم يشفع له فتح عمورية ولا قضاؤه على ثورة بابك الخرمي..

بدا العملاق يصغي خاضعاً لكلمة حق أريد بها باطل.. حقاً أن عليه أن يحج إلى مكّة..

في اليوم التالي أعلن القائد إيتاخ رغبته في حج بيت الله الحرام وكان أكثر الناس سعادة المتوكل الذي شعر بأن خطته قد نجحت، وأن ايتاخ قد سقط في بيت العنكبوت..

اتخذ المتوكل اجراءات عكست للكثير منزلة ايتاخ باعتباره الرجل الثاني في الدولة بل أقوى رجل.. فقد اتخذ البلاط الملكي قراراً بتنصيب القائد ايتاخ اميراً في كل بلدة يدخلها وأن أوامره هي النافذة فيها..

كما خصص له مبالغ طائلة للانفاق وتغطية رحلة الحج له، ولثلاثمئة من رجاله الاشدّاء..

وشعر ايتاخ بأنه كان عليه أن يقوم بهذه الرحلة في وقت مبكر لقد تأخر كثيراً جداً وأحس بأنه مدين لذلك الرجل الذي قدّم له النصيحة ليلاً.. سوف يكافئه، وقد يوصي ولديه مظفر ومنصور بتعزيز مركزه في البلاط..

لم يكد ايتاخ يغادر سامراء وهو يتصدّر رجاله الاشدّاء حتى فرك المتوكل يديه وسارع إلى تنصيب القائد «وصيف» حاجباً عاماً في قصر الخلافة[٦١] ومنحه صلاحيات واسعة..

في مكة بدأت مناسك الحج الاكبر، وفي يوم التروية أوصى علي بن محمد أحد أصدقائه أن يشتري له غنماً كثيرة[٦٢] لتقدم قرابين لله في عيد الاضحى ويوزع لحمها على الفقراء خاصّة العلويين الذين كانوا يواجهون مضايقات شديدة في تحصيل لقمة العيش..

انطوى موسم الحج وعاد الحجيج إلى ديارهم.. وبدأ ايتاخ رحلة العودة باتجاه العراق..

أما المتوكل فقد أوعز إلى اسحاق بن إبراهيم قائد شرطة بغداد بتنفيذ خطة للقبض عليه.. كما بعث بهدايا نفيسة إلى الانبار لاستقبال القائد ايتاخ..

فرح ايتاخ بالهدايا الثمينة وفي الاثناء تسلّم رسالة من حاكم بغداد جاء فيها:

ـ «ان أمير المؤمنين يأمرك بزيارة بغداد والحلول في قصر خزيمة.. واستقبال الشخصيات الهاشمية وتوزيع بعض الجوائز[٦٣]..

فسّر ايتاخ ان المتوكل يبالغ في اكرامه ليرفع من شأنه في الدولة والرأي العام.. لهذا أعرب عن سروره في تنفيذ رغبة الخليفة.. فتحرك باتجاه بغداد بعد أن عبر نهر الفرات..

أما اسحاق فقد شحن الجسر المؤدي إلى قصر خزيمة بقوّات الشرطة والجيش.. وانطلق إلى الياسرية على تخوم بغداد لاستقبال القائد التركي الكبير.

هيأت منصّة لحاكم بغداد للاستراحة والانتظار، وسمع أحدهم يهتف بوصول القائد التركي.. امتطى اسحاق صهوة جواده لاستقبال الموكب القادم..

وبدا العملاق فوق حصانه مرتدياً قباءً ابيض متقلداً سيفاً بحمائل، واراد اسحاق الترجّل مبالغة بالاحتفاء به فاقسم عليه القائد إلاّ يفعل.. وسارا على فرسيهما جنباً إلى جنب..

كانت الخطة أن يجتاز ايتاخ الجسر نحو قصر خزيمة المطلّ على دجلة.. أما حرسه المؤلف من ثلاثمئة شاب فأن الشرطة تتظاهر باستقبالهم وقيادتهم إلى اماكن استراحتهم وعندما وصل ايتاخ بوابة القصر لم يكن معه سوى ثلاثة من رجاله.. ودخل ايتاخ القصر وأغلقت وراءه الأبواب باحكام وعندما وجد نفسه وحيداً عض على أسنانه بغيظ.

ـ لقد فعلوها.. لقد كانت مؤامرة أذن.. آه لو أنني في سامراء لأحلتها إلى خرائب.. اشارة واحدة فقط تكفي لقطع رأس ذلك الخليفة الحقير..

أصدر قائد الشرطة العام بكسر جميع المدرجات خارج القصر.. كما وضعت مفارز مسلّحة على الأبواب المطلّة على نهر دجلة.. ان فراره إلى سامراء يعني نهايتهم جميعاً وفي منتصف الليل قدمت إليه وجبة من الطعام تتألف من رغيف خبز وكوزاً من الماء[٦٤].

وحلّق حمام زاجل من قصر اسحاق باتجاه سامراء، فاحتفل المتوكل بنصره الجديد وأصدر أمره بالقاء القبض على ابني ايتاخ: المظفر والمنصور وعلى كاتبيه: سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني وارسالهم مخفورين إلى بغداد..

وكان المتوكل قد طلب نجدات عسكرية من خراسان تحسباً لردود الفعل.

قال المتوكل وهو يسلّم المتهمين لاسحاق ويشير إلى سليمان بن وهب:

ـ هذا عدوّي.. فحطّم عظامه.. لقد كان يحتقرني في أيام المعتصم، وكان يخاطبني كما لو يخاطب عبده.. ان كل ما يفعله ايتاخ فعن رأيه!

.. في بغداد ألقي المتهمين في سجن المطبق الرهيب وزجّ سليمان في مرحاض مظلم لا يعرف فيه الليل من النهار(٦٥).

كما تم نقل ايتاخ من القصر في حرّاقة خاصة صعدت به مياه دجلة إلى قصر اسحاق حيث يوجد سجن خاص في سرداب مظلم(٦٦)..

وهكذا تمضي الايام، ويلملم الشتاء أيامه الأخيرة، وبالرغم من كل ما حصل فقد كان هذا العام طيباً إذ اعلن رسمياً ايقاف الجدل حول مسألة «خلق القرآن» كما تم اطلاق المعتقلين بسببها من السجون(٦٧)..

كما تم انهاء التمرّد في أذربيجان بقيادة محمد بن البعيث وسقطت قلعة «مرند» بأيدي قوّات القائد التركي «بغا» فسطع نجمه السياسي واصبح من رجال الدولة المتنفذين..

الفصل العاشر

وصل أحمد بن حنبل سامراء واستقبل استقبالا حافلاً في البلاط، اذ نهض المتوكل من سريره الملكي احتفاءً به وهو قلما يصنع ذلك، كما وصل ايضاً الأديب الجاحظ بعد أن اطلق سراحه من السجن في بغداد(٦٨)..

أجزل المتوكل في تقديم الجوائز للامام احمد بن حنبل ولكنه اعتذر عن استلامها فالبسه الخليفة حلّة فاخرة فاستحى ابن حنبل منه ولبسها وعندما وصل إلى محل اقامته في سامراء خلعها بعنف وهو يبكي، وطوى فترة اقامته التي امتدت شهرين صائماً، يرفض تناول الطعام الذي يصله من مطبخ قصر الخلافة ولكن ولديه عبدالله وصالح كانا يستلمان الجوائز والهدايا التي تصله دون علمه..

وقبل أن يغادر سامراء عائداً إلى بغداد استشاره المتوكل في انتخاب شخص يليق بسلطة القضاء في الدولة فأشار ابن حنبل عليه باستخدام يحيى بن اكثم..

أما الجاحظ الذي وصل سامراء بناءً على رغبة الخليفة في أن يتبنى تعليم أولاده فقد انتهت آماله لحظة وقعت عينا الخليفة عليه.. فقد بدا منظره بشعاً فاستلم جائزة البلاط وصُرف إلى خارج القصر بعد دقائق قليلة(٦٩).

وفي بغداد تمّت تصفية القائد التركي ايتاخ في السجن بأوامر شخصية من المتوكل.. على أن يتم تنفيذ الأمر في أيام معدودة أقصاها عشرة أيام.. فبدأت رحلة الجوع الرهيب.. لأنسان كان لا يتورع عن التهام خروف كامل أمام ضحاياه.

ها هو الآن يسقط في براثن الوحش العباسي..

في الليالي كان ايتاخ يهذي بكلمات تركية.. ربما كان يقول ليتني بقيت طباخاً في القصر.. ليتني لم اتطلع إلى المجد.. الذهب.. الثراء.. النفوذ.. الحكم..

ليتني لم اقترح ابن الواثق للخلافة.. ليتني شاركت وصيف في رأيه..

ليتني قتلته في تلك الليلة اللعينة.. لقد كان في قبضتي ليتني لم اذهب إلى الحج.. لم اغادر سامراء..

وبعد أيام الجوع المدمّر.. فوجيء بمائدة حافلة بألوان الطعام.. المالح والحلو.. آه ما اشهى الطعام بعد الجوع.. وراح ايتاخ يلتهم اللحم وارغفة الخبز والحلوى..

وكان السجانون يتلصصون عليه.. آه انه يحفر قبره بأسنانه!!

شعر بالظمأ(٧٠) طلب ماءً ولكن لا أحد يردّ.. دوّت صرخاته الرهيبة في زنزانته الصخرية القاسية للحظات اشتعلت ذاكرته.. بمشاهد العباس بن المأمون تذكر صرخاته في «منبج» توسلاته من أجل قطرة ماء ولكن دون جدوى..

لقد وقع في الفخ.. نظر إلى المائدة فبدت له قبراً محفوراً.. يئن من البرد ويضج من الدود..

آه لا أريد الموت واجتاحته هستريا الجنون وراح يسدد قبضاته المجنونة للصخر وكانت صرخاته، ضرباته.. تتحطم تذوب في هذا السجن الذي يشبه القبر..

وبعدها ساد صمت رهيب.. لقد سقط الرجل الذي كان جلّاداً ذات يوم.. وهكذا مصير الجلادين..

كان المتوكل سعيداً بعد اجتماعه بوزيره الفتح بن خاقان الذي نقل إليه تقارير وأخبار عن الرأي العام.. ان بغداد تشعر بالرضا بسبب سياسته الجديدة ومناهضته للمعتزلة وتكريمه المحدّثين والرواة خاصّة بعد تكريم البلاط لاحمد بن حنبل وردّ اعتباره وعودته إلى الحياة العامة بعد عزلة دامت اكثر من عشر سنوات، وان الخليفة قد نال لقب «محيي السنة».

ان الأمور تمضي على ما يرام ان فكرة «التفويض» التي روّج لها المعتزلة تنحسر وتتراجع أما تيار «الجبر» الذي بدأ التأسيس له على قدم وساق، وقد وجد الخليفة في ما خلفه الحكم الأموي من جهد فكري في هذا الطريق ما يساعده على نشر فكرة الجبر الخطيرة ونشرها مما في صفوف الأمّة..

ان الطاغية لا يحتاج شيئاً أبداً إذا آمن الناس بأنهم مجبرين على أفعالهم، وأن كل ما يحدث هو قدر حتم ومصير لا يمكن الإفلات منه.. وعندها يستطيع أن يفعل الحاكم ما يشاء ولن يُسأل عمّا يفعل!

سوف تصبح إرادته وأوامره أرادة القضاء والقدر فالخروج على أوامره وسياسته تمرّد على قضاء الله وقدره!

ولكن ما عكّر مزاجه قليلاً اخبار عن تردد بعض الشخصيات على منزل علي بن محمد المعروف بابن الرضا..

تساءل المتوكل وقد لمح رقعة ملفوفة:

ـ ماهذا يا فتح؟

ـ هذه نسخة من رسالة جوابية بعث بها ابن الرضا إلى بعض اصدقائه في الأهواز.

ـ رسالة جوابية؟!

ـ يبدو أن رسالة من الاهواز قد وصلته في سؤال حول القدر.

وراح المتوكل يتأمل ما ورد في الرسالة ولم يتحمل قراءتها.

ـ ماذا فيها؟!

ـ انه يهاجم الجبر والتفويض معاً[٧١]..

قال المتوكل:

ـ لا استطيع قراءتها لكثرة ما ورد فيها من اسم علي بن أبي طالب لا استطيع تحمّله.. وأردف بحقد:

ـ لا أكره في الدنيا مثل ما اكره علي.. اودّ لو انبشه من قبره فأحرقه!

والتفت إلى رئيس وزرائه:

ـ والرسالة قد سمحت بإرسالها في البريد؟!

ـ أجل.. الرسالة تنفعنا في شيء على الأقلّ انها تقوّض أركان «التفويض» الذي نحاربه الآن.. ولو عمدنا إلى منعها فانها سترسل بطرق أخرى.. انّ له اصدقاء يفتدونه بارواحهم.

ـ افعل ما تراه مناسباً.. ولكن شدّد المراقبة على منزله.. لقد سمعت بان «أبا هاشم

الجعفري» يتردّد عليه.

ـ انه رجل مسنّ كما تعلم ومنزله في بغداد.. يكفينا أنه لا يستطيع الاقامة في سامراء وسوف يقعد به العجز عن المجيء إلى هنا..

ـ ان له جرأة وشجاعة وأنا أخشى أمثال هؤلاء.

ـ لا تخشَ شيئاً يا سيدي كل شيء يمضي على ما يرام.

ربت الخليفة على كتف وزيره العزيز وقال:

ـ لا يفوتك الحضور في حفلتنا اليوم انني اتنبأ ببهجتها من الآن.

ـ حسناً سأحضر في الوقت المناسب ولكن يتوجب علي تصريف بعض الشؤون!

كان الأصيل جميلاً ودجلة هادئاً تنساب فيه القوارب والشمس تقرض مأذنة المسجد الجامع.. تلك المأذنة الملوّية العجيبة التي ولدت في ذهن المهندس المسلم.. ومن فوق التلال الصخرية المشرفة على المدينة يمكن للمرء أن يشاهد أجمل المناظر لهذه المدينة المنعشة النسائم، وأجمل ما فيها ذلك المسجد المهيب الذي تبلغ مساحته ٣٨/٠٠٠ متراً مربعاً انه اكبر جامع في العالم أما منارته فأنها تستحيل في المساء إلى فنار مرفأ بحري حيث تتألق الانوار في جهات الأفق لانارة سبل القوافل القادمة ليلاً(٧٢).

ولم يكن المتوكل ليكترث في بناء المسجد إلى عدد المؤمنين الذين يؤمونه للصلاة بقدر ما يشبع جنونه في حمّى البناء.. بناء القصور والمنتجعات والى اظهار عظمته كحاكم كبير.. ولهذا أمر ببناء هذه المنارة الفريدة التي ترتفع إلى اكثر من ١٩ متراً.. في بعض الليالي كان يعجبه صعود المنارة الملوّية فكان يركب حماره المريسي(٧٣).

المتوكل منفتح النفس في قصره المنيف.. في حديقة القصر الخلفية.. حيث توجد «بركة السباع» وهي مسبح واسع مزود بنافورات تستمد مياهها من دجلة عبر قناة جوفية.. والى جانب البركة مغاور منحوتة في الصخور الكلسية حفرت لتكون عرائن للأسود الحبيسة.. وبركة السباع هذه تتصل بدهاليز وانفاق تحت الأرض تؤدي إلى سجن رهيب (٧٤)يشكل جزءً من سرداب القصر..

قليلون جداً يعرفون وجود هذا السجن لأنه مخصص للشخصيات المغضوب عليها أو التي تشكل خطراً على الخليفة.. ولكن الذي يجلس على الدكّة حيث مجلس الخليفة لا يشاهد في هذا المكان سوى حديقة غنّاء وحوض السباحة الجميل ولن يسمع سوى تغريد الطيور..

وكان المتوكل في ذروة نشوته في ذلك الأصيل فقد ابتكر أحد مهرّجيه لعبة جميلة.. إذا نصب في زاوية من الحديقة منجنيقاً حربياً قديماً من مخلفات عهد المعتصم.

المتوكل ينتظر مهرّجه الاثير عبادة المخنث، وجاء كعادته يضع تحت ثيابه مخدّة.. وجاء يتقلّب في مشيته.. وصوته الخليع يقول:

ـ قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين؟

المتوكل يقهقه بصفاقة، وينتظر انقضاض مهرّجيه الآخرين عليه.. هبّت نسائم باردة.. فالشتاء لم يرحل بعد وإن بدا في آخر أيامه.

انقضّ الرجال على عبادة المخنث الذي لم يستطع الافلات وسيق إلى المنجنيق فوضع فيه، ثم قذف في الهواء ليسقط في المياه الباردة..

كان المتوكل في غاية النشوة.. يتسلّى باستغاثة عبادة الذي أشرف على الموت.. عندها أشار إلى مهرّج آخر يرتدي زي صيادي السمك فألقى شباكه على الضحية الأحمق وانتشله من الغرق والموت برداً..

وجيء به إلى المتوكل الذي سأله متلذذاً.

ـ كيف حالك؟!

قال عبادة وأسنانه تصطك من البرد:

ـ جئت من العالم الآخر.

هتف المتوكل ضاحكاً:

ـ إذن كيف حال أخي الواثق؟

قال المخنّث وهو يدرك مدى حقده على أخيه:

ـ انني لم أمر بجهنم!

وكما تُرمى كسرة خبز للكلب.. رمى المتوكل إليه بصرّة ملأى بالدراهم(٧٥).

وراح المتوكل يدير عينيه في حاشيته فوقعتا على ابن العبرة الشاعر الأحمق فأشار إلى رجاله..

أطلق الأحمق ساقيه للريح ولكن دون جدوى فقد امسكوا به ووضع في المنجنيق وعندما قذف في الهواء صاح:

ـ الطريق.. الطريق.. جاءكم المنجنيق..

وانثالت مياه البركة.. ورمى الصياد شباكه فانتشله واصطيد كما تصطاد الاسماك(٧٦).

وغابت الشمس وازدادت النسائم برودة ونهض الخليفة معلناً انتهاء الحفل.. وفي رأسه تشتعل أحلام ليلة حمراء آثمة.

الفصل الحادي عشر

أجرى الطبيب «يزداد» النصراني فحوصاته على الخليفة..

ـ كل شيء على ما يرام.. ولكني انصح بالاقتصاد.

قال الطبيب بخضوع تام.. فهذه أول مرّة يدخل فيها البلاط، وقد عرّفه استاذه بختيشوع..

ومن صندوق خشبي مصنوع من الأبنوس استخرج أدوات عمله كان المتوكل ينظر إليه بانزعاج مكبوت وود أن يسأله عن دواء منشط..

كان «يزداد» يقوم بعمله بدقة تامّة فقد سمع عن نزق الخليفة الكثير، فهو لا يريد أن يسبّب لنفسه المتاعب.. ولكن إجراء هذه العملية البسيطة كفيلة بأن تجعله في ذروة الشهرة وستدرّ عليه أموالاً طائلة..

انهى الطبيب عمله وتمنّى للخليفة العافية والصحة والسلام.. في الاثناء.. دخلت فتاة

حسناء فاتنة كانت تتقدم بدلال وقد ارتدتْ ثياباً حريرية ملوّنة وشفافة لكأنها حورية قدمت من الجنّة.. ويبدو أنها قد نالت حظاً من التعليم وثقافة العصر..

كانت الفتاة تحمل كأساً من الذهب الخالص ودنّاً من البلور الرائق مليء بسائل وردي.. وأدرك المتوكل أن السائل من أعتق خمور «قطربل»[٧٧] وأغلاها ثمناً.. وكان الطبق الفضيّ الذي استقر عليه الكأس عليه يحمل رقعة فيها ثلاثة أبيات شعرية:

إذا خـــرج الإمـــامُ مـــن الـــدواءِ ... وأعقـــب بالســـلامة والشـــفاءِ

فلـــيس لـــه دواء غيـــر شـــرب ... بهـــذا الجـــام مـــن هـــذا الطـــلاء

وفـــضّ الخـــاتم المهـــدى إليـــه ... فهـــذا صـــالحٌ بعـــد الـــدواء

وابتسم المتوكل وهو يرى توقيع رئيس وزرائه: الفتح بن خاقان[٧٨].

ونهض المتوكل وقد فارت الدماء في عروقه وأخذ بيد الفتاة إلى جناح الحريم وتوارى معها وراء الستائر المخملية..

وجاء ابن الخليفة[٧٩] لمقابلة أبيه قبل أن يذهب مع رفاقه الأتراك في رحلة للصيد..

واعتذر وصيف للأمير بأن الخليفة قد افتصد توّاً وهو يرغب في الاستراحة..

وانطلق الأمير المدلل ابن «قبيحة» تلك المرأة الساحرة التي سيطرت تماماً على عقل الخليفة، وراحت تفكّر بتوسيع نفوذها باستخدام ابنها في تحقيق المزيد من الثراء..

البراري خارج سامراء مدّ البصر، وانطلقت الخيول وكان أفراد الرحلة: الأمير المدلل ابن الخليفة، ويونس ابن القائد التركي بغا والفضل بن العباس ابن الخليفة المأمون.. أما الآخرون فموكب الأمير وحرّاسه..

كان الفضل يحاول وخلال الرحلة الممتعة استدراج الأمير الشاب الذي لم ينبت الشعر في وجهه بعد يستدرجه إلى دير «ماري» فهناك توجد لذائذ آثمة لا تتوفر إلاّ في الأديرة..

وعندما شعر الأمير بالظمأ قال الفضل:

ـ يا أميرنا أعرف في ذلك الدير راهباً خفيف الروح.. وهناك آلات جميلة.. ماذا لو نميل إليه؟

قال الأمير المدلل:

ـ ولم لا هيا بنا..

وانطلقت الخيول الثلاثة تنهب المسافة إلى الدير الذي يتوسط غابة من الكروم..

رحب الراهب بضيوفه خاصّة الأمير الجميل وابن القائد التركي.. همس في أذن الفضل الذي عرّف الشابين بأنهما من ابناء الجنود في سامراء.

قال الراهب:

ـ ماذا تقول؟! بل مفلّتان من أزواج الحور.

ضحك المعتز فيما انصرف الراهب ليعود وهو يحمل بعض الشطائر..

همس المعتز في أذن الفضل:

ـ قل له بينك وبينه من تحب أن يكون معك من هذين؟

وعندما خلابه قال له:

ـ ما رأيك في هذين الغلامين؟

ـ ما رأيت أجمل منهما.

ـ فمن تحب منهما أن يكون معك.

قال الراهب بخبث:

ـ كلاهما...

وعندما سمع الأمير ضحك حتى مال على حائط الدير.

قال الفضل للراهب:

ـ ولكن يجب أن تختار احدهما!

راح الراهب يدقق في النظر فيهما ثم قال:

ـ الاختيار في هذا دمار.

فجأة ارتفع صهيل الخيول خارج الدير.. ودخل الجنود الدير فارتاع الراهب.

قال الأمير:

ـ بحياتي استمر في حديثك..

وبعد ساعة من تبادل الأحاديث أمر الأمير بأن يُهدى للراهب خمسين ألف درهم.

هتف الراهب:

ـ لن أقبلها إلاّ بشرط.

ـ ماهو شرطك؟

أن يلبّي الأمير دعوتي مع من أحب.

وابتهج الأمير المدلل قائلاً:

ـ سألبّي دعوتك متى تشاء.

غادر الطبيب القصر المنيف عائداً إلى منزله مبتهجاً بما انجزه اليوم لقد أصبح طبيب البلاط وسوف يجني من وراء ذلك ثراءً عريضاً..

وعندما انعطف في شارع درب الحصا، واجتاز قصر القائد التركي «بغا».. وقعت عيناه على منظر بدا له عجيباً.

رأى فتى اسمر اللون يرتدي ثياباً سوداء كالتي يرتديها رجال الدولة.. وقد استوى على صهوة حصان أدهم..

فغر فاه قال في نفسه:

ـ ثياب سوداء، ودابة سوداء ورجل اسود؟!! سواد في سواد في سواد؟!

وصل الفارس العجيب، وتوقف ونظر الفتى الاسمر إليه نظرات حادّة وقال:

ـ قلبك أسود مما ترى عيناك من سواد في سواد في سواد!!

فوجيء «يزداد».. من يكون هذا الفتى الذي يصغي إلى ما يموج في أعماق

الانسان؟!.. هل هناك من بني البشر من يعلم الغيب.. لقد سمع في طفولته الكثير من القصص عن المسيح.. كيف كان يخبر اليهود عمّا يدخرون في بيوتهم.. وهاهو الآن يقف وجهاً لوجه أمام فتى يقرأ صفحات من الغيب الذي لا يطلع عليه البشر!!

واجتازه الفارس في طريقه.. ونسى «يزداد» أن يبارك نفسه برسم علامة الصليب وانبعثت في اعماقه رغبة في أن يعرف المزيد عن هذا الفتى ودّ لو يلحقه فيسأله ولكن، الفارس كان قد توارى بعيداً.. سوف يسأل عنه سيما وأن رآه عندما خرج من منزله..

ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى حصل يزداد على معلومات مثيرة: اسمه علي بن محمد.. اصله من الحجاز.. استقدمه المتوكل خوفاً من ثورة قد يقوم بها ويطيح بحكم العباسيين(٨٠).

الفصل الثاني عشر

فوجيء درب الحصا حيث يقع منزل ابن الرضا علي بن محمد بمجموعة من الرجال الاتراك المسلحين وبعض الزنوج الغلاظ يأخذون اماكنهم.. وقد أبلغ أهل المنزل بالحصار المفروض.. لاخروج ولادخول!!

كثيرون تساءلوا عن سرّ هذا الاجراء.. ترى ما الذي حصل لكي يحاصر منزل هذا الفتى الحجازي؟!

في المسجد الجامع دارت أحاديث خاصّة مع الذين قدموا من بغداد.. هناك أخبار حول القاء القبض على ثائر علوي يدعى يحيى بن عمر وهو من ذرّية زيد الشهيد..

قال رجل يبدو عليه الوقار:

ـ أنا رأيته بنفسي مقيداً بالأغلال، ورأيت عمر بن فرج ينهال عليه بالمقرعة.. ضربه ثمانية عشرة ضربة وسيق إلى سجن المطبق(٨١).

قال آخر بدهشة:

ـ أمره عجيب؟

ـ من تعني؟

ـ عمر بن فرج.. بالأمس كان يُضرب بعد أن صودرت أمواله وها هو الآن يضرب ابناء النبيo.

قال الشيخ الذي نقل الخبر:

ـ أنت لا تعرف يحيى انه رجل صالح في وجهه نور الأولياء..

عجيب أمر الناس هذه الأيام.. كل من يريد المال والثراء تزلف للسلطان بسبِّ أولاد الأنبياء..

وأراد الرجل أن يقول شيئاً:

ـ سمعت أن...

وقطع كلامه بعد أن رأى أحد أزلام الفتح بن خاقان فغير كلامه قائلاً:

ـ سمعت أن امير المؤمنين سيحتفل بالبيعة لأولاده بولاية العهد؟

ـ نعم سمعت.. وسمعت أيضاً أنه سيأتي إلى المسجد لإمامة الناس وارتفع أذان الظهر يدعو المؤمنين للصلاة فتشكّلت صفوف الصلاة..

كان موكب الخليفة يخترق الشارع الرئيسي المؤدي إلى المسجد.

وكان في الموكب رجل عباسي بدين نسي اسمه وبقي لقبه فهو معروف بـ «هريسة».. تنضح النذالة من عينيه قال للخليفة وقد وصل الموكب منزل علي بن محمد:

ـ انك تفعل أشياء عجيبة.. ما يعمل أحد بك اكثر مما تعمله بنفسك في علي بن محمد.

ـ ماذا تعني؟!

ـ لا يبقى من الخدم في القصر والاّ وشارك في خدمته.. حتى الستائر ترتفع أمامه.. وتُفتح له الأبواب.. انه يعامل كأمير كبير!

قال المتوكل:

ـ وهل تظنني أمرتهم بذلك.. انهم يفعلون ذلك طواعية.

ـ الناس عندما يرون هذا الاستقبال يظنون ان الخليفة لم يفعل ذلك إلاّ لأنه يرى استحقاقه للخلافة.

ـ وماذا تريدني أفعل؟

ـ دعه إذا جاء القصر يشيل الستر لنفسه ويمشي كما يمشي غيره.. وبهذا سيشعر بالهوان!

قال المتوكل وهو يصوّب نظرة حاقدة على المنزل:

ـ سأفعل ذلك.. لن يشيل الستر له أحد.

وأردف حانقاً:

ـ سأستدعيه بعد الظهر ونرى كيف يتصرّف؟

انتبه الجميع إلى صوت سنابك الخيل تمرق من شارع الخليج.. قال الفتح بن خاقان دون مقدمة:

ـ انها خيول الأمير.. لقد عاد من رحلة الصيد..

وشعر الخليفة بالزهو.. انه يعلّق آمالاً على ابنه الذي يشبهه تماماً..

وخرج طفل في الخامسة من عمره.. لفت نظر الحرّاس.. عيناه النجلاوان تضيئان بالصفاء.. القى نظرة حواليه ثم مشى باتجاه أطفال في مثل سنّه كانوا يلعبون، توقف قريباً منهم وراح يراقبهم بصمت وحزن.. لا أحد يدري سرّ حزن هذا الطفل البريء.. عندما يغوص المرء في أعماق الحياة يشاهد حقائق كثيرة مستورة وراء مظاهر برّاقة خادعة..

هناك من يرى الزهور في الربيع فينتشي ببهجة الحياة.. ولكن ألا تحمل الزهور سرّ الذبول والاندثار؟!

ألا تنطوي حركة الشمس في الشروق على حقيقة الغروب؟.. كل شيء في هذا الوجود يتحرك باتجاه غائية ذات أهداف.. وعندما يعي الانسان حركة العالم تتكشف له أسرار كثيرة وحقائق مستورة.

من أجل هذا كان يحيى بن زكريا الذي أوتي الحكمة صبيا يحزن وهو يراقب أمه عندما تشعل الموقد.. انها تشعل أولاً صغار العيدان لأن الحطب لا يشتعل إلاّ بنارها!

قال حارس رأى دموع الحزن تموج في عيني الصبي الاسمر:

ـ لماذا لا تشارك أترابك في اللعب.

واستدرك الرجل بعد أن رأى انه لا يحمل لعبة:

ـ أتريد أن اشتري لك لعبة تلعب بها؟

قال الصبي وهو ينظر إلى الرجل:

ـ لا.

ـ لماذا؟!

ـ ما للعب خلقنا!

فوجىء الرجل بجواب لم يكن يتوقع سماعه أبداً فقال على الفور:

ـ فلماذا خلقنا إذن؟!

ـ للعلم والعبادة.

قال الرجل وقد ازدادت دهشته:

ـ من أين عرفت ذلك؟!

أجاب الصبي بخشوع:

ـ من قوله تعالى: (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا)؟

بهت الرجل وظلّ حائراً ينظر إلى هذا الصبي الغارق في الحزن قال بأسى:

ـ أنت ما تزال صغيراً بريئاً لا ذنب لك ما الذي حصل لكي تفكر هكذا؟!

قال الحسن الذي تشرّب الحكمة صبيا:

ـ إليك عني، إني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار فلا تتقد إلاّ بالصغار.. إنني أخشى أن اكون من صغار حطب جهنّم(٨٢).

وأطرق الحارس الغليظ القلب.. كان يفكر في مصيره.. مشاهد من النار المجنونة تتراقص أمام عينيه.. ولم ينتبه إلى نفسه إلاّ بعد أن سمع كافور الخادم ينادي على الصبي الذي عاد أدراجه وتوارى خلف باب المنزل..

وفي الأصيل كان الازدحام على باب القصر شديداً أناس من مختلف الاجناس البشرية تتحشد عند البوابة الكبرى تترقب أذناً في الدخول.. ومن خلال ما يرتديه القوم يكتشف المرء مستوياتهم المعاشية فهناك تجار كبار، وفقراء مدقعون تفضح الثياب فقرهم.. وهناك شبّان جاءوا من اصقاع بعيدة لرفع شكاوى ضد حكامهم ولعلّ ما يلفت الانتباه ذلك الوفد الاصفهاني الذي يتصدّره شاب جسور عيناه تشعّان بالشجاعة والشهامة.. في الباب حدثت ضوضاء وجلبة للحرس وسمع القريبون لغطاً بسبب تنفيذ أمر الخليفة الذي صدر قبل دقائق..

وخرج موظف رسمي يعتذر للمحتشدين عن تأجيل مواعيد اللقاء..

تساءل الشاب الاصفهاني واسمه عبدالرحمن:

ـ ما الذي حصل يا ترى؟!

وأجاب رجل له معرفة بما يجري في هذه المدينة:

ـ الخليفة أمر باحضار علي بن محمد ابن الرضا.

ـ ومن يكون هذا الرجل؟!

ـ رجل علوي تقول الرافضة بإمامته!

ردّ رجل آخر من أهل المدينة:

ـ اتوقع أن يغادر القصر جثة هامدة!

قال شيخ اصفهاني لعبدالرحمن:

ـ هيّا بنا إلى الخان لا فائدة من الوقوف والانتظار!

قال عبدالرحمن باصرار:

ـ لا أبرح حتى أنظر إلى هذا الرجل.. أيّ رجل هو.

وفي الاثناء ظهر من مكان قريب شاب أسمر يمتطي جواداً أدهم وتطلع الناس إليه وقد انتظموا صفّين.. كان علي ينظر إلى نقطة واحدة.. توقع عبدالرحمن أنها قريبة من عرف الفرس.. الهدوء والطمأنينة يغمرانه.. لكأن ما يحدث في هذا العالم لا يعنيه.. لم يكترث لكل هذه العيون التي تتطلع إليه ولا يبدو عليه أنه يواجه خطر القتل في قصر طاغية أرعن يسوس الأمور وفق هواجسه ومخاوفه.. مثل نبع بارد يتدفق ماءً زلالاً تدفق الحب في قلب عبدالرحمن ـ وشعر بالدهشة عن مصدر هذا الحبّ العجيب الذي ولد من أول نظرة.. هتف في اعماقه المتوجسة:

ـ يا رب ادفع عنه شرور المتوكل! احمه يا ربّ.

وعندما حاذى الفارس العجيب رفع رأسه والقى نظرة على عبدالرحمن وقال بمحبّة:

ـ استجاب الله دعاءك وطوّل عمرك وكثّر مالك وولدك.

وغمرت عبدالرحمن حالة من القشعريرة افقدته توازنه، وشعر بان قدميه تخذلانه.. فاستند إلى أحد رفاقه الذي بادره:

ـ ماذا حصل لك يا عبدالرحمن؟!!

ـ أجاب مبهوراً:

ـ لا شيء.. لا شيء أبداً[٨٣]!

ترجّل علي بعد أن اجتاز البوابة، واتجه إلى المدرج حيث يقف حراس غلاظ عند باب القصر الداخلية..

كانت هناك عينان تتلصصان فلقد أمر الخليفة إلاّ يبادر أحد لخدمة ابن الرضا.. ليرفع الستائر بنفسه ويفتح الأبواب.

كانت الأبواب مشرعة لفسح الطريق أمام نسائم الأصيل المنعشة لتدخل أروقة القصر. عندما وصل الشاب الأسمر الستائر المخملية حدث شيء عجيب هبّت نسمة قوية رفعت

الستائر، وولج الرجل العلوي البهو..

كانت العينان المتلصصتان تراقبان بدهشة ما يجري.

جرى اللقاء وغادر علي البلاط باتجاه الستائر التي ما إن وصل اليها حتى ارتفعت واجتاز الامام يغمره نسيم الاصيل العليل.. كانت العينان المتلصصتان تسجلان تفاصيل دخول الرجل العلوي وخروجه..

ووصلت رقعة إلى الخليفة فيها:

ـ «ان علي بن محمد دخل الدار فلم يُخدم ولم يَشِلْ أحد بين يديه ستراً هب هواء رفع الستر له فدخل... وإن هواءً خالف ذلك الهواء شال الستر له حتى خرج».

قال المتوكل بحقد:

ـ «ليس نريد هواءً يشيل الستر.. شيلوا الستر بين يديه»(٨٤).

وابلغ الخدم والحرس في القصر بأمر الخليفة الذي الغى فيه أوامر سابقة.

الشاب العلوي يغادر القصر عائداً أدراجه إلى منزله، وقد الغيت اجراءات الحصار ولكن الخليفة لم ينس أن يوعز بتكثيف المراقبة على منزله والتجسس على لقاءاته حتى في الطريق..

الجواسيس يطاردون عن بعد خطوات الأمام، والامام يجتاز الشارع المؤدي إلى درب الحصا وقد بدت من بعيد المنارة الملويّة كفنار يهدي السفن التائهة إلى شاطىء الأمان..

اتجه الإمام نحو المسجد الجامع، وعندما أراد أن يعبر الشارع انبرى إليه رجل أبرص يلتمس البركة وقد جلس ينتظر في قارعة الطريق.. أشار الامام بيده قائلاً:

ـ تنحّ عافاك الله..

لكن الرجل لم يتوقف.. ولم ينتبه أيضاً للعيون التي تبرق بالنذالة وهي تراقب تصرّفات الأمام الذي هتف مرّة أخرى:

ـ تنحّ عافاك الله.. تنح عافاك الله.

توقف الرجل الأبرص ولم يجسر على الأقتراب وتقهقر إلى الوراء كئيباً وراح ينظر إلى الفتى المبارك نظرة من يفقد أمله الأخير وانتبه إلى صوت جاره يخاطبه:

ـ هل كلّمته؟

ـ لا لكنه أشار بيده قائلاً: تنّح عافاك الله قال جاره:

ـ قد دعا لك قبل أن تسأله.. انك ستعافى(٨٥).. انه رجل مبارك.. ومضى الرجل الابرص وقد غمره الأمل بالشفاء.

الفصل الثالث عشر

وصلت أخبار عن اشتعال ثورة مسيحية في مدينة حمص السورية وقد تم قمع الثورة بوحشية(٨٦).

واتخذ المتوكل اجراءات قاسية في معاملة الرعايا المسيحيين في انحاء الدولة الإسلامية.

ومن حمص وصل ايضاً نبأ عن وفاة الشاعر الشيعي عبدالسلام بن رغبان الذي عرف بـ «ديك الجن»(٨٧).

وفيما كان البلاط يستعد للاحتفال بعقد ولاية العهد للابناء الثلاثة وصلت أخبار من مدينة بغداد تفيد بتدهور صحة حاكم المدينة الذي أرسى دعائم الحكم فيها بالحديد والنار.. ان اسحاق بن ابراهيم يحتضر وهو يعيش ساعاته الأخيرة.. تظاهر ابنه محمد الذي يعمل موظفاً في البلاط بالحزن أما قلبه فيكاد يرقص فرحاً سوف تسقط مدينة السلام.. في يده مثل تفاحة ناضجة شهية.. آه بغداد مدينة الاساطير مدينة الجواري الحسان واللذائذ، وقطع سلسلة احلامه صوت جلبة في البلاط أن الأمير الزبير(٨٨) الذي سيغادر مع وفد من القادة الأتراك سامراء إلى بغداد لعيادة حاكمها..

انضم محمد بن اسحاق إلى أعضاء الوفد وقد كسى وجهه ملامح كاذبة من حزن مفتعل..

تركت زيارة الوفد لقصر الحاكم انطباعاً كاملاً بأن الرجل الذي حكم بغداد عشرين

سنة ستتراخى قبضته وسيصبح في عداد الاموات.. الليلة أو غداً في الصباح.

ولذا قفل راجعاً بعد أن زار القاضي المغضوب عليه يحيى بن اكثم، وقد كانت الزيارة من أجل الافادة من خدماته فهناك نوايا لطرد رئيس سلطة القضاء ابن ابي دؤاد بشكل رسمي بعد أن عزل عملياً من ممارسة نشاطه.

صادفت زيارة الوفد ظاهرة طبيعية أثارت فزع البغداديين فقد فوجيء السكان بلون مياه دجلة يستحيل إلى الاصفرار واستمر ذلك الوضع ثلاثة أيام ثم انقلب فجأة إلى ما يشبه لون ماء المدود(٨٩).

وغادر الوفد بغداد التي كانت مضطربة بسبب الشائعات حول حاكم المدينة وقائد الشرطة.. وما اثارته مياه دجلة العجيبة من هواجس.. وأخبار عن هدم دور العلويين(٩٠)، وما يتعرض له يحيى بن عمر من تعذيب داخل السجن..

في سامراء بدأت الاستعدادات لعقد ولاية العهد، وانصرف «الصولي» كاتب البلاط إلى صياغة عهد الولاية لكل من محمد ولقّب بـ «المنتصر» والزبير ولقب بـ «المعتز» وابراهيم وقد لقب بـ «المؤيد» وقد قسمت الدولة الإسلامية إلى ثلاثة مناطق للإدارة والحكم; وما لبث بريد بغداد أن وصل لينبيء عن وفاة حاكم بغداد العام، فتأجلت الاحتفالات يومين تم خلالها تنصيب خلفه محمد حاكماً عاماً لبغداد(٩١).

وفي ليلة الاحتفال ارتدت زوجة الخليفة اليونانية الاصل(٩٢) بدلة حريرية فائقة الجمال فبدت وكأنها «افروديت» ربة الحسن خرجت من البحر(٩٣).

حاولت المستحيل أن تجعل ابنها المدلل الولي الأول للعهد بجميع رغباته الشاذة.. ولكن الخمرة كانت قد اطاحت بآخر ذرّة من وعيه ولم يعد يفهم ما تهذي به «افروديت» الساحرة..

اتصلت برئيس الوزراء الفتح بن خاقان حاولت إقناعه بكل وسيلة ولكن كيف يمكن تجاوز تقاليد الخلافة العباسية العريقة؟ كيف يمكن تجاوز الابن الاكبر.. ان محمد يكبر الزبير بأكثر من خمسة أعوام وقد اثبت رجاحة في العقل(٩٤).. ومع ذلك فعليها الاّ تفقد الأمل.. ربّما يحدث شيء من يدري.. ربّما يصبح المعتز هو الأول(٩٥).

بدأت الاحتفالات بعد صلاة الغروب، وكان القصر قد استحال إلى صدفة تتدفق بضياء مئات القناديل.. بدأت مراسم عقد الولاية بجلوس الخليفة على سرير ذهبي مرصع بالجواهر الثمينة.. ثم حضر ولاة العهود المنتصر، المعتز والمؤيد وهم يرتدون بدلات سوداء اللون شعار الدولة الرسمي، وقد تألقّت فوق رؤوسهم تيجان الذهب، فاتخذوا أماكنهم وقوفاً قرب السرير الملكي..

كان البلاط يغص بالحاضرين من قادة الجيش والوزراء وكتّاب الديوان..

نهض ابراهيم الصولي ليقف قريباً من السرير المهيب ليقرأ عهد الولاية.. توزيع المملكة على ولاة العهود فكان نصيب المنتصر إفريقيا، والمغرب، وللمعتز اقليم خراسان الثري وأذربيجان وأرمينية، وللمؤيد الشام والأردن وفلسطين..

وارتجل الكاتب البليغ شعراً في المناسبة:

اضحت عرى الإسلام وهي منوطة بالنصر والاعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله اقماره يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتم الآباء واكتنفت بهم فسعوا بأكرم انفس وجدود

بعدها نهض المتوكل لتسليم ابنائه ألوية العهد والعمل في مناطق الحكم، فسلّم المنتصر لواءين أسود وابيض، فالأسود هو لواء العهد والابيض هو لواء العمل في المناطق الخاضعة لحكمه[٩٦]!

وتلا ذلك قيام المعتز بإعلان محمد بن اسحاق حاكماً على بغداد خلفاً لوالده الذي توفي قبل يومين، كما قلّده سيفاً ثميناً[٩٧].

بعدها بدأ توزيع الجوائز على رجال الدولة، وراح الخليفة بعد أن تبددت مسحة الحفل الرسمية يشرب أنخاب الاحتفال البهيج ويملأ كؤوس الخمرة لضيوفه..

كان خاقان واقفاً في زاوية من زوايا البلاط ولم يكن يشارك في شرب الانخاب.. كان يتورع فيما يبدو من شرب الخمرة واكتفى بإظهار الابتهاج بما يجري..

وعندما رمقه المتوكل.. ملأ له كأساً وأمر رئيس وزرائه الفتح بن خاقان أن يقدّمها إلى ولده..

قال المتوكل: قل له لا يردّ هذا الشرف.. خليفة يملأ له الكأس ويخدمه وزير!

ابتسم خاقان متملّقاً ورفع الكأس قائلاً:

ـ لم أكن اشربها من قبل.. أنني أشرب من أجل أمير المؤمنين.

وابتسم المتوكل انه لا يودّ رؤية انسان شريف..

يجب أن يتملّق له الجميع.. يجب أن يشربوا من دنان خمرته ويأكلوا من فتات موائده.. ويصفقوا له دائماً.

ما يلفت النظر في الاحتفال حضور يحيى بن اكثم من بغداد، وقد انتشرت شائعات عن احتمال تولّية السلطة القضائية.. والذي أكد هذه الأخبار غياب أحمد بن أبي دؤاد عن حضور حفلة تتويج ابناء الخليفة كولاة للعهد، ولم يغير من الوضع حضور «محمد بن أحمد» رئيس محكمة الاستئناف من قناعة الجميع باحتمال تولّي ابن اكثم سلطة القضاء..

لم يحضر أيضاً «علي بن محمد» والاسباب معروفة أنه لا يحرص على حضور حفلات القصر بشكل عام ولن يحضرها بسبب ما ترتكب فيها من انتهاكات للاخلاق والشريعة..

وفيما كانت أصوات الغناء وضحكات المخنثين تصدح في فضاء القصر المضيء.. كان هناك شاعر يقطن في بيت تملكه الدولة ويدفع بدل ذلك ايجار، وقد أغلق على نفسه الدار لأنه لا يملك بدل الايجار فراح يشدو بألم:

يا رب لا فرج مما أكابده بسر من رأى على عسري واقتاري

لا راحــة قبـل وقـت المـوت تـدركني فيســـتريح فـــؤاد غيـــر جبّـــار[٩٨]

الفقراء يئنون من الجوع والاحرار يعيشون مشرّدين مغضوب عليهم لأنهم لا يركعون للطغاة.

الفصل الرابع عشر

لم يكن المتوكل ليهتم بشيء اهتمامه بالاخبار; اخبار ما يجري في القصور وهي أخبار علية القوم والأخبار العامّة في المدن والحواضر.. ولذا كان جهاز الاستخبارات من أنشط اجهزة الدولة فأيّ تحرك صغير أو كبير يجد صداه في قصر الخليفة; الذي كان يتابع شخصياً قراءة تقارير رجال استخباراته خاصّة التقارير القادمة من بغداد..

ثم يأتي اهتمامه الثاني بحفلات المجون التي يخطط لها الطاغية شخصياً وينتخب حتى المطربات..

في ذلك اليوم البارد من شباط سنة ٢٣٦هـ ٨٥١م ورد تقرير من استخبارات مصر يفيد:

ان الوالي يزيد بن عبدالله ضرب جندياً لمخالفته.. فاقسم الجندي عليه بالحسن والحسين أن يعفو عنه فزاده الوالي ثلاثين جلدة..

أمر المتوكل الذي كان يستمع إلى التقرير أن تضاف إلى عقوبة الجندي مئة سوط أخرى وأن يرسل إلى سامراء مخفورا[٩٩].

تململ الخليفة في جلسته ونظر إلى رئيس وزرائه ومسؤول الاستخبارات العامّة[١٠٠]، ادرك الفتح بن خاقان أن الخليفة يتوق إلى الحديث عن حفلته المسائية.. فأطبق السجل وقال للخليفة المسترخي فوق السرير الملكي:

ـ والآن يا سيدي حان وقت المرح.

قال المتوكل:

ـ لقد اشتقت إلى الغناء.. تركنا زنام الزامر[١٠١] بلا غناء.

واستطرد:

ـ ارسل إلى بغداد من يخبر «عنان» أن ترسل لنا مغنية حسناء الوجه والنغم..

قال الفتح:

ـ حسناً يا سيدي.. وهل ننتظر ريثما تصل؟

ـ كلاّ سوف يسلّينا عبادة في حركاته.. وأبوالعنبس في حكاياته.

القى المساء بكلاكله فوق سامراء، وقد اقفرت المدينة من العابرين ولم يعد أحد يسمح سوى ولولة رياح شباط وهي تجوس خلال الشوارع والأزقة.. وقد يسمع في بعض الاحيان سنابك خيول الدوريات تدك شوارع المدينة المبلّطة بالحصا والصخور الكلسية.

قال الخليفة مخاطباً أبا العنبس بعد أن عبّ أول كأس من خمرة معتقة:

ـ ايش حكاية حمارك ووفاته حدثني!

تحفز أبو العنبس وقد برقت عيناه:

ـ نعم يا أمير المؤمنين.. كان حماري اعقل من القاضي..

واستطرد في حكايته مع قهقة المتوكل:

ـ ولم تكن زلّة فاعتل فجأة ومات.. فرأيته في المنام فقلت له: يا حماري العزيز كنت اسقيك الماء البارد واطعمك الشعير الجيد فلم مت على غفلة وما الذي جرى عليك؟

ـ فماذا قال الحمار؟

ـ قال لي: اتذكر يوم ذهبت إلى فلان الصيدلاني تكلّمه في كذا وكذا؟ فقد مرّت بي «حمارة» حسناء (المتوكل يضحك بخلاعة) فعشقتها من أول نظرة واشتد بي الهيام فمت كمداً متأسفاً..

قلت له: يا حماري العاشق فهل قلت في ذلك شعراً؟

قال لي: نعم وانشدني:

هـــام قلبـــي بأتـــان[١٠٢] عنـــد بـــاب الصـــيدلاني

تيمتنـــي يـــوم رحنـــا بثناياهـــا الحســـان

وبخـــد ذي دلال مثـــل خـــد الشـــيفران

فبهـــا مـــت ولـــو عشـــت إذا طـــال هـــواني

قلت له: يا حماري الشاعر فما الشيفران؟ قال: هذا من غريب الحمير.

وانتشى المتوكل طرباً وأمر شلّته أن يغنوا جميعاً بشعر الحمار.. ورمى إلى ابي العنبس صراراً مليئة بمسكوكات ذهبية[١٠٣].

وفي الأثناء وقد مرّ شطر من الليل وصلت المغنية الحسناء التي بدا عليها تعب السفر خاطبها المتوكل بقسوة:

ـ أين كنتم كل هذا الوقت؟!

قالت الحسناء:

ـ ان مولاتي قد خرجت إلى الحج واخرجتنا معها.

ـ الحج؟! وهل الحج في شعبان؟

قالت الجارية:

ـ كان حجنا إلى قبر الحسين[١٠٤].

طوح المتوكل بكأسه البلوري الذي تهشم فوق سجادة أذربيجانية نفيسه وصرخ بعد أن قفز من فوق سريره:

ـ الحسين!.. الحسين! لقد اندثر الحسين منذ قرن ونصف.. ومن يكون الحسين؟!

خيم صمت مخيف.. واستحال المهرّجون إلى فئران مذعورة.. المتوكل يتحول إلى وحش يصعب التكهن بما سيفعله.. فكر عبادة المخنث أن يقوم بحركة تعيد إلى السهرة مرحها السابق شدّ

مخدّته تحت ثوبه النسائي.. ونزع عمامته الملفوفة بطريقة مضحكة.. وراح يتمرقص وسط الصمت المطبق هاتفاً:

ـ قد أقبل الأصلع البطين.. خليفة المسلمين.

وانطلق المهرّجون جميعاً يصدحون بالغناء بهذا الشعر المنحط.. انطلقت اسارير المتوكل الذي صبّ لنفسه كأساً أخرى وراح يعبّها نشواناً..

المخنث يرقص ويغني ويمسح على بطنه فجأة توقف الغناء..

لقد وصل الأمير المنتصر الذي أومأ إلى المخنث أن يلتزم الأدب..

دهش المتوكل لما حصل والتفت إلى المخنث:

ـ ما حالك؟ لماذا كففت عن الغناء؟

اقترب من الخليفة السكران وهمس في أذنه عن تهديدات المنتصر..

التفت المتوكل إلى ابنه الذي اختط شاربه واطلق ضحكة ماجنة ولكنه طوح بكأس الخمرة وصرخ:

ـ ما الذي يجري هنا؟

قال المنتصر بأدب:

ـ يا أمير المؤمنين ان الذي يحكيه هذا الكلب، ويضحك منه هؤلاء هو ابن عمك علي.. شيخ أهل بيتك وبه فخرك، إذا أردت أن تأكل لحم ابن عمك فكله وحدك ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه..

أطلق المتوكل ضحكة هستيرية وصفق بيديه منشداً ببذاءة:

غـــــار الفتـــــى لابـــــن عمّـــــه رأس الفتـــــى فـــــي حـــــر أمـــــه

وخاطب المهرّجين:

ـ هيّا غنّوا جميعاً بهذا الشعر(١٠٥).

واستحال البلاط إلى بؤرة تمارس فيها كل ألوان الآثام والخطايا.

في اليوم التالي صدرت قرارات خطيرة فقد اقيل الوزير محمد بن الفضل بسبب ميوله الشيعية وتم تعيين عبيدالله بن يحيى بن خاقان بدلاً منه لما عرف عن حقده على العلويين(١٠٦).

كما اصدر أمراً باعتقال المرأة البغدادية ومصادرة جميع ممتلكاتها(١٠٧) وانطوت أيام شعبان ثم تلاه رمضان..

في عيد الفطر اصدر المتوكل ومن أجل تحسين سمعته لدى الرأي العام أمراً بانزال جثمان احمد بن نصر الخزاعي من الصليب وتسليمه إلى ذويه، وقد حضر ابن اخيه موسى إلى سامراء لاستلام الجثمان الذي نقل في مركب شراعي إلى بغداد فوراً، وقد أحدث وصول الجثمان المقطوع

الرأس إلى بغداد ضجة وتجمهر الآلاف من عامّة الشعب للتبرك به، ووصلت تقارير سريعة إلى سامراء حول ما يجري في بغداد فصدرت أوامر مشدّدة بارهاب الناس ومنع التجمّعات(١٠٨).

وفي نفس الشهر وصلت أخبار عن حدوث تمرّد مسيحي خطير في أرمينيا فكلّف القائد التركي بغا الذي عرف بالشرابي(١٠٩) بمعالجة الموقف، فاجتمع بدوره مع «أبي سعيد» أحد القادة العسكريين فخرج من قصر «بغا» مخموراً ومحملاً بالهدايا متجها إلى الكرخ(١١٠)، وشاء القدر أن يسير موكبه في درب الحصا متجها صوب الجسر الوحيد الذي يربط بين ضفتي دجلة..

كانت نسائم آذار المنعشة تهب من ناحية النهر مشبعة برائحة المياه النديّة وقد تلألأت النجوم في سماء كحلية صافية، وكان علي ابن الرضا جالساً على دكّة عند عتبة الدار وقد جلس إليه ثلاثة من جيرانه يستمعون إلى حديثه.. واقترب موكب القائد «أبو سعيد محمد» تتقدمه الفوانيس المضيئة ونهض الجالسون لتحية القائد الذي بدا عليه الفرح بما حصل عليه سوف يكون حاكماً على ارمينيا بعد اعادتها إلى بيت الطاعة والقضاء على التمرّد فيها..

وعندما اجتاز الموكب المنزل غمغم الأمام وهو يشيع القائد العسكري:

ـ انه فرح بما هو فيه وغداً يموت قبل الصلاة.

تبادل الرجال نظرات فيها دهشة.. وعندما انصرفوا قال أحدهم:

ـ سمعت ما قاله هذا الرجل المدني؟!

ـ هذا علم بالغيب!

ـ لعلّه قصد أنه سيموت في النهاية.. فنهاية كل انسان هي الموت.

ـ ماذا تقول؟! انه يعني الليلة سيموت القائد.

ـ ولماذا لا نتحقق من الأمر، فاذا ظهر كذبه نغتاله ونستريح منه.

وعاد الرجال الثلاثة إلى منازلهم ينتظرون مطلع الفجر وفي غبش الفجر سمعت ضجة وكانت دوريات من الفرسان في طريقها إلى قصر الخلافة..

وفي المسجد الجامع سمع الجميع الخبر.. لقد توفي القائد العسكري أبو سعيد فجأة.. وتضاربت الاخبار في كيفية الوفاة ولكن من المؤكد أنه اصيب بما يشبه السكتة القلبية(١١١).

الفصل الخامس عشر

في ذو القعدة من سنة ٢٣٦هـ تقرر أن تقوم أم المتوكل وهي جارية تركية اسمها «شجاع» برحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مصطحبة حفيدها «محمد المنتصر» الذي بلغ سن الرجال، وظهرت عليه سيماء الرزانة والعقل.. كما تقرر أيضاً أن يقوم الخليفة بتشييع والدته ووريثه على العرش حتى منطقة النجف حيث تنهض في تلك البقة الجرداء من ضواحي الكوفة قبة بيضاء يرقد في ظلالها بطل الإسلام الخالد علي بن أبي طالب..

وتحرك موكب والدة الخليفة وحفيده الذي عيّن أخيراً على موسم الحج لهذا العام(١١٢).

وعلى مقربة من القبة البيضاء الناصعة وفيما كانت نسائم نيسان تهب منعشة جرى وداع عادي بين الأب وابنه والأبن ووالدته.. وعندما غابت قافلة «شجاع» التي يحفها حرس خاص القى المتوكل نظرة على القبّة البيضاء أودعها كل احقاده وعقده النفسية..

ورأى طريقاً يتفرع من طريق القوافل فسأل عنه أجابه أحد مرافقيه بأنه طريق يتجه إلى كربلاء.. من بعيد لاحت قافلة تتجه نحوها، ورجالاً يترجلون عن دوابّهم مفضلين السير مشياً على الأقدام فتساءل عن سرّ ذلك فقيل له.. ان العشق يبلغ ببعضهم بحيث ينطلق لزيارة مرقد الحسين مشياً على الاقدام!!

كاد المتوكل يتفجرّ غيظاً وحقداً لما يرى ويسمع.. قفز على صهوة جواده والهبه بالسياط عائداً أدراجه إلى سامراء فتبعه جنوده وبطانته..

من يرى عيني المتوكل في تلك اللحظات سيكتشف جحيماً مدمّراً يموج بالحقد والجريمة وسيحدس وحشية الإجراءات القادمة..

لم يكد يضع قدمه في سامراء حتى أوعز إلى وزيره الجديد عبيدالله بن يحيى أن يرسل إلى حاكم بغداد تعليمات مشدّدة بمنع زيارة مرقد الحسين في كربلاء.

كان البريد السريع ينقل بواسطة الحمام الزاجل ولذا هبط في قصر محمد بن إسحاق

حاكم بغداد طائر يحمل أوامر خطيرة وعلى الفور اتخذت اجراءات لتنفيذ أمر الخليفة، وانطلقت مفارز مسلّحة باتجاه كربلاء حيث اتخذت مواقعها حول المرقد..

وقرأ قائد الشرطة بياناً جاء فيه:

ـ ان الدولة تمنع واعتباراً من بعد غد زيارة الحسين بن علي وانه «من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة فسيكون مصيره السجن في المطبق»(١١٣).

أمر عجيب كل شيء يمضي عكس ما يريده المتوكل! قوافل الزوّار تتدفق نحو كربلاء.. الدموع تموج في العيون.. والقلوب يعتصرها الألم..

ـ يا حسين يا مظلوم.. يا ريحانة محمد وسبط الرسول.. يا بن فاطمة الزهراء..

يزيد يولد مرّة أخرى.. يزيد الجديد يريد ذبح الحسين من جديد!

انتهت أيام الانذار الثلاثة.. وانفجر الوضع بحدوث اشتباكات عنيفة بين الوافدين للزيارة وقوات الشرطة ولم تنفع التعزيزات العسكرية القادمة من الكوفة في ثني الناس عن التهافت.. وبلغت المأساة ذروتها في سقوط القتلى والجرحى بعد أن حدث اشتباك عنيف استخدم فيه الجيش اسلحته.. وصلت سامراء تقارير تعكس خطورة الأوضاع.. من أجل هذا صدرت أوامر شخصية من المتوكل تطلب من جميع القوات المرابطة في كربلاء بالانسحاب والإعلان أنها جاءت في مهمّة للصالح العام(١١٤).

وفي بغداد حدث لغط بسبب الاجراءات التعسفية واقدام المتوكل على منع زيارة الأولياء والشهداء والصديقين.. وهل هناك ما هو أقدس من ريحانة النبي الحسين إبن فاطمة الزهراء؟! وبدت الاوضاع مشحونة بالخطر خاصّة في الكوفة وبدأ الجواسيس نشاطاً مسعوراً في نقل التقارير التي يشم فيها رائحة المعارضة للحكم..

وفي بغداد دوهم منزل المحدّث نصر بن علي الجهمي بسبب نقله حديث عن أهل البيت جاء فيه بعد اسناد متصل: «ان رسول الله أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «من احبّني وأحبّ هذين، وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

وفُسّر الحديث بأنه مناهض لسياسة المتوكل.. فصدرت أوامر من سامراء بضربه ألف

سوط.. وبدأ بعضهم بالتوسط لدى الخليفة مركزاً على نقطة مهمة أن المحدّث ليس شيعياً وعندها استؤنف الحكم مرّة أخرى لتصبح العقوبة النهائية خمسمئة سوط فقط[١١٥]!

وفي بغداد أيضاً وقعت حوادث غامضة فقد توفي «الحسن بن سهل» أخو الوزير المشهور «الفضل بن سهل» وجاء في التقارير أنه تناول شربة من دواء توفي أثرها على الفور وذلك في صباح يوم الخميس المصادف ٥ ذو الحجة وفي يوم الجمعة توفي حاكم بغداد محمد بن اسحاق[١١٦]!

فاسندت قيادة شرطة بغداد إلى محمد بن عبدالله بن طاهر الذي اصبح حاكماً على بغداد والكوفة اضافة إلى اقليم خراسان بسبب ولائه المطلق للمتوكل وعدائه للعلويين.

وبلغت اجراءات منع الزيارة ذروتها مع مطلع محرّم الحرام حيث تزداد وتيرة الزيارة لتبلغ أوجها يوم عاشوراء.. امتلأت زنزانات سجن المطبق الرهيب بالابرياء من الذين اعتقلوا بسبب زيارة الحسين..

في سامراء كان الحزن يغمر منزل علي الهادي بسبب ما يجري من انتهاكات واجراءات ظالمة فبينما يعيش المنحرفون والساقطون في رغد من العيش يحيا الاحرار حياة لا تطاق.. جوع، تشرد وحرمان.. خاصّة ابناء علي انهم لا يستطيعون الزواج.. ان الحكم الأموي لم يبلغ هذه الدرجة من الانحطاط ما بلغها في عهد المتوكل!!

فبينما يتلوّى نصر بن علي الجهمي تحت السياط بسبب نقله حديث عن أهل البيتΔ إذا يحيى بن اكثم الذي ملأت بغداد حكايات شذوذه الجنسي يستدعى إلى سامراء لتسلم سلطة القضاء ورئاسة محكمة الاستئناف[١١٧].

الوقت الآن قبل منتصف الليل في تموز سنة ٨٥١م ٦ محرم الحرام سنة ٢٣٧هـ الخليفة مع شلّته التي يجتمع بها كل ليلة.. وقد انضم اليها مؤخراً الوزير عبدالله بن يحيى، والقاضي ابن اكثم ولم يعد المرء يفرّق بين اجتماعات البلاط وحفلات المجون فكل الذين يشاركون في الأولى يحضرون في الثانية، وكل ما ينطق به الطاغية أمر نافد لا تراجع عنه ولا نقاش فيه.. لقد بدأ عصر الإرهاب والحكم المطلق والطغيان حيث تصبح لمنافع الحاكم ورغباته الأولوية أما الدولة والبلاد والشعب فإلى الجحيم..

ماذا ينقص المتوكل؟! حرس قوي مجهز بالسلاح; ووزراء متملّقون وحاشية فاسدة.. وجيش لا يعرف غير تنفيذ الأوامر واستلام المرتبّات الشهرية..

في سامراء استيقظت في النفوس حمى الثراء وجمع المال.. الذهب، الجواهر.. لكأن نفس الحاكم الدنيئة توقظ الغرائز المنحطة والميول الفاسدة والاطماع.. في قصر زوجة الخليفة هناك عمال مستوردون لتنفيذ عمليات حفر غامضة تحت القصر سراديب ممرّات رهيبة تحت الأرض وانفاق سرّية[١١٨].

وبدأ زمن الصعود على جثث الابرياء.. من العلويين والمتعاطفين مع أهل البيتΔوفرض الحصار على منزل علي بين محمد الهادي فلم يعد يخرج إلى المدينة ولا يزوره أحد..

وفيما كان الحرس التركي يتخذ مواقعه كان المتوكل قد بدأ سهرته الليلة الماجنة لتنطلق الضحكات الخليعة وتمارس الوان الآثام والخطايا.. حيث يسقط الانسان في هاوية الرذيلة.

الفصل السادس عشر

من عادة الطاغية إذا اراد القيام بعمل خطير أن يتأكد أولاً من ولاء حرسه الخاص.. أنه قوي مرهوب اذ كان له حرس شديد لا يعرف غير تنفيذ الأوامر..

ومن عاداته أيضاً أنه في عشية ارتكابه لجريمة ما يستغرق بممارسة لذائذه وشهواته فيكثر عبثه ومرحه..

وفي تلك الليلة من شهر تموز ٨٥١م محرم الحرام سنة ٢٣٧هـ صدرت الأوامر للقوات المرابطة في الكوفة بالزحف إلى كربلاء واحتلالها وهدم قبر الحسينA..

وفيما كانت القوات المدججة بالسلاح وأدوات التدمير توقظ الصحراء على امتداد المسافات بين الكوفة وكربلاء.. كان المتوكل يحتفل بليلة ساهرة..

ودارت كؤوس الخمر، وكانت فتاة حسناء ترتدي ثياباً حريرية شفافة تحمل برشاقة كؤوس الخمرة المعتقة فيما كان صوت طروب يتدفق نشوة وسحراً.. ان «محبوبة» تسحر بصوتها الرخيم السكارى وتزيدهم سكراً إلى سكر.

ودخل الوزير عبيدالله بن يحيى وعيناه تبرقان بالظفر كان يحمل سيفاً مهنداً.. تقدم باتجاه الخليفة وانحنى أمامه بملق وتخضع وسلّمه السيف قائلاً:

ـ هذا السيف الذي كنت تطلبه.. لقد وصل سامراء في المساء أمسك الخليفة بالسيف.. وسلّه من الغمد.. وتمتم منتشياً:

ـ سيف عجيب!!

السيف يبرق بسبب أضواء القناديل.. وادرك بعضهم أن المتوكل ينتظر كلمات الثناء.. قال البحتري:

ـ انه يشبه الهلال ذا ثلاث ليال.

وقال آخر:

ـ بل انه يشبه بابتسامته حسناء ذات دلال.

وقال الوزير:

ـ ان له من الجمال ما دام في يد الخليفة أو في يد الأعوان والرجال.

أعاد المتوكل السيف إلى غمده واشتعلت في رأسه فكرة انتخاب حارس خاص يرافقه دوماً.. من أجل هذا همس في أذن رئيس وزرائه قائلاً:

ـ اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته.. أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالساً[١١٩].

وبرقت في ذهن ابن خاقان صورة الغلام التركي «باغر» فقال على الفور:

ـ يا سيدي «باغر».. باغر التركي ليس هناك من هو في مثل شجاعته وبأسه!

ـ عليَّ به!

ـ الآن؟!

ـ نعم حالاً.

وما أسرع أن دخل «باغر» بطوله الفارع لكأنه العملاق الذي تصّوره حكايات ألف ليلة وليلة.. صعّد المتوكل بصره في الفتى المفتول العضلات.. عينان صغيرتان ثاقبتان وقسوة في ملامح الوجه وجبين ضيق، وحاجبان مخيفان كخنجرين يتحفزان لتنفيذ جريمة ما.. سلّم المتوكل السيف شخصياً للغلام التركي الذي منح على الفور رتبة قائد عسكري، وسيتقاضى مرتّباً مغرياً.. ان مهمته الوحيدة أن يقف حارساً للخليفة.. أنه الوحيد الذي يحق له مرافقة الخليفة في أي مكان من القصر حتى جناح الحريم يستطيع أن يقف بازاء الستائر المخملية حيث يتوارى الخليفة غارقاً في لذائذه الجنسية التي لا تكاد تنتهي(١٢٠).

كان من المقرر أن يقوم الخليفة بتدشين يخته الملكي في الصباح ولكن الخليفة الذي اسرف كثيراً في شرب الخمر لم يستيقظ إلاّ في الظهر، وقد ظهرت علائم القلق على وجه رئيس وزرائه والمسؤول عن نقل الأخبار.. فهناك ما يستدعي اطلاع المتوكل عليه بعد أن وصلت اخبار خطيرة من كربلاء!!

وفي أصيل ذلك اليوم كان اليخت الملكي يرسو على ضفاف القاطول(١٢١) لم يشأ الفتح اطلاع سيّده على الاخبار إلاّ بعد أن ابتعد اليخت عن المرسى ليلج مياه دجلة التي راحت تحمل اليخت باتجاه الجنوب الشرقي.. وبدت مناظر المدينة وهي تعاكس مجرى التيار كشريط ملوّن، وكانت المنارة ابهى ما يكون في ذلك الاصيل.. وبدت قصور المتوكل حيث ظهر البرج»(١٢٢) شامخاً كعملاق..

التفت المتوكل إلى رئيس الاستخبارات مستفسراً عن آخر الاخبار قال ابن خاقان:

ـ لقد نفذ الجيش مهمته واحتل المنطقة المحيطة بقبر الحسين وتم هدم البيوت التي بنيت حوله.. خرّبوا ما يقارب من مئة جريب من الأراضي.. ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ تهيبوا تخريب القبر.. قبر الحسين.. ولم يجدوا عاملاً واحداً ينفذ لهم ذلك..

ـ انهم يتمرّدون على أوامري؟!

ـ يا سيدي ان الناس يتبركون بزيارته فهو الحسين ابن فاطمة؟!

وسمع البعض خليفة المسلمين يسب فاطمة الزهراء(١٢٣)! حتى الشاعر البحتري استاء من ذلك واقشعر جسمه ولكنه انصرف إلى ترديد أبيات يتغنى بها في حضرة الخليفة تهنئه له بقصره العجيب الذي بناه فوق سفينة(١٢٤).

قال الفتح:

ـ يا سيدي حتى النصارى امتنعوا عن هدم القبر!

برقت عينا المتوكل بالحقد وصرخ.

ـ اليهود.. عليك باليهود.. انهم يفعلون كل شيء من أجل الذهب..

لم يكره المسلمون اليهود مثلما كرهوهم ذلك اليوم.. وكان منظرهم وهم يحملون معاول الهدم كشياطين انبعثت من أصل الجحيم تريد احراق كل الاشياء الجميلة..

العيون اليهودية تبرق بالشر والجريمة والدناءة وانوفهم المعقوفة تستحيل إلى أنوف لذئاب لا تعرف الرحمة انهم ينطوون على دناءة مقرفة، ولو انبعث لهم موسى بن عمران لقتلوه من أجل عجل ذهبي له بريق يخطف القلوب ويخطف الابصار!

كان الوقت مساءً وقد هيمنت في خرائب البيوت المهدّمة رهبة الظلام، وكان صوت صهيل الخيول وحده يكسر حاجز الصمت الذي جثم فوق المكان..

ليلة العاشر من المحرم مخزونة بحزن سماوي حتّى السماء تبدو كابية غارقة في الرماد.. كل شيء يبدو حزيناً ومنظر الخرائب وصهيل الخيول يشعل في الذاكرة ما حدث في هذه البقعة من العالم من مأساة وفجيعة.. حتى نسائم الفرات الندية لم تبدّد مشاعر الحزن والأسى.. الجنود المسلمون يشعرون بالعار وهم يرون عشرات اليهود كالضباع يريدون نبش قبر سبط محمد وابن فاطمة وعلي.. ومع ذلك فهم يقفون عاجزين عن فعل أي شيء!!

حبّ الحياة الدنيا سلبهم الثأر لكرامتهم المهدورة.. وهبّت نسائم معطورة من جهة المرقد الطاهر حيث يرقد الحسين.. الحسين بن علي..

«آه ما أطيبك واطيب قبرك وتربتك»[١٢٥].

آه من الأرجاس الأوغاد.. أه من قتلة الانبياء.. لا يتورعون عن ارتكاب كل جريمة من

أجل المال.. المال.. الذهب معبودهم الوحيد..

مأساة عاشوراء تنبعث من جديد.. الحسين يقاتل وحيداً من أجل امّة هدرت كرامتها.. من أجل أمّة خضعت للطاغية.. ها هو الحسين يقاتل من جديد ضد طاغية جديد.. المتوكل يحشد جيشه من اليهود.. من احفاد قتلة الانبياء والمرسلين لنبش قبر الحسين.. لذبح الحسين.. لمحو الحسين ولكن هيهات.. الحسين اسمه في قلوب الأحرار ورسمه في حنايا الصدور.. صدور الثوار.

«الديزج» اليهودي الذي عبد العجل الذهبي من دون الله يتقدّم ومعه أولاد الأفاعي والحيّات إلى البقعة المباركة.. وهوى السامري على صندوق خشبي تفوح منه رائحة المسك وبدأت الذئاب البشرية تنهش الأرض المقدسة حيث هوى الحسين وحيث هشمت صدره عشرة خيول مجنونة.

كان «هارون المعرّي» القائد العسكري المرابط مع قوّاته قد نام على اصوات المعاول.. وفي عالم تسبح فيه الأرواح رأى رسول اللهo يبصق في وجهه ويطرده(١٢٦)!

وطلع الفجر رمادياً حزيناً وتكشّفت معالم الجريمة لقد دُمّر المرقد الطاهر وسوّى بالتراب..

وجيء بعشرة ثيران لكرب المنطقة وحراثتها وتحويلها إلى أرض زراعية..

وشوهد أن الثيران كانت تحيد عن منطقة القبر يميناً أو شمالاً ولم ينفع الضرب الشديد لدفع الثيران لحراثة القبر(١٢٧).

وقدّم اليهودي تقريره بيد مرتجفة بسبب حمى الليلة الفائتة للمسؤول التنفيذي عن المهمة:

ـ فعلت ما أمرت به.. لم أر شيئاً.. ولم أجد شيئاً!

قال القائد بدناءة:

ـ هل عمّقت في النبش؟

ـ قد فعلت فما رأيت..

قال القائد وهو ينفذ أمر الخليفة العباسي العاشر:

ـ افتحوا النهر على الأرض المحروثة.

مثل الطوفان اندفعت مياه الفرات لتغمر الأرض المكروبة.. وحدث شيء عجيب.. المياه لا تغمر البقعة المباركة راحت تدور.. حولها فبدت كجزيرة صغيرة.. واحة في قلب الصحراء وقد علا زبد الماء(١٢٨).

الفصل السابع عشر

أطل يوم «عاشوراء»، وتضاعف الحزن وقد استحال المتوكل إلى «يزيد» آخر اذ أغارت ذئابه من اليهود على بقعة طاهرة تضم رفاة الحسين.. عاشوراء ينبعث من جديد.. والحسين ينهض ليقاتل يزيد الجديد..

كانت البقعة من تلك الأرض، حيث دارت ملحمة الحسين ما تزال غارقة في المياه ما خلا جزيرة صغيرة لم يمسها الماء وعمّ الاستياء المدن الإسلامية بما فيها الكوفة، وبغداد وسامراء وتذمّر المسلمون وتجرأ بعضهم على سبّ الخليفة في المحافل العامّة والدعاء عليه في الصلاة.

وانتشرت أبيات شعرية تندّد بجريمة المتوكل، وكان الناس يرونها مكتوبة على جدران المنازل والجوامع وحفظها الكثير من الناس:

تـــالله إن كانـــت اميـــة قـــد أتـــت قتـــل ابـــن بنـــت نبيّهـــا مظلومـــا

فلقـــد أتـــاه بنـــو ابيـــه بمثلهـــا هـــذا لعمـــرك قبـــره مهـــدوما

أسـفوا علـى أن لا يكونـوا شـاركوا فـي قتلـه فتتبعـوه رميمـا[١٢٩]

وانتشرت الأبيات للشاعر المشرّد دعبل الخزاعي كان قد هاجم فيها المتوكل لدى اعتلائه عرش الخلافة وقد وصفه فيها بالذئب البشري:

الحمـد لله لا صـبر لا جلـد ولا عـزاء إذ أهـــل الهـــوى رقـــدوا

خليفـة مـات لـم يحـزن لـه أحـد وآخـر قـام لـم يفـرح بـه أحـد

فمـرّ هـذا ومـرّ الـذئب يتبعـه وقـام هـذا فقـام الويـل والنكـد

وبدأت حملة اعتقالات واسعة طالت الكثير من الابرياء الطيبين، وامتلأت زنزانات المطبق بالمؤمنين من الاحرار الذين ينبض في قلوبهم اسم الحسين.

عمّ الذعر أنحاء البلاد وألقي القبض على كثير من أصدقاء الامام في طليعتهم «علي بن جعفر» اذ ورد إلى قصر الخلافة تقرير رفعه عمر بن فرج يؤكد خطورة علي بن جعفر وأنه من زعماء الرافضة[١٣٠]..

وسيق الرجل الفاضل إلى السجن وكان من المؤكد أنه سوف يتعرّض إلى تعذيب رهيب لدفعه على تقديم كل ما يملك من أجل الخلاص من أجل هذا أجرى اتصالاً مع أحد الشخصيات ووعده بمنحه ثلاثة آلاف دينار مقابل اطلاق سراحه..

واسرع الرجل إلى الوزير المتنفذ عبيدالله بن يحيى وبحث معه فكرة التوسط له لدى المتوكل فوعده بذلك.

وفي المساء وكان مزاج الخليفة منفتحاً قال ابن يحيى:

ـ يا سيدي جئتك متوسطاً لاطلاق سراح علي بن جعفر.

فوجىء المتوكل بتصرّف وزيره وقال مستنكراً:

ـ لو شككت فيك لقلت أنك رافضي.. اتعرف من هو؟ انه وكيل الهادي..

وتوقف لحظات ليقول بحقد:

ـ انني عازم على قتله[١٣١].. واقسم انني لن أخرج جثته من السجن إلاّ بعد ثلاثة أيام[١٣٢]..

وشعر عبيدالله بانه ارتكب حماقة كبرى في التوسط من أجل اطلاق رجل شيعي مغضوب عليه من الخليفة.. وجاء الوسيط يستفسر من الوزير الذي قال له بيأس:

ـ لا تتعب نفسك.. ان عمر بن الفرج كتب عن ابن جعفر بانه رافضي.. أن قتله بات مؤكداً بل أن المتوكل أقسم على الا يسلّم جثمانه إلاّ بعد ثلاثة أيام.

وعندما أحيط علي بن جعفر بالنتيجة اصيب بخيبة أمل ولكنه سطر بعض الرسائل إلى كثير من شخصيات الدولة للتوسط في أمره..

وأخيراً نجحت الوساطات واستجاب المتوكل بشرط أن يسدد مبلغاً قدره ثمانين الف درهم فاذا عجز عن دفع المبلغ فليبع غلامه فلان بهذا المبلغ إلى الخليفة وعندها يخلى سبيله(١٣٣).

قال الوزير مبتهجاً:

ـ وأخيراً سوف تخرج من السجن ليس عليك إلاّ أن تشهد بأنك بعت المتوكل غلامك فتذهب إلى منزلك.. ما رأيك؟

قال السجين:

ـ نعم سأفعل ذلك.

وأمر الوزير بحضور أحد الكتّاب لتسجيل البيع وضبط شهادة الشهود..

وخلال تلك المدّة.. تألقت في ذاكرته مشاهد لغلامه الطيب الذي نشأ في ظلال الايمان الوارفة.. كيف سيسلّمه إلى الطاغوت فيخرجه من النور إلى الظلمات؟

وعندما حضر الكاتب والشهود قال السجين بشجاعة مدهشة:

ـ اشهدوا انه حرّ لوجه الله.

فكتب الوزير تقريراً عما حصل وما لبث أن جاءت رسالة المتوكل شديدة القسوة:

ـ يقيّد السجين بخمسين رطلاً وتوضع الأغلال في عنقه بوزن خمسين رطلاً ويرمى في زنزانة ضيقة..

ـ لقد اقتربت النهاية.

صوت دوّى في السجن، كان يودّ أن يقضي السنوات الأخيرة من حياته في المسجد بين تلاوة القرآن والصلاة وقد يحج إلى بيت الله حجة الختام ويستريح ولكن الحياة في ظلال الطغاة تستحيل إلى جحيم لا يطاق.. إما أن ينسلخ الانسان عن انسانيته وإما أن يحيا مكبلاً بالأغلال..

وعندما سمح لأسرته باللقاء طلب من أولاده أن يحيطوا جميع اصدقائه بالخبر وأن

يسعوا في خلاصه بكل وسيلة.. وكتب رسالة إلى الامام بهذا الخصوص فاستلم الجواب في نفس اليوم وكانت كلمات الامام وجيزة لكنها تنطوي على ايمان بالله راسخ عميق:

ـ لا والله لا يكون الفرج حتى تعلم أن الأمر لله وحده.

هزّت الكلمات وجدان السجين المؤمن.. لقد نسي حقيقة كبرى أن كل شيء يمضي بمشيئة الله.. الله وحده القاهر الجبار الملك القيوّم الذي بيده مقاليد السموات والأرض.. لماذا اذن يتوسل بالذين لا يملكون من الحول والقوّة شيئاً؟!

من أجل هذا كتب إلى اسرته بوقف جميع مساعيها في اطلاق سراحه وأن تسترد جميع رسائله التي سبق أن ارسلها إلى اصدقائه ومعارفه.. فمكث في ظلمات السجن..

ولكن إلى متى؟

في البداية واجه السجين مصيره بشجاعة وتحمّل التعذيب بصبر وبسالة، ولكن الجسد الآدمي لا يستطيع تحمل سياط العذاب، دائماً هناك من يتراجع في البداية يكتم صرخاته لكبتها ولكن لهيب العذاب يفجر آلاما رهيبة لا تحتمل وعندها تدوى صرخات الاستغاثة، فاذا اضيفت إلى الاغلال والقيود ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض فأن شعوراً مدمّراً بالانسحاق يجتاح المرء، ويدفعه إلى التشبث كالغريق بأي شي.. ولكن السجين كان يعي طوال كل تلك الأيام الرهيبة أن عليه أن يستغيث بالله فقط وأن يوصل صوته إلى ولي الله.

أمّا عبدالعظيم الحسني[١٣٤] فقد أفلت من قبضة رجال الشرطة ولم يعرف له من أثر.

واستلم الامام رسالة من السجين جاء فيها: «قد ضاقت نفسي وقد خفت الزيغ يا سيدي».

وجاء ردّ الأمام: «امّا إذا بلغ الأمر منك ما قلت فسأقصد الله تبارك وتعالى فيك»[١٣٥].

في ذلك السرداب المغمور بالسكينة والسلام.. وفي الهزيع الأخير من الليل.. شرع الأمام كفيه إلى السماء.. انه يشهر سلاح الانبياء.

كل شيء يمضي بإرادة الله القاهرة.. بمشيئته وحده..

وشاء الله أن تداهم الحمّى جسد المتوكل وأن تنصحه والدته باطلاق سراح المعتقلين..

وجاء الوزير يبشّر السجين بالحرّية..

وادرك «علي بن جعفر» حنيئذ أن الايمان الراسخ بالله يهب الانسان العزّة والكرامة والحرّية الحقيقية..

وزاره الامام مهنئاً ونصحه بالرحيل إلى مكة[١٣٦]:

ـ ان سامرا لم تعد مكاناً آمنا فارحل إلى حرم الله وأمنه..

سوف يعمّ الرعب الأرض ويخاف المؤمنون سطوة الاشرار.. سيعلو صوت الغناء تراتيل القرآن.. سوف تُزخرف القصور بالذهب والفضة، وسوف تتهاوى بيوت الفقراء.. سوف تفرّ كلّ الأشياء الجميلة، وسيخرج الشيطان يعربد ويدمّر، وسينزوي العقل البشري أمام جنون الغرائز..

ولكن معركة الانسان المؤمن لن تنتهي إلاّ بانتصار الانسان على الخنزير المرتبص في أعماقه المظلمة..

الفصل الثامن عشر

انتقل المتوكل رسمياً إلى قصره الجديد «البرج» الذي انفق المهندسون في بنائه ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار[١٣٧] غير تماثيل الذهب والفضة، وكان اعجب ما فيه بركة مياه مفروشة بالذهب والفضة، وشجرة ذهب مليئة بتماثيل طيور ذهبية تصدر أصواتا تحاكي اصواتها في الطبيعة وقد اطلق على الشجرة اسم «طوبى» شجرة الجنّة، أما العرش الملكي فقد صنع من الذهب الخالص يتصدّره أسدان كبيران وعلى جانبه مدرج ملىء بتماثيل الحيوانات والطيور وقد صمم كل ذلك وفق الروايات التاريخية التي تصف سرير النبي سليمانA اما جدران القصر فقد زيّنت بالفسيفساء من الداخل والخارج وقد امتاز القصر بارتفاعه الشاهق.

أما جناح الحريم فقد اشتمل على مقصورات كثيرة جداً وقد زيّنت جدرانها بلوحات تصوّر فتيات يؤدين ألواناً متنوعة من الرقص وموسيقيين اضافة إلى صور الحيوانات والطيور تنحصر في تفريعات نباتية ودوائر[١٣٨].

وكان حوض السباحة محاطاً بالنافورات المختلفة الاشكال.. كل ذلك يوجد في قلب حديقة غناء مجهزة بدكة مرمرية واسعة، تستخدم في ليالي الصيف لإقامة الحفلات الراقصة.

في منتصف شهر محرّم الحرام طلع القمر بدراً وقد شابت نوره الفضي صفرة فبدا شاحب اللون حزيناً، ان لهذا الشهر نكهة حزينة في النفوس إذ تتوهج في الذاكرة كل مآسي عاشوراء يوم جثم الشمر على صدر سبط الرسول للذبح.. ويوم رفع رأس الحسين على رمح طويل.

غير أن ما ضاعف الحزن هذا العام ما فعله المتوكل بمرقد الحسين.. لقد هُدم الضريح وحرثت الأرض ثم اغرقت بالمياه..

استحالت كربلاء إلى أرض تجوس فيها ثيران الحراثة.. وكما تنبثق في الأرض الزهور انبثق لكربلاء اسم جديد.. اسم ولد يوم غمرت المياه أرض كربلاء لكنها لم تغرق قبر الحسين.. حارب حول البقعة المباركة حيث مثوى سبط محمد.. من أجل هذا عرف القبر بالحائر[١٣٩].

كان الامام قد ركب سفينة[١٤٠] متوجهة إلى بغداد لينطلق منها إلى كربلاء ولكن جميع الطرق كانت محاصرة بمفارز مسلحة تمنع الزوار من الاقتراب من المنطقة.

وقد قطع الطريق على الامام الذي ذهب بصحبة ولديه، ولذا عاد إلى سامراء والألم يعتصر قلبه لما يجري من عدوان على القيم الإسلامية والانسانية.

كان الوضع متأزماً جداً ينذر بوقوع حادث ما، وقد بدا الوجه الاسمر حزيناً كسماء مثقلة بالغيوم..

وعندما ولج المنزل استقبلته ابنته بباقة من الورد تناولها وقد اشرقت ابتسامة في محيّاه، وقبّل ابنته التي لم تبلغ الثالثة من ربيع العمر.. كان وجهها الملائكي يختصر براءة الطفولة.. شمّ الأب الورد أربح وملأ صدره بشذى العطر ثم وضع باقة الورد على عينيه وناولها صاحبه الذي قدم من بغداد قائلاً:

ـ يا أبا هاشم من تناول وردة فقبّلها ووضعها على عينيه ثم صلى على محمد وآله الأئمة.. كتب الله له من الحسنات مثل رمال عالج[١٤١] ومحا عنه من السيئات مثل ذلك[١٤٢].

وفي القصر الجديد كان المتوكل يتشظى غيظاً ان موقف علي بن محمد يعدّ ضربة للحكم.. كان البلاط يغصّ برجالات الدولة وبينهم المعتز ولي العهد المدلل وكتّاب الديوان..

المتوكل جالسٌ فوق سريره الذهبي المهيب والتماثيل وفي طليعتها الأسدان.. تبحلق بصمت.. الخليفة ينظر شزراً إلى رئيس وزرائه بن خاقان.. وانفجر بركان الحقد.. ان وزيره عبيدالله بن يحيى نقل تقارير خطيرة عن ابن الرضا يهاجم فيها سياسة المتوكل.. صرخ المتوكّل وهو يوجه كلماته إلى الفتح الذي وقف ذليلاً:

ـ هذا الذي تقول فيه ما تقول؟!

حاول رئيس الاستخبارات أن يخفف من اندفاع المتوكل في الاتهام فهناك معلومات كاذبة:

ـ انه مكذوب عليه يا أمير المؤمنين!

لكن المتوكل أصم أذنيه.. لقد انفجر الحقد العباسي الذي يخشى أبناء علي:

ـ والله لاقتلنّه.. هذا الذي يدّعي الكذب، ويطعن في دولتي[١٤٣] وفي عصبية مخيفة أصدر أمراً باحضار أربعة رجال من «سكّان الخزر».. فهؤلاء لا يعرفون غير تنفيذ الأوامر.. وسلّمهم بنفسه أسلحة لاغتيال الرجل الاسمر الذي سيحضر إلى القصر..

كانت فكرته أن يواجه الامام بالاتهام ثم يسمح له بمغادرة البلاط وفي الرواق المؤدي إلى البوابة ينقض عليه أربعة رجال غلاظ لاغتياله والتخلص منه إلى الأبد.

الإمام في طريقه إلى القصر وقد امتلأ صدره غضباً علوياً وإباءً حسينياً.. كل شيء يمضي بمشيئة الله.. أنه في عين الله وإذا كان المتوكل يتكل في سلطتة إلى حرسه وجيوشه فان ابن الرضا يتوكّل على الله، وكفى بالله وكيلا.. يمشى مرفوع الرأس..

تتألق في عينيه رسالات الله، وتضيء جبينه الأسمر هالة من نور محمد.. الكلمات المقدسة تدوّي في أعماق الفتى الاسمر:

ـ «يا عدّتي عند العدد..

ويا رجائي والمعتمد..

ويا كهفي والسند ويا واحد..

يا أحد.. ويا قل هو الله أحد..

اسألك بحق من خلقتهم، ولم تجعل في خلقك مثلهم أن تصلّي عليهم[١٤٤]..

الهي عاذ المظلوم ببابك..

وتوكّل المقهور منّا عليك

ورجوعه اليك

ويستغيث بك إذا خذله المغيث..

ويستصرخك إذا قعد عنه النصير..

وتتفتح أبواب السماوات وتهبط ملائكة الله لنصرة المظلوم.. فاذا به يمشي على الأرض هوناً.. وعيون من السماء تحرسه.. أنه ليس وحيداً ومن كان مع الله كان الله معه..

وهبّ حرس القصر لأداء التحيات، والخدم إلى رفع الستائر لقد جاء ابن الرضا تحيطه هالة من النور، وتشعّ من عينيه النجلاوين أنوار الهيبة والقداسة. وعندما ولج البلاط غمر المكان سكينة.. حتى المتوكل الذي كان يتحفز كنمر متوحش أخذ بالتضائل حتى استحال إلى قط وديع.. ها هو يهب من سريره مأخوذاً بالرجل الاسمر الذي بدا في عينيه عملاقاً مهيباً.. يستطيع أن يطيح بعرشه ويحيل قصره إلى خرائب وانقاض.. هتف المتوكل دون وعي:

ـ يا سيّدي.. يا بن رسول الله.. يا خير خلق الله يا ابن عمّي.. يا أبا الحسن ما جاءبك يا سيّدي في هذا الوقت؟

أجاب الإمام بثبات الجبل...جبل النور:

ـ جائني رسولك يقول: المتوكل يدعوك.

ـ كذب ابن الفاعلة..

وأراد الأمام أن يوضح له حقيقة كبرى فقال ناصحاً:

ـ لا تطلب الوفاءَ ممن غدرت به، ولا الصفاء ممن كدرت عليه عيشه..

أتطلب الوفاء من الذين تغدر بهم؟ وتطلب منهم أيضاً تصفو قلوبهم لك وأنت تكدّر عليهم الحياة؟!

متوددا قال المتوكل، وقد وجد نفسه ضئيلاً:

ـ ارجع يا سيّدي إلى منزلك..

والتفت إلى ولي عهده والى رئيس وزرائه:

ـ يا فتح يا معتز شيّعوا سيّدكم.

وغادر الامام البلاط ظافراً.. تخفق من حوله أجنحة الملائكة.. ووراءؤه رجال الدولة وأمامه حرس القصر..

أما الرجال الأربعة فقد ظلّوا مبهوتين وهم ينظرون إلى الرجل الاسمر في موكبه المهيب(١٤٥).

وفي نفس اليوم استلم ابراهيم الصولي كاتب البلاط ومسؤول ديوان الضياع رقعة وصلته بطريقة غامضة فلم تكن ضمن رسائل البريد الرسمي وعندما نشرها اصفر لونه وشعر بأن حياته قد باتت مهددة.. رسالة فيها ابتزاز مالي ان شخصاً يدعى اسحاق يقول: ان بحوزته قصائد لابراهيم في مدح الامام الرضا بمناسبة تسنمه ولاية العهد وقصائد غيرها بعضها بخط ابراهيم نفسه! اما مطالبه فهو اسقاط جميع الديون التي بذمّته والمثبتة في ديوان الضياع.. وفيها تهديد بايصال القصائد إلى المتوكل شخصياً.

استحال قلبه إلى طبل افريقي مجنون يدق بعنف.. ان وقوع القصائد في يد المتوكل يعني نهايته بطريقة بشعة.. منذ مدّة وهو يعمل في البلاط ويلاحظ بعض العيون تبرق كعيون الافاعي.. مؤامرات دسائس نفاق.. تملّق.. انحطاط في كل شيء..

لقد استحال المتوكل إلى طاغية ولم يعد هناك شيء ثابت ولا مقدس كل شيء مستباح..

ان رجلاً يخشى الموتى وهم في القبور، لا يمكن أن يكون أنساناً سويّاً أبداً وخليفة يقدم على تدمير مرقد الحسين يعني أنه أسوأ من يزيد.. يزيد الذي لا يملك حسنة واحدة.

انتبه «الصولي» إلى نفسه على خطى قادمة..

وحارس يقول: أن الخليفة يطلبك على الفور!

أخفى الرقعة في أحد جيوبه وامتثل لارادة الخليفة كان يتوقع أن حادثاً ما سيقع له..

وخلال اللحظات الأولى أدرك الصولي أن الأمور غير ما كان يتوقع، اشتعلت في أرمينيا ثورة بقيادة اسحاق بن اسماعيل حاكم تفليس ومعه أمراء الأرمن والمطلوب توجيه رسالة إنذار قويّة..

أن عقلية الصولي البليغة متحفزة تماماً لتسطير رسالة شديدة اللهجة لها هيبة جيش جرار.. فشرع قلمه وراح يكتب كلمات موجزة الألفاظ واسعة المعاني جاء فيها:

ـ «أما بعد..

فإن لأمير المؤمنين أناة، فأن لم تغن عقب بعدها وعيداً فأن لم يغن; أغنت عزائمه.. والسلام[١٤٦]».

ابدى الخليفة اعجابه بالرسالة مما جعل الصولي يتنفس الصعداء ولكنه ما لبث أن غرق في هواجسه لأن مجرّد اتهامه بالتشيع يكفي في تدمير مستقبله والقضاء عليه.. ولذا بادر إلى تسطير كلمات موجزة في رقعة وضعها في المكان المطلوب وفيها استجابة ودعوة للاجتماع في منزل أحد الاصدقاء..

وفي المساء حمل «الصولي» سجل «الضياع» معه واتجه إلى منزل الصديق وجلس ينتظر بقلق..

طُرق باب المنزل فهب صاحب البيت ليفتح الباب لكنه ما لبث أن عاد أدراجه قائلاً دون سؤال:

ـ كان مكدياً سأل وانصرف.

اعتصم الصولي بالصمت مستغرقاً في هواجسه، لكنّه تحفز مع طرقات خفيفة على الباب:

ودخل رجل في الخمسين من عمره يبدو عليه أنه عانى ألماً كبيرا قبل أن يحضر قال الصولي:

ـ لقد تأخرت عن الموعد.

قال الرجل:

ـ تصوّرت أنك تريد الايقاع بي.

ـ معاذ الله.. لقد أحضرت معي السجل لأمحو أمامك الديون التي بذمتك.

ـ وأنا أحضرت جميع قصائدك بخطك وبغير خطك.

قام الصولي بمحو جميع الديون التي بذمّة الرجل وقام الرجل بتسليم جميع الأشعار..

قال الصولي:

ـ أريد أن تحلف لي بأنك لا تحتفظ بغير هذه الأوراق.

ـ أقسم لك.

راح الصولي يطالع قصائد شعره ثم راح يحرقها الواحدة تلوه الأخرى(١٤٧).. والدموع تموج في عينيه كغيوم ممطرة(١٤٨).

الفصل التاسع عشر

فيما كانت الجيوش الإسلامية بقيادة «بغا» تغادر العراق باتجاه أرمينيا لقمع التمرّد، كانت الشرطة تعتقل القاضي السابق أحمد بن أبي دؤاد وقد صدر أمر بتجميد ممتلكاته.

لم يستطع ابن أبي دؤاد أن يدافع عن نفسه، بسبب شلله النصفي.. وما لبث أن وردته أخبار باعتقال ابنه أيضاً وبتجميد أمواله..

واضطر القاضي السابق وابنه إلى تقديم غرامة مالية بمبلغ ١٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم واجبرا على مغادرة سامراء إلى بغداد بطريقة مهينة(١٤٩).

ومضت في ذاكرة القاضي المهان مشاهد العزّ والنفوذ والسلطان يوم كان القضاء في قبضته عشرين سنة وكانت كلمة واحدة منه تقتل ناساً وترمي بآخرين في ظلمات السجون.. وها هو الآن يطرد مهاناً من سامراء إلى بغداد التي تحقد عليه ويودّ أهلها أن يشربوا دمه.

أما الأموال التي جمعها طوال هذه السنين فقد استحوذ عليها المتوكل ولعلّه سيبني بها قصراً جديداً(١٥٠).

ومضت في ذاكرته مشاهد قديمة يوم كان المتوكل ذليلاً يلتمس منه أن يتوسط له لدى أخيه الواثق.. وكيف البسه حلّة الخلافة بنفسه وكان أول من حيّاه بلقبه الرسمي.. بل أنه هو الذي صنع لقبه.

«آه يالغدر الزمان» الدنيا لا تصفو لأحد أننا نكتشف ذلك بعد فوات الأوان..

كل ما زرعته بالأمس يحترق أمام عيني، يستحيل إلى رماد تتخطفه العاصفة الهوجاء..

انني اقترب من حفرتي.. إنها قريبة جداً.. اشعر انها على خطوات معدودة.. جائع ليس في حوزتي من الزاد شيئاً(١٥١)..

لقد كان المتوكل قبل خمسة أعوام عبداً ذليلاً.. كان يتصوّر أنه سيبلغ ذروة النفوذ ويحكم باسمه.. سيكون المتوكل خليفة بالاسم فقط.. وسيكون هو الخليفة المتنفذ بالفعل.. ولكن كيف انقلب هذا العبد الذليل الذي كان يتوسل إليه بالأمس إلى طاغية يحكم البلاد وفق نزواته؟!

كيف استحال هذا المخلوق الذليل إلى ذئب؟ هل أكل قطعة لحم بشرية[١٥٢]؟

في البداية كان المتوكل يتودّد ويتظاهر بالتعاطف مع أهل السنّة ويتصنّع الطيبة معهم، وفي نفس الوقت بدأ في تجنيد حرس قوي.. ثم يواجه أعداءه وخصومه..

ولا ينسى أيضاً أن يفرض الضرائب التي تزداد يوماً بعد يوم لإفقار الشعب، فينصرف المواطنون إلى الانهماك في العمل لكسب قوتهم اليومي.

وعندما يجد نفسه حاكماً مطلقاً فأنه يبرر لنفسه سفك دماء أهله بعد أن يقذفهم بالاتهامات الباطلة.. ويحتقر القانون والأخلاق..

أنه يتحول إلى ذئب.. ذئب لا يتورع عن أكل اللحوم البشرية.. حتى حدود البلاد يتركها عرضة للغزاة لكي يشعر الشعب بحاجته إلى الحاكم فيضطر إلى الخنوع له من أجل كسب حمايته..

ولذا فأن المتوكل لم يطلب من الفتيات اللاتي كن يؤدين رقصة شعبية التوقف عن الرقص بعد أن تلقى انباءً خطيرة تفيد بهجوم الاسطول الروماني على مدينة «دمياط» المصرية، وإحراق المدينة وأسرهم مئات النساء والاطفال، وتدميرهم حوضاً لبناء السفن كان يجهز الاسطول الإسلامي بالسفن الحربية.

وكانت الانباء الحربية تترى: لقد غرق مئات الاطفال والنساء في بحيرة دمياط[١٥٣]..

وفي اليوم التالي قام برحلة ترفيهية فركب يخته الملكي متجهاً أولاً إلى الشماسية شمال بغداد ثم عبر إلى «قطر بل»[١٥٤] المليئة بالكروم والمعروفة بمعاصرها التي تنتج أفضل أنواع الخمور! فامضى ليلتين، ثم عاد إلى بغداد[١٥٥] فيما كانت نسائم كانون الأول تهب.

وأعلن المتوكل وهو يتصدّر موكبه المهيب في شوارع بغداد وأسواقها أنه سيردّ على الهجوم النصراني، وسيعامل اتباع النصرانية بمنتهى القسوة[١٥٦].

وعندما عاد المتوكل إلى سامراء كان الخريف يلملم أيامه الأخيرة مبشّراً بشتاء قارس طويل.

وفي القصر أمر الخليفة بإحضار ابن السكّيت فحضر ومعه الأميران المعتز والمؤيد..

ودارت أحاديث حول التقدّم الذي احرزه ولداه في العلوم كما سأله اسئلة أخرى وعن عمره فأجاب:

ـ لقد ذرّفت على الخمسين.

وعن مؤلفاته فقال:

ـ «اصلاح المنطق»، و«تهذيب الألفاظ»، «كتاب الاضداد»، «كتاب الامثال» «شرح ديوان أبي نؤاس» «شرح ديوان طرفة بن العبد» «شرح ديوان الخنساء» «شرح ديوان عروة بن الورد» وكتاب «النوادر».. واشتغل في كتاب جديد اسمه «معاني الشعر»[١٥٧].

قال المتوكل وقد خطرت في رأسه فكرة ماذا لو يحرج «ابن الرضا» بهذا العالم لهذا قال:

أريد منك أن تهيأ اسئلة تسأل بها علي بن محمد.. تنفس ابن السكّيت الصعداء لأن المتوكل لم يكتشف تشيعه ولذا أجاب على الفور:

ـ أبذل جهدي.. ان لدي اسئلة تتلجج في صدري منذ مدّة.

أمر المتوكل أن يشهد عدد كبير المناظرة بين ابن السكيت وابن الرضا.

وعندما اكتمل الحضور بدأ ابن السكيّت الذي ظل طوال الوقت معتصماً بالصمت[١٥٨] اسئلته فقال بأدب:

ـ لم بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء؟

وبعث عيسى بإبراء الاكمة والأبرص وإحياء الموتى؟

وبعث محمداً بالقرآن والسيف؟

قال الذي عنده علم النبوّات:

ـ بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر.. فأتاهم من ذلك بما قهر سحرهم وبهرهم. واثبت الحجة عليهم.

وبعث عيسى بإبراء الاكمة.. والابرص وأحياء الموتى بإذن الله في زمان الغالب على اهله الطب فأتاهم من ذلك ما قهرهم وبهرهم.

وبعث محمداً بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر، فأتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم، وقهر به سيفهم، واثبت الحجة عليهم»[١٥٩].

وأثار الامام سؤالاً:

ـ ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلاّ غضاضة؟!

وسكت ابن السكّيت كعادته فأجاب الإمام:

ـ لأن الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد،

وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة»(١٦٠).

قال ابن السكّيت:

ـ فما الحجة الآن:

أجاب الأمام متحدّياً التيار الذي يحاول تهميش دور العقل:

ـ العقل.. يعرف به الكاذب على الله فيُكذّب.

وفي الاثناء حدثت جلبة.. لقد القي القبض على رجل نيسابوري يدّعي أنه نبي وأنه ذو القرنين.. ومعه كتاب يزعم أنه كتابه المقدّس: ومعه سبعة وعشرون من أتباعه..

لم يكن الرجل متزناً في تصرّفاته، وكان يبدو عليه الاجهاد النفسي.. عيناه زائغتان ونظراته تائهة.. أشار المتوكل إلى جلاّد أن يلهب جسمه بالسياط.. فتهاوى الرجل تحتها..

ورأى اتباعه صاحبهم ينهار ويتوسل وقد انخطف لونه..

قال المتوكل لهم:

ـ إذا اردتم النجاة فاصفعوه..

واندفعوا مثل المجانين لينهالوا عليه بالضرب.. والمتوكل يقهقه مبتهجاً.. فيما اعتصم الامام بالصمت وقد غمرته حالة من الحزن.. لعلّه الجوع دفع بهذا المعتوه إلى إدّعاء هذه الترّهات.

أمر المتوكل حرسه بحمله إلى الميدان العام ليعلن كذبه على الملأ ثم يلقى في الحبس، ريثما يُنظر في أمره وعندما انفض الحاضرون قال «ابن اكثم» لخليفته وقد تأججت في نفسه الاحقاد والاطماع:

ـ ما لابن السكّيت والمناظرة؟! انما هو صاحب نحو وشعر ولغة.

قال المتوكل:

ـ فهل تستطيع أن تسأله.

ـ ولم لا؟! سوف اهيأ له من الاسئلة ما يعجز عن جوابها!

ـ سوف نرى!

ومضى ابن اكثم يهيأ سؤاله وحباله..

وهتف المتوكل بغلامه النصراني الاثير(١٦١):

ـ يا أبا نوح! أين أنت

وانطلقا معاً نحو بركة السباع للاستجمام.

الفصل العشرون

كان يحيى بن أكثم جالساً بين يدي الخليفة الذي بدا نصف نائم وينظر بطرف خفي إلى القاضي وهو يقرأ اسئلته قبل طرحها على ابن الرضا.

وكان «المنتصر» ولي العهد قد بدا في زيّه الرسمي ملكاً مهيباً وعندما حانت التفاته من الأب إلى ابنه شعر قليلاً بالغيظ، وخامره شعور بان ابنه سوف يصبح ملكاً وكلما كبر الابن يعني ان الأب في طريقه إلى الفناء.

ان مجرّد تصوّر هذه الفكرة يرعبه، ولذا استوى جالساً وراح يتأمل رجال البلاط بعينين نافذتين.. يحاول أن يغوص في الاعماق الغامضة ويعرف ما يموج فيها من مؤامرات ودسائس.

قال للقاضي الذي استكمل قراءة الأسئلة بشيء من الغرور:

ـ سلّم الرقعة لابن السكّيت ليرفعها إلى ذلك الأسود(١٦٢).

وفيما كان المتوكّل يتطلع إلى القاضي وهو يلف اسئلته، وردت انباء عن حدوث قلاقل في مدينة حمص، واشتراك النصارى في الثورة التي اندلعت في المدينة، قال المتوكل بعد أن قطع على رئيس وزرائه قراءة التقرير:

ـ اين النصراني الذي فجر بالمرأة المسلمة؟

اجاب القاضي:

ـ سيقام عليه الحدّ

ـ لينفذ الحكم أمامي.

وجيء بالنصراني الذي زاغت عيناه من الرعب وعندما لمح الجلاّدين أدرك ان نهايته وشيكة سوف يموت تحت السياط..

اقترب من الغلام النصراني ليهمس في أذنه شيئاً.

صاح الخليفة:

ـ ماذا قلت له يا أبا نوح!

استنكر بعضهم موقف الخليفة الذي كنّى غلامه النصراني، قال القاضي:

ـ يا سيدي لا تجوز تكنية الكافر!

وسكت الخليفة قليلاً ثم أشار إلى الجلاّد لتنفيذ الحكم ولكن النصراني الزاني عمل بنصيحة الغلام فصاح:

ـ اشهد أن لا إله إلاّ الله.. اشهد أن محمداً رسول الله.

قال القاضي.

ـ لقد هدم ايمانه شركه وفعله.

قال أحد الفقهاء وكان يراقب ما حصل:

ـ ان إسلامه لا يدفع عنه الحدّ.. ولكن يخفف عنه وحدث لغط في البلاط.

اقترح الفتح بن خاقان رفع القضية إلى ابن الرضا.

وعندما حرّرت رقعة في القضية قال المتوكل:

ـ اضف إلى المسألة مسألة أخرى: هل يجوز لي تكنية غلامي النصراني أم لا؟

أريد الجواب حالاً.

في منزل الامام كان ابن السكّيت يكتب أجوبة الامام عن اسئلة ابن اكثم(١٦٣).

والقى الامام نظرة في السؤالين الجديدين وكتب بخطه:

ـ يضرب النصراني حتى الموت.

وكتب تحت السؤال الثاني.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم: (تبت يدا أبي لهب وتب).

وانطلق الكاتب وقد امتلأت نفسه اجلالاً للأمام الذي وجده كنبع يتدفق علماً وخُلُقاً.

هيمن صمت مهيب على البلاط، وهتف القاضي باستياء:

ـ لا القرآن يقول بهذا الحكم ولا السنة!!

وحدث لغط حول الحكم العجيب وبرقت عينا المتوكل فقد يهزم ابن الرضا أمام الفقهاء..

ولذا أعاد الرقعة إلى الامام ومعها رسالة شفوية تقول:

«ان فقهاء المسلمين قد انكروا ذلك، وقالوا: لم تجيء بهذا الحكم به سنّة ولم ينطق بـه كتـاب.. فبيّن لم أوجبت عليه الضرب حتى يموت؟

وجاء الجواب من الذي أوتي علم الكتاب:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم: **[فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا]**(١٦٤).

ورضخ الجميع لحكم القرآن(١٦٥).

وفي قرارة نفسه كان المتوكل قد بدأ يرضخ لشخصية الامام وكلما ازداد ايمانـاً بهـذه الحقيقـة، ازداد حقداً وازداد توجساً منه.. انه لن ينفك عن التخطيط للقضاء عليه.. انه الوحيد من بين الجميـع لم يطأطىء له رأساً ولم يخش سطوته.

وبدا القاضي بوجهه العبوس انساناً منطفئاً منهزماً خاصّة في اعتراضه على المتوكل في تكنية غلامه النصراني، قال في نفسه:

ـ كأنني لم أقرأ القرآن.. ولم أقرأ أبداً سورة اللهب.

واستعادت ذاكرته مشهداً قديماً قبل ربع قرن عندما القى سؤاله العويص على «محمد الجواد» يوم أراد المأمون تزويجه من ابنته واعترض عليه العباسيون!

كان محمد الجواد يومها في العاشرة من العمر تقريباً.. وتمرّ السنون ويدفعه القدر مرّة أخـرى إلى امتحان ابنه علي الهادي الذي اجتاز العشرين..

وفوجىء القاضي بعودة ابن السكيت الذي اكتست ملامحه بنشوة الظفر..

كان يحمل رقعة ملفوفة بعناية فيها أجوبة اربعة عشرة سؤال.. سلّمها إلى القاضي ومضى..

وراحت عينا القاضي تعبران على الاسئلة وتتوقفان عند بعض الأجوبة الحساسة..

توقف متأملاً جواباً عن سؤاله: قال تعالى: **[أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا]** اذ كان الله يزوج عباده من الذكور، فكيف عاقب قوماً فعلوا ذلك؟

وجاء الجواب قوّياً:

ـ «ان الله تعالى زوّج الذكران المطيعين ومعاذ الله أن يكون الجليل العظيم عنى ما لبّست به على نفسك تطلب الرخصة لارتكاب المحارم(١٦٦)، ومن يفعل ذلك يلقى آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهانا.. إن لم يتب».

وقفزت عيناه إلى سؤال آخر:

ـ أخبرني عن رجل اقرّ باللواط على نفسه أيحدّ أم يدرأ عنه الحدّ؟

فجاء الجواب:

«اما الرجل الذي أقر باللواط على نفسه ولم تقم عليه بينة وانما تطوّع بالإقرار فاذا كان للإمام الذي من الله أن يعاقب عن الله، كان له أن يمنّ عن الله.. أما سمعت قول الله: **[هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ]** فبدأ بالمنّ قبل المنع..

قد انبأناك بجميع ما سألتنا عنه فاعلم».

ادرك القاضي ان المتوكل لم يلتفت إلى مدلول الجواب الاخير: «فإذا كان للإمام الذي

من الله» وما فيها من سلب لشرعية الخلفاء الذين لا تتوفر فيهم شروط الخلافة، ولذا التفت إلى الخليفة وقدم له نصيحة مخلصة قائلاً:

ـ لا تسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي فانه لا يرد عليه شيء بعدها إلاّ دونها وفي ظهور علمه تقوية للرافضة»(١٦٧).

اكتفى الخليفة بان صوّب إليه نظرة ازدراء وأدار ظهره إليه ليشعره بوجوب إخلاء المكان ولم ينس أن يصدر أوامره بتكثيف المراقبة على منزل الامام وابلاغه بعدم الخروج من البيت حتى لأداء الصلاة في المسجد الجامع.

وفي نفس الليلة كان المتوكل يجتمع مع شلّته من المهرّجين وكان علي بن الجهم ومروان ضمن الحضور، بدأت الحفلة بشرب الانخاب كالمعتاد، وكان المتوكل قد وقع اختياره على ابن الجهم لينفس عن عقده النفسية فقال مخاطباً ابن الجهم:

ـ سمعت أنك خطبت امرأة من قريش فلم يزوجوك لأنك لست قرشياً وأن عثمان ادخل عشيرتك في قريش ثم أخرجكم علي بن أبي طالب.

أجاب ابن الجهم ثائراً:

ـ هذه دعوى الرافضة لعنهم الله..

غمز المتوكل مروان ليحطّ من شأنه فقال مروان:

إن جهماً حين تنسبه ... ليس من عجم ولا عرب

لج في شتمي بلا سبب ... سارق للشعر والنسب

حاول ابن الجهم أن يتجاهل مروان وأومأ المتوكل لمروان أن يزيد الهجوم عليه فقال:

فخلّ قريش وانسابها ... فأنت لانسابها سارق

فان كان سامة جدّاً لكم ... فامّك مني إذا طالق

وتأجج الحقد في قلب علي بن الجهم ان منافسه مروان يحظى بمنزلة كبيرة امّا هو فقد اصبح نصيبه الاحتقار والامتهان. قطع المتوكل عليه افكاره عندما سأله:

ـ يا علي أيما اشعر أنت أم مروان؟

ـ أنا يا أمير المؤمنين!

التفت المتوكل إلى مروان:

ـ ما تقول؟

ـ كل أحد اشعر مني ولا أصف نفسي، وما دام أمير المؤمنين راض عني فما أبالي.

والتفت إلى ابن الجهم قائلاً باحتقار:

ـ أنت أشعر مني؟!!

ـ أوتشكّ في ذلك؟

ـ اشدّ الشك.. أمير المؤمنين حكم بيننا.

ـ أمير المؤمنين يحابيك.

تدخل المتوكل قائلاً:

ـ هذا من عجزك يا ابن الجهم..

وأردف وهو يؤجج نار الاحقاد بين الشاعرين:

ـ لقد أبحت كل واحد منكما في هجاء صاحبه.

والتفت إلى أحد اصدقائه:

ـ احكم بينهما يا بن حمدون.

قال ابن حمدون.

ـ طرحتني بين أنياب ومخاليب.. واما إذا أمرت فان اشعرهما عندي أعرفهما في الشعر.

قال المتوكل:

ـ قد سمعت يا علي.

قال ابن الجهم وقد نخره الحسد:

ـ انك تميل إليه.

ـ هذا عيٌّ منك وعجز.. ان كنت شاعراً ماهراً فلا أفضله عليك.. اهجه إذا استطعت.

وجم ابن الجهم.

فقال الخليفة منتشياً بالمعركة:

ـ اهجه يا مروان.

فاندفع مروان:

ان ابـــن جهـــم فـــي المغيـــب يعيبنـــي ... ويقـــــول لـــــي حســـــناً إذا لاقـــــاني

فـــاذا التقينـــا نـــال شـــعري شـــعره ... ونـــــزا علـــــى شـــــيطانه شـــــيطاني

صـــــغرت مهابتـــــه وعظـــــم بطنـــــه ... فكأنمـــــا فـــــي بطنـــــه ولـــــدان

ان ابـــن جهـــم لـــيس يـــرحم أمـــه ... لـــــو كـــــان يرحمهـــــا لمـــــا هجـــــاني

ودوت ضحكات المتوكل وامتلأ البلاط بضحكات الحاضرين..

التفت المتوكل إلى مروان:

ـ بحياتي عليك ان حضرك شيء آخر فهاته.

اندفع مروان ليسدد ضربته الأخيرة إلى ابن الجهم فشبهه بالمرأة قائلاً:

بنـــت جهـــم يـــا عليّـــه صـــــرت بعـــد قرشـــية

قلـــت مـــا لـــيس بحـــق اســـــكتي يـــا نبطيـــة

اســـكتي يـــا بنـــت جهـــم اســـــكتي يـــا حلقيـــة

راح المتوكل يرفس برجليه من شدّة الضحك[١٦٨] وراحت الكؤوس تدور مرّة أخرى.. وكانت برهان الجارية الحسناء تحمل دناً بلورياً فقال لها المتوكل:

ـ صبى الكأس في فمي.

وراحت الحسناء تصب الخمر في فم الخليفة السكران.

وكانت ليلة حمراء مثقلة بالمتع الآثمة.

وفي الصباح كان ابن الجهم يحزم امتعته فقد صدر أمر بنفيه إلى خراسان[١٦٩] ولم تنفع توسّلات الشاعر الحقير الذي باع نفسه للشيطان.

الفصل الحادي والعشرون

كان محمد بن الفرج الذي زج في السجن.. سجن المطبق الرهيب منذ سنة ٢٣٢ يصلّي الظهر عندما ناداه السجّان وسلمه رسالة قادمة من سامراء..

وعندما فض الرسالة أدهشته جملة تقول:

ـ يا محمد لا تنزل في ناحية الجانب الغربي.

قال في نفسه:

ـ يكتب اليّ وأنا في السجن؟!!

رجال شرطة السجن يعرفون محمداً هذا ويعرفون أنه شقيق عمر بن الفرج الذي انحدر بشخصيته إلى الحضيض ورضي أن يصبح جلاّداً بعد أن كان من المع رجال البلاط..

كانوا يحتقرونه لأنه يقدم على خطوة واحدة للتخفيف عن محنة أخيه في السجن، ولم يتوسط أبداً لاطلاق سراحه.. كانوا يتمنون أن يروا عمر مكان أخيه وكانوا يتبارون فيما بينهم عن حجم العذاب الذي سوف يصبونه عليه لو حصلت تلك المعجزة..

لقد القي في السجن فيما مضى مدّة من الزمن، ولكنه استطاع أن يحصل على أمر باطلاق سراحه مقابل بعض الخدمات.. لقد باع نفسه للشيطان.. أنه على استعداد أن يلبي كل رغبات المتوكل حتى لو أمر بقتل أخيه لفعل ذلك!

وحصلت المعجزة في زمن قلّت فيه المعجزات وبدأت الحوادث بأن لفق عمر بن الفرج تقريراً عن صاحب خانات بغداد يتهمه فيها بأنه سبّ صحابة النبيo، فدوهم خان بغداد واعتقل الرجل وسيق مخفوراً ليمثل أمام قاضي الشرقية «أبو حسان الزيادي» الذي تسنّم القضاء مطلع العام أي قبل أشهر معدودة.

لم يجد عمر بن فرج صعوبة في العثور على الشهود فحشد سبعة عشر شخصاً تضاربت

شهاداتهم في المحكمة ومع ذلك فقد «دين الرجل البرىء.

ولكن الحقيقة أن الجواسيس المزروعين في خانات بغداد سمعوه يهاجم سياسة المتوكل، وهدمه قبر سبط رسول اللهoالحسين بن على لأنها سابقة خطيرة جداً لم يجرؤ عليها حتى الامويين.

ولكي يُعدم الرجل لُفقت له هذه التهم الباطلة واعتقل بسبب سبّه المزعوم للصحابة..

ولعل الذي حصل انه لعن كل من يسبّ علياًA ومعنى هذا أنه يلعن خليفة المسلمين(١٧٠).

ورُفعت القضية إلى سامراء.. إلى الوزير الحاقد عبيدالله بن يحيى الذي رفعها بدوره إلى المتوكل فجاءت الأوامر كما يلي:

- «يضرب المتهم ألف سوط.. وحتى الموت ثم تلقى جثته في مياه دجلة دون اجراء مراسم الصلاة باعتباره خارجاً على الشريعة ملحداً في الدين(١٧١)».

وفي نفس اليوم اطلق سراح محمد بن فرج بعد ثمانية أعوام قضاها في سجن المطبق الرهيب، والعجيب أن يلقى القبض على أخيه عمر بن فرج ويحكم بالسجن، وأن يصفع يومياً.

أما محمد فقد انطلق إلى خان بغداد بسبب استمرار تجميد جميع أمواله، وهناك سمع تفاصيل عن قضية صاحب الخان الذي القي القبض عليه.

كثيرون من أهالي بغداد حضروا تنفيذ الحكم وشهدوا مقاومة الرجل وكان شيخاً وقوراً، ظل يقاوم السياط القاسية ببسالة أما محمد بن عبدالله بن طاهر حاكم بغداد، فقد اكتفى بالنظر إليه بقسوة لا مثيل لها..

في السوط الثلاثمئة اسلم الشيخ البرىء الروح، وظل جسده الملتهب يتلقى السياط دون ألم.. لقد حلّقت روحه بعيداً.. تركت هذا الإهاب الطيني، إلى عوالم مغمورة بالسلام.

القي جثمان الشيخ في مياه دجلة الحزينة فحملته بعيداً إلى شواطىء مهجورة.

وفي مدينة حمص الثائرة كان الجنود الاتراك يعيثون فساداً بعد قمع الثورة، فتهدمت

صوامع وبيع وكنائس يذكر فيها اسم الله.

وكشفت المتوكل عن وجه الطاغية بعد أن وصلت أوامر رهيبة في تنفيذ احكام الاعدام:

ـ يجلد زعماء الثورة حتى الموت.

ثم يصلبون على أبواب منازلهم.

يرسل عشرون من أبرز وجوه المتمرّدين إلى سامراء.. بعد جلد كل واحد منهم ثلاثمئة سوط.. تهدم جميع الكنائس في المدينة وطرد جميع النصارى من المدينة!

كان الفصل صيفاً قائظاً وشمس آب ترسل من اللهب ما يشوي الوجوه..

ووقع حادث عجيب إذ تحشدت في سماء سامراء غيوم لا يعرف من أين قدمت، ومالبثت الرعود أن دوّت في الفضاء.

وتدفّق المطر غزيراً[١٧٢] وكانت أجساد المصلوبين تغتسل في المطر.

وفي بغداد انقضت الشهب والنيازك[١٧٣] منذ الساعات الأولى من المساء وظلت تنهمر مثل المطر وذلك مساء الاربعاء سنة ٢٤١هـ آب سنة ٨٥٥م.

وأغارت الجيوش الرومية على حدود الدولة الإسلامية وأسرت آلاف من «الزط» نساءً ورجالاً وأطفالاً كما ساقت آلاف المواشي[١٧٤].

كما تعرّضت الدولة الإسلامية في حدودها الغربية إلى غارات «البجة»[١٧٥] للسيطرة على مناجم الذهب والماس.

وفي منتصف الليل دوهم منزل الامام وأخذ مخفوراً إلى قصر المتوكل وهناك أودع في سجن في سرداب القصر وفي اليوم التالي انتشرت شائعات حول نية الخليفة في اغتيال ابن الرضا.

من أجل هذا جاء رجل من أقصى المدينة يسعى.. جاء يتنسم أخبار ابن الرضا، فولج القصر وهو يكتم ايمانه، انضم إلى جموع الناس التي كانت تنتظر قضاء حوائجها.

كان «زرافة» الحاجب بطوله الفارع الذي يشبه الزرافة يؤدي عمله، عندما وقعت عيناه عليه أومأ إليه.

ـ يا صقر ما شأنك.. هل جئت لشيء؟

ـ خير أيها الاستاذ.

وأشار إليه:

ـ اقعد.

وانتحى صقر زاوية في المكان واجتاحته موجة من الندم وشعر بأنه وقع في ورطة.. ماذا يقول للحاجب.. ليس هناك ما يبرر مجيئه؟!

ان زرافة ليس من الغباء بحيث لا يعرف لماذا حضر بن أبي دلف إلى القصر.. لقد جاء يسأل عن ابن الرضا.

قال زرافة بعينين نافذتين:

ـ لعلك تسأل عن مولاك؟

قال صقر متوجساً:

ـ ومن مولاي؟ مولاي أمير المؤمنين.

اشار بكفه الغليظة إلى فمه:

ـ اسكت مولاك الحق هنا.. في سرداب القصر لا تحتشمني انني على رأيك.

ـ الحمد لله.

ـ أتحب أن تراه؟

ـ نعم.

ـ انتظر حتى يخرج مسؤول البريد.

وعندما غادر صاحب البريد، قال زرافة لغلام له:

ـ خذ بيد صقر وارشده إلى الرجل العلوي المحبوس..

وأضاف:

ـ اتركهما لوحدهما!

تقدم الغلام الذي أخذ معه مشعلاً إلى السلالم المؤدية إلى سرداب القصر.. ووجد نفسه في ظلمات متكاثفة.. واجتاز الغلام بعض الممرات وكانت الخطى يتردد صداها في الفضاء الخالي، وخيل إلى صقر انه سمع زئير أسد من وراء الجدران الصخرية.

أومأ الغلام إلى حجرة وتركه عائداً من حيث أتى.. وتقدم صقر من الحجرة متوجساً، وتناهى إليه صوت تلاوة حزينة:

ـ **[فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ] ؟!**

[وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ] ؟!

[وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ].

[فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ].

[وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ]..

[أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ]..

[وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ]..

[إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ]..

[قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ]..

[إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ]..

[وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ]..

[فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ]..

[وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ]..

وولج صقر الحجرة فألفى مولاه جالساً على حصير والى جانبه قبر محفور.

ـ سلام عليك.

أشار الأمام إليه أن اجلس:

ـ سلام عليك..

وبعد لحظات صمت قال ابن الرضا مشفقاً عليه:

ـ يا صقر ما أتى بك.

قال صقر بحزن:

ـ سيدي جئت أتعرّف خبرك.

والقى نظرة على القبر واجهش بالبكاء فقال الامام بحب:

ـ يا صقر! لم يحن الأجل بعد.

ـ الحمد لله!

تساءل صقر بعد لحظات سكوت:

ـ يا سيدي حديث يروى عن النبيo لا أعرف معناه.

ـ وما هو؟

ـ قولهo: لا تعادوا الايام فتعاديكم.

أجاب الإمام:

ـ نحن الأيام ما قامت السموات والأرض.

السبت: رسول الله.

الأحد: أمير المؤمنين.

الاثنين: الحسن والحسين.

الثلاثاء: علي بن الحسين، محمد بن علي وجعفر بن محمد.

الاربعاء: موسى بن جعفر، علي بن موسى، محمد بن علي، وأنا.

الخميس: ابني الحسن.

الجمعة: حفيدي واليه تجتمع عصبة الحق.. وهو الذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا.

هذا معنى الأيام فلا تعادوهم في الدنيا، فيعادوكم في الآخرة[١٧٦].

وقال الامام:

ـ اتحب أن ترى بقعة من بقاع الجنة ياصقر؟

ـ نعم يا سيدي!

ـ انطلق إلى طوس وزر قبر جدّي الرضا!

اغتسل وصل عند رأسه ركعتين.

ان موضع قبره لبقعة من بقاع الجنة، لا يزورها مؤمن إلاّ اعتقه الله من النار، واحلّه دار القرار»[١٧٧].

وعندما مضت ساعة قال الامام:

ـ ودّع واخرج فلا آمن عليك[١٧٨].

ربما يعتقلونك بسبب زيارتك لي.

كان صقر يودّ لو امتد به اللقاء إلى مالا نهاية.. انه يشعر في حضرة هذا العلوي الطاهر بأنه يجلس على ضفة نهر ظليل.. يشمّ شذى الورد والكلمات المضيئة التي تتدفق من نبع الحقيقة.

نظر إلى رجل أوجب الله طاعته على الناس.. وتأسف لهذه الأمّة التي ضيعت رجالها فضاعت، ولم تحترم قادتها الحقيقين فسحقت تحت الاقدام..

يا لهوان الدنيا؟!

يتربع رجل تافه على عرش الحكم.. بينما يلقى بالإنسان الطاهر في ظلمات السراديب!!

وقبل أن يغادر اضاء الامام له قنديلاً من الحقائق:

ـ «الدنيا سوق.. ربح فيها قوم.. وخسر فيها قوم آخرون»[١٧٩].

الفصل الثاني والعشرون

ليس هناك من يعرف بالضبط السبب الذي دفع المتوكل إلى طرد القاضي ابن اكثم من مناصبه في سلطة القضاء ومحكمة الاستئناف ومصادرة أمواله.

ولكن من المؤكد أن الجميع يعرفون تلذذ الطاغية في رؤية مشهد السقوط المدوّي..

أمر عجيب لقد قام المتوكل برفعه من الحضيض الذي قذفه فيه المأمون عندما قال عنه: «فيه خبث سريرة وسوء طوية» وأوصى أخاه المعتصم الاّ يقرّبه ولا يستوزره..[١٨٠].

ولم يكن المتوكل يكن احتراماً لأبن اكثم ولكن توصية أحمد بن حنبل جعلته يعينه رئيساً لسلطة القضاء[١٨١].

هو الآن جليس البيت يقلّب كفيه فيراهما صفراً من كل ما جمعه من الأموال أخذوا منه خمسة وسبعين ألف دينار، وعثرت الشرطة اثناء التفتيش على الفي دينار كان قد اخفاهما داخل اسطوانة وها هو يتلقى أمراً بإخلاء القصر الهاروني(١٨٢) كما سمع بمصادرة الدولة أربعة آلاف جريب له في البصرة.. ففكّر بالذهاب إلى مكّة.. لقد بات فقيراً معدماً.. لم يعد يملك في العراق ناقة ولا جمل(١٨٣).

اطلق سراح الامام في الليل سرّاً ولم يسمع أحد باعتقاله كما لم يسمع أحد بإطلاق سراحه.. ما يزال الامام جليس البيت يخشى الناس زيارته لما يترتب على ذلك من تنكيل وقد منع من مغادرة البيت الاّ إذا أراد الذهاب إلى أرضه للعمل.

في المدينة التي تشبه معسكراً كبيراً(١٨٤)، وبالرغم من ضجيج الحياة وكثرة الباعة في الأسواق فأن الشوارع تكاد تكون مقفرة إلاّ من روث الدواب فالأتراك لا يتركون عادتهم في ركوب صهوات الجياد بكامل اسلحتهم ولا يكادون يراعون النظام وقد اعتاد الناس هذه الفظاظة، لأنهم في كل الاحوال لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من ثقافة هذه المدينة التي أنشئت في الاساس كثكنة عسكرية لإيواء مئتين وخمسين ألف جندي تركي مع أسرهم.

كان هناك رجلان غريبان يتجولان في المدينة أحدهما أعرابي رث الثياب لكأنه وصل توّاً من صحراء قاحلة جرداء.. وآخر يمتطي بغلة رمادية اللون يقودها غلام.

قال الغلام وقد شعر بالتعب:

ـ كيف تريدنا نعثر عليه دون سؤال؟!

قال الرجل الذي يرتدي زي النصارى:

ـ أما سمعت في الخان.. ان الخليفة قد منعه من مغادرة المنزل والسؤال عنه يعرّضنا للخطر.. هذه مدينة مليئة بالجواسيس..

واستأنف بعد لحظات صمت:

ـ أنا أخشى الخليفة.. وهذا ابن الرضا رجل مبارك لقد سمعت الكثير من كراماته.. انني اعتقد ببركته.. انه ابن نبي!

فغر الغلام فاه!

ـ فلماذا لا تعتنق الإسلام؟

ـ يا بني ليس سهلاً أن يدع الانسان دين الأجداد.

وعندما ولجا درب الحصا شمّ رائحة أرض مرشوشة بالماء وداخله شعور بأنّ المنزل الذي يبحث عنه يكمن هنا قال لغلامه:

ـ اطرق الباب واسأل لمن هذا المنزل.

تقدّم الغلام وطرق الباب طرقات خفيفة، وفي باله أن يبحث عن عذر مقبول كأن

يطلب شربة ماء مثلاً!

انفتح الباب وظهر غلام شديد السواد كلؤلؤة سوداء..

سأل الغلام بعد أن حيّاه.

ـ لمن هذه الدار؟

ـ لابن الرضا.

وأردف بعد أن أشار إلى الرجل الذي يمتطي دابّته:

ـ أنت يوسف بن يعقوب؟!

ودهش النصراني الذي بادر قائلاً:

ـ نعم!

ـ انزل!

ترجّل يوسف ومضى يتبع الغلام الأسود، الذي قاده إلى الدهليز وأمره أن ينتظر.

دخل كافور حجرةً تفوح منها رائحة الورد ثم خرج بعد لحظات ليقول:

ـ أين المئة دينار؟

كاد يوسف يصعق من المفاجآت: كيف عرف ابن الرضا أنني حملت له مئة دينار هدية؟!

أخذ الغلام صرّة الدنانير وولج الحجرة مرّة أخرى ليظهر بعدها قائلاً:

ـ تستطيع الدخول.

نهض يوسف وولج الحجرة المفعمة برائحة الورد كان ابن الرضا جالساً وحده فنظر إليه بعطف وحنان وقال:

ـ أما آن لك؟!

وأدرك يوسف أنه يدعوه إلى الإسلام رسالة الله الأخيرة.

فقال:

ـ يا مولاي قد بان لي من البرهان مافيه الكفاية.

أجاب الامام وهو يعرف تشبثه بدين الآباء:

ـ هيهات.. انك لا تسلم..

وسكت لحظات ليقول:

ـ ولكن سيسلم ولدك.. سيكون من شيعتنا..

ونظر من خلال كوّة إلى الافق الازرق البعيد وتمتم:

ـ يا يوسف ان أقواماً يزعمون ان ولايتنا لا تنفع أمثالك... امض فيما وافيت لـه.. سوف ترى ما تحبّ.

ونهض النصراني الذي شعر بان البركة تغمره.. انه لم يشعر بالطمأنينة إلاّ في حضرة هذا السيّد المبارك!

نهض واثقاً من أن الخليفة لن يمسه بسوء بل أنه سوف يحقق هدفه من لقاء المتوكل.. فغادر الحجرة آمناً تملأ السكينة قلبه وفي ذاكراته مشاهد متألقة عن زهد يشبه زهد الأنبياء(١٨٥).

لم يمض من الوقت سوى لحظات عندما نهض الامام ليرتدي ثيابه فقد آن له الذهاب إلى أرض زراعية له يعمل فيها.. الأعرابي الذي كان يجتاز الأزقة والشوارع باحثاً عن منزل ابن الرضا وصل إلى درب الحصا بعد أن عثر على من يرشده..

طرق الباب فخرج إليه صبي في العاشرة اسمر الوجه حيّا الأعرابي بأدب وأخبره بأن ابن الرضا يعمل في قرية خارج المدينة وأرشده إلى الطريق التي توصله إليه.

ومضى الأعرابي لا يلوي على شيء.. اجتاز الشوارع والاسواق ثم وجد نفسه خارج المدينة كان الوقت ضحىً وشمس خريفية تغمر الدروب الملتوية خلال الزروع فيما ظهر دير على ضفاف النهر تحيطه الكروم.

وعندما وصل الاعرابي القرية لم يجد صعوبة في العثور على الرجل الذي يبحث عنه.

كان الشاب العلوي مستغرقاً في عمله في أرض تفوح منها رائحة طيبة.. حيّاه بأدب وابتسم العلوي الأسمر وهو يردّ التحية باحسن منها.. قال الاعرابي وقد تألقت عيناه بالأمل:

ـ يا بن رسول الله! أنا رجل من أعراب الكوفة ومن المتمسكين بولاية جدّك علي بن أبي طالب، وعليّ دين فادح عشرة آلاف درهم، ولم أر من أقصده سواك.

غمر الحزن الوجه الاسمر.. الناس البسطاء يتضورون جوعاً والمترفون من الحاكمين ينهبون خيرات الأرض..

دعا الامام الأعرابي إلى الجلوس فجلس عند جذع شجرة وجلس الأمام بعد أن أستخرج قلماً ورقعة ودواة وكتب صكاً بمبلغ عشرة آلاف درهم يتوجب تسديده بتاريخ هذا اليوم..

قال الامام وهو يسلّمها إلى الاعرابي:

ـ خذ هذه الورقة فاذا جئت منزلي في «سر من رأى» وحضر عندي جماعة فطالبني بالدين الذي في الورقة، واغلظ عليّ في ترك ايفائك..

ـ يا سيدي لا استطيع أن أفعل ذلك!

ـ لا تخالفني فيما أقول لك.

نظر الاعرابي إلى الوجه الاسمر المضيء.. الجبين الوضاح تجمعت فوقه حبات عرق الفلاحين كلؤلؤ منضود، وقد فاحت رائحة زكيّة.. وقبل أن يغادر الاعرابي قال مستغرباً:

ـ سيدي أين الرجال؟! أتباشر العمل بنفسك؟!

ـ قال الامام وهو يمسك بالمسحاة بقوّة:

ـ قد عمل بالمسحاة من هو خير مني ومن أبي في أرضه.

ـ من هو يا سيدي؟!

ـ رسول اللهo وأمير المؤمنين وآبائي كلّهم عملوا بأيديهم وهو من عمل الانبياء والمرسلين والأوصياء الصالحين(١٨٦).

هتف الاعرابي وهو يغادر الأرض الطيبة:

ـ السلام عليك وعلى آبائك الطاهرين.

وفي الأصيل كان الاعرابي يترصد من بعيد الباب المشرعة لاستقبال الزائرين..

ومرّت ساعة ورأى ألواناً من الناس تفد إلى المنزل، تدخل ورأى بعض الوجوه القاسية تدخل هي الأخرى ولفت نظره شيخ طيب تبدو عليه سيماء الصلاح ترجّل عن برذونه ودلف إلى المنزل فدلف معه الاعرابي..

وهبّ الامام لاستقبال الشيخ قائلاً:

ـ مرحباً بأبي هاشم.

لم يجلس الاعرابي وانما ارتدى جلد النمر وهو يمسك بالرقعة ملوّحاً:

ـ لقد جئت لاستيفاء الدين الذي بذمّتك.

أجاب الامام معتذراً:

ـ ولكن ليس بحوزتي شيء من المال فأمهلني.

ـ إلى كم هذا التسويف؟!

ـ لو كان عندي مال لاعطيتك يا أخا العرب.

ـ كلاّ لن أخرج من العسكر حتى استوفي المال.

قال الامام بلهجة فيها محبّة:

ـ أجّلني إلى غد أو بعد غد.

ـ سأبيت الليلة في الخان وأعود صباح غد.

وغادر الأعرابي المنزل فيما كانت بعض العيون تبرق كعيون الأفاعي..

مع ارتفاع الأذان للصلاة من فوق المأذنة الملويّة، التي بدت كفنار في مرفأ مهجور.. غادر الجميع المنزل باستثناء أبي هاشم الجعفري.

انطلق رجل تبرق عيناه كأفعى إلى القصر وقدّم تقريراً مفصلاً عمّا جرى في منزل ابن الرضا ولم ينس بطبيعة الحال قصة الأعرابي..

كان الامام جالساً فوق حصير في حجرة مفروشة بالحصا، ليس فيها من زخرف الحياة شيء غير سيف هو ذكرى والده الراحل.. وقد بدا السيف في غمده مقهوراً لكأنه ينتظر لحظة الانطلاق في دروب الثورة والجهاد.

وفي الصباح كان المتوكل قد أمر بحمل ثلاثين ألف درهم إلى منزل الامام لتسديد ديونه وعندما جاء الاعرابي ناوله الامام المبلغ كلّه قائلاً:

ـ خذ هذا المال فأقض به دينك، وانفق الباقي على عيالك.

واهتز الاعرابي لخلق الامام الكريم:

ـ ان ديني يقتصر على ثلث هذا المبلغ يا سيدي!

ـ انه لك انفقه على عيالك!

وأخذ الأعرابي كيس النقود وهو يردد مأخوذاً:

ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وانقلب الاعرابي إلى أهله مسروراً يملأ صدره بالهواء الطلق.

الفصل الثالث والعشرون

حل شتاء سنة ٨٥٦م وكان بدر شعبان قد أخذ بالتناقص ووصلت انباء محزنة: فقد ضربت الزلازل المنطقة الوسطى من إيران وقد لقي آلاف الناس حتفهم تحت الانقاض(١٨٧).

كان منزل الامام مغمور بالسكينة وقد شابته حالة من الحزن.. لزم ابن الرضا الفراش وقد ألمت به وعكة صحية..

وصل أبو هاشم المنزل متأخراً، وعندما وضع كفه على الجبين الاسمر ألفاه يتوهج من

شدّة الحمى..

فتح ابن الرضا عينيه وعندما وقعتا على أبي هاشم غمغم:

ـ ابعثوا رجلاً إلى الحائر(١٨٨) يدعو لي.

كان أبو هاشم الذي قدم من بغداد متعباً لا يستطيع أن ينفذ هذه المهمة.. لهذا غادر المنزل للبحث عن أحد اصدقاء الامام فطرق منزل علي بن بلال وعندما جلس لحظات قال:

ـ ان سيدنا ابن الرضا يطلب من أحدنا أن ينطلق إلى الحائر للدعاء له قال علي بن بلال وقد انبعث في قلبه سؤال:

ـ ما يصنع بالحير وهو الحير؟!

الحسين امام وهو امام فلماذا الدعاء عند مرقد الحسين، وما الفرق بين إمام وإمام؟!

وسكت أبو هاشم، ولكن ابن بلال أعرب عن استعداده للذهاب نزولاً عند رغبة الامام..

وعاد أبو هاشم إلى منزل الامام.. جلس عند ابن الرضا.. الوجه الاسمر يتألق نوراً وسكينة ان قلق العالم كلّه لن يستطيع يؤثر على صفاء هذا الانسان الذي مسّه الله وطهّره تطهير..

لم يمكث أبو هاشم سوى وقت قليل ثم غادر المنزل متجهاً إلى شارع الخليج حيث ترسو القوارب والسفن الشراعية.. وهناك على الشاطىء الرملي وحيث تندفع أمواج دجلة جلس الرجل الذي هدّت قامته السنون وراح يدندن بأبيات شعرية ليروّح بها عن نفسه(١٨٩):

في المساء وبعد أن تألّقت الغيوم في السماء جاء أبو هاشم يتفقد صحة الامام فوجده منطلق الوجه طيباً فجلس عنده وراح يتأمل وجهه المضيء فتألق في أعماقه اسم فاطمة الزهراء فتساءل:

ـ لم سمّيت فاطمة: الزهراء.

قال ابن فاطمة:

ـ كان وجهها يزهر لأمير المؤمنين من أول النهار كالشمس الضاحية وعند الزوال كالقمر المنير، وعند غروب الشمس كالكوكب الدري(١٩٠)، وعندما أراد أن ينهض مودّعاً قال له الإمام:

ـ إجلس.

وعاد إلى جلسته وقد أشرقت نفسه بالنور وتذكر كلمات ابن بلال فقال:

ـ ان ابن بلال قال: ما يصنع بالحير وهو الحير!

أجاب الامام ليؤكد مجد الحسين:

ـ ألا قلت له: إن رسول الله كان يطوف بالبيت ويقبل الحجر الاسود، وحرمة النبي والمؤمن أعظم من حرمة البيت؟

ـ جعلت فداك لو كنت أعرف مثل هذا الجواب لم أرد عليك.

ـ يا أبا هاشم هذه مواطن يحبّ الله أن يتعبّد له فيها، فأنا أحب أن يدعى لي حيث يحب الله أن يُعبد(١٩١).

يا أبا هاشم أن الله عز وجل جعل من أرضه بقاعاً تسمى المرحومات، أحب أن يدعى فيها فيجيب، والله عزّ وجلّ جعل من أرضه بقاعاً تسمى المنتقمات، فإذا كسب الرجل مالاً من غير حلّ سلّط الله عليه بقعة منها فانفقه فيها(١٩٢).

كان الظلام قد اصبح حالكاً فسطعت النجوم. ونهض أبو هاشم ليغادر المنزل، وخيل إليه أنه رأى شبحاً يمرق في الظلام..

لشدّما يمقت هذه المدينة المليئة بالأشباح والجواسيس.. جواسيس لا يمكن أن يكتشفهم، فربما كان الجاسوس غلاماً أو جارية.. ربّما كان شحاذاً يصادفه المرء عند أبواب المساجد..

هناك عشرات الآذان التي تنصت لكل ما يقال.. وآلاف العيون التي تبرق كعيون الافاعي.. وعشرات الوجوه الملثمة..

ومضى أبو هاشم يشق طريقه في الليل وحيداً يفكر.

في الصباح كانت سامراء تضج بالحركة والحياة، بعد الاعلان عند توقيع هدنة مع الروم سوف يفرج عن الأسرى بعد أن نجح نصر بن الأزهر(١٩٣) في مهمته في القسطنطينية.

رياح كانون تهبّ قارسة البرد لكنها لم تبدد الفرجة التي عمت بغداد حيث تدفق الكثير من أهلها إلى سامراء لمرافقة الوفد الذي سيتجه إلى شواطىء نهر «اللامس» حيث تتم هناك عملية الافتداء.

وأعلن ان القاضي جعفر بن عبدالواحد سوف يشهد عملية فداء الاسرى، وقد أناب في منصبه فتى يدعى «ابن أبي الشوارب».. وعندما أهل شهر رمضان كان كانون الثاني قد رحل تاركاً هبوب الرياح الباردة لشباط، وكان الناس يتطلعون إلى عيد الفطر بشوق فهو اليوم الذي تعيّن أن يكون موعداً لفداء الف رجل وامرأة يعيشون تحت نير الروم(١٩٤).

وفي المساء دشّن المتوكل قصره الجديد «المليح» الذي فرغ العمل منه وكان جاهزاً لاستقبال الخليفة منذ اسبوع وقد كلف بناؤه ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم(١٩٥).

جلس المتوكل مسترخياً فوق سرير ذهبي يستمع إلى قصيدة البحتري:

واستتم الصبح في خير وقت ... فهو مغنى أنس ودار مقام

ناظر وجهه المليح قلوب ... يستطيع معلناً بالسلام

البسا بهجة وقابل ذا ذاك ... فمن ضاحك ومن بسام(١٩٦)

وبعدها قدّم مشعوذ هندي بعض الألعاب السحرية(١٩٧).

وفي آخر الليل استحال البلاط إلى بؤرة للرذيلة.. وكان المهرجون يفعلون كل شيء يجعل المتوكل منبسطاً مرحاً، وكان الخليفة قد ثمل تماماً فدخل بغا الشرابي ليصرف الندماء ويقود الخليفة إلى مخدعه خلف الستائر الحريرية.

الفصل الرابع والعشرون

انفجر الوضع داخل البلاط بعد تنامي نفوذ زوجة الخليفة اليونانية الاصل.. فهذه المرأة الطموحة التي كانت في الاصل مجرّد جارية حسناء استغلت كل الوسائل في السيطرة على زوجها الذي اصبح طوع بنانها.. ثم مدّت نفوذها إلى البلاط عبر رئيس الوزراء الفتح بن خاقان الرجل الثاني في الدولة، وشيئاً فشيئاً أصبحت «قبيحة»[١٩٨] المرأة القوّية في البلاط.

وها هي الآن تدفع ابنها المعتز إلى كسب المزيد من النفوذ حتى غدا ابن القصر المدلل..

وحتى اصبح قصره «بركوارا» الذي كلف بناؤه عشرين مليون درهم[١٩٩] من أجمل قصور سامراء.

ثم فوجيء الجميع بظهور عملة جديدة للدرهم تحمل اسم المعتز وهذا ما أثار كثيراً من اللغط.. لأنه يعدّ إهانة لولي العهد الأول «المنتصر» واكتشف الجميع أن زوجة الخليفة قد باتت الحاكم الفعلي للبلاد.. خاصّة بعد أن ظهر بان الخليفة قد عيّن ولده المعتز مسؤولاً أعلى لخزائن الدولة ودور الضرب وسك النقود[٢٠٠].

وأخذت الدسائس في القصر طابعاً خطيراً بعدما تجرأ «عبيدالله بن يحيى» الوزير المتنفذ في البلاط على تقديم تقرير إلى الخليفة حول ميول ولي العهد «المنتصر» وتعاطفه مع العلويين، وهذا اتهام خطير قد يؤدي إلى الموت.

وقد تناقل الناس أستياء المنتصر من تصرّفات أبيه المعادية لأهل البيت خاصّة اقدامه على تدمير مرقد الحسينA.

وفي بغداد وسامراء بدأ الهمس الخائف عن «المهدي» من ذريّة فاطمة الذي «سيخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

لم يعد التكهن بتصرفات المتوكل بعد اليوم، اصبح هدفه الوحيد الاستمتاع بالمتع الآثمة.. وقمع من يتصوّره يقف في طريقه.. يجب أن يستحيل الشعب إلى بقرة حلوب لا تعرف غير الطاعة ودرّ اللبن وبسخاء وإلاّ فسوف يحلب الدماء حتى الموت..

يجب أن يتحول الناس إلى عبيد له.. لا يعرفون غير تنفيذ أوامره والخشوع في حضرته.. واكثر ما يرعبه أن يرى انساناً حرّاً مستقل التفكير.. انه بهذا يتحدّاه ويواجه حكومته..

من أجل هذا عندما وصله تقرير عن ميول ابن السكيّت الشيعية استدعاه ليرهبه..

كان ابن السكيت الذي قضى أعواماً في تعليم المعتز والمؤيد والمنتصر قد اخفق في بذر

فكرة الخير في قلب المعتز الذي نشأ في احضان امرأة فاسدة.. اما المؤيد فقد نشأ ضعيف الارادة تماماً.. ولكنه يأمل خيراً من المنتصر، فهذا الشاب الذي نشأ في احضان فتاة صالحة متديّنة قد بدأ يتفتق عن عقل فذ وإرادة واستقلال في التفكير وتعاطف مع الخير والعدل..

دخل ابن السكّيت البلاط ليقف وجهاً لوجه أمام الطاغية الذي يحفّه حرس شديد وقد بدا «باغر» بطوله الفارع وقسوة ملامحه عملاقاً كالذي تصفه الحكايات البغدادية.. ولوهلة تذكر مسرور خادم الرشيد ذلك الكائن الغامض الذي ينطوي على كثير من الاسرار.

ظل ابن السكيت واقفاً وذهبت تحية للخليفة ادراد الصمت الذي جثم فوق البلاط..

كان المعتز والمؤيد واقفين يرتديان الزي الرسمي، والحرس التركي يقف كالتماثيل الحجرية كما اصطف عشرة من الحراس الزنوج بأيديهم الرماح الطويلة كلّ هذه المخلوقات تنتظر مجرّد اشارة واحدة من هذا المخلوق الضئيل الأصفر الساقين.. انه يستمد جبروته من خنوع هذه النفوس الآدمية التي انسلخت عن انسانيتها واستحالت إلى قطيع من الذئاب البشرية.

تصوّر المتوكل أن ابن السكيت قد أرهب بمافيه الكفاية، وأنه سوف ينهار مع أول كلمة.. سوف يهزم وسيطيح بحرّيته وكرامته فالبقاء حيّاً يستحق كل التضحيات.. حتى بالكرامة قال المتوكل دون مقدّمات:

ـ يا يعقوب! أيهما أحبّ اليك ولداي هذان.. أم الحسن والحسين؟

تفجّر غضب مقدس في اعماق ابن السكيّت.. لم يرَ أمام عينيه سوى جثة محنّطة.. فهذا الطاغية يريد سحق كرامته وهيهات; أجاب بكلمات تتشظى بسالة وتحدّياً:

ـ والله ان قنبر خادم علي خير منك ومن ابنيك!

استحال الطاغية إلى ذئب لم يكن ليخطر في باله أن يسمع مثل هذا الجواب.. اشار إلى حرسه التركي فانقضوا عليه كالوحوش.. وراح الانسان الذي ثأر لكرامته يتلقى الركلات بصبر عجيب حتى هوى فوق أرضية البلاط.

وأمر المتوكل جلاداً أن يستلّ لسان الضحية من قفاه[٢٠١].

وغمغم المعتز وهو يضع قدمه فوق عنق معلمه بنذالة:

ـ إذا وليت الخلافة لأبيدن آل أبي طالب.

وفي المساء حمل قارب شراعي جثمان الشهيد إلى بغداد حيث دفن هناك[٢٠٢].

وعندما سمع الامام الهادي بالنبأ تجمعت في عينيه الدموع لقد فقد صديقاً عزيزاً[٢٠٣] وعالماً كبيراً، وانساناً كريماً وفي اليوم التالي تسرّبت أخبار أكيدة عن نية الخليفة السفر إلى دمشق واتخاذها عاصمة له[٢٠٤]، كما شيّع جثمان كاتب البلاط ابراهيم الصولي.

وفي المساء كان الفرّاشون يفرشون دكّة مرمرية واسعة في الحديقة الخلفية من القصر حيث نبتت اشجار الآس.. وفيما كان المنتصر ولي العهد الذي تأزمت علاقاته مع والده في طريقه بين قصر الجوسق الخاقاني إلى قصر «المليح» كان المتوكل قد اتخذ مكانه بين الوسائد الوثيرة فيما انتصب خلف الاشجار حرس تركي.. أما «باغر» فقد وقف قريباً من الخليفة وفي راسه تموج طموحات لا يعرفها أحد، ولم يلحظ أحد أيضاً علاقاته الوثيقة مع موسى بن بغا الذي حمل اسم بغا

الصغير والذي اختص بتقديم دنان الخمر والاشراف على حفلات الخليفة.. أما أبوه بغا الكبير فقد غادر سامراء إلى الشام استعداداً لغزو جديد.

أراد المتوكل استفزاز ابنه الذي ثبت لديه تعاطفه مع العلويين واستيائه من سياسته تجاههم. قال له متهكماً:

ـ يا رافضي.. ألا تسأل ربّك الاسود عن هذا الآس ماله قد اصفرّ؟ فانك تزعم أنه يعلم الغيب!!

أجاب المنتصر باتّزان:

ـ يا أمير المؤمنين إن ربّي الله والذي تعنيه لا يعلم الغيب..

ومع ذلك فأنا لا شك بأنه يعلم أشياء كثيرة.. انه من أهل بيت الوحي.

نظر المتوكل إلى ابنه باستياء:

ـ سوف اسميك المنتظر بدلاً من المنتصر..

ـ لماذا يا أبي؟!!

ـ لأنك تنتظر موتي لتصبح خليفة.

ـ من قال ذلك.. انني أتألم من أجل ابناء عمومتي.. مشرّدين في الأرض لا يملكون قوت يومهم.. أما المخنثون فقد انتفخت بطونهم من الحرام.

ـ ماذا تنتظر.. لماذا لا تذهب إلى ربّك الأسود فتسأله.

ـ غداً يا أبي.

صاح بهياج:

ـ كلاّ الآن يا منتظر.. الآن.

انحنى المنتصر لأبيه الخليفة وغادر المكان..

لم يجد الشاب الذي اجتاز العشرين صعوبة في لقاء ابن الرضا.

لشدّما يحب هذا الانسان الهادئ.. وجهه الاسمر يغمره سلام وطمأنينة.. تُرى لماذا يحقد أبوه على هذا الرجل العلوي الذي لا يريد شيئاً سوى انتشار الفضيلة والخير والمحبّة؟!!

قال الامام بودّ:

ـ امض واحفر أصل الآس الأصفر فانك ستجد جماجم نخرة واصفرار الآس لنتنها.

وعندما رأى المتوكل الجماجم شعر بقشعريرة.. ان قصوره وحدائقه تنهض على مئات الجماجم البشرية التي لا يعرف من قتل أصحابها ومتى؟!

صاح بابنه:

ـ أَهِلْ التراب.. لا أريد لهذا الخبر أن يتجاوز باب القصر.. أفهمت؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين.

وفي اليوم التالي صدر مرسوم بنقل العاصمة إلى دمشق وحدثت حركة مناهضة لقرار الخليفة في صفوف الجنود الاتراك الذين يشكّلون عماد الجيش عالجها المتوكل بزيادة في مرتباتهم ومنح أُسَرهم امتيازات جديدة(٢٠٥).

الفصل الخامس والعشرون

هل هناك علاقة بين مسار الانسان وعطاء الأرض وحنوّ الطبيعة؟ لماذا وعد نوح قومه بالخصب والمطر إذا ما نبذوا الاوثان التي كانوا يعبدون؟ ولماذا تفنى القرى عندما تفسد في الأرض؟..

وهل تظلّ لعنة سدوم وعامورا تطارد الخليقة إلى الأبد؟!

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لنزلنا عليهم بركات من السماء والأرض» اصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً واتخمت بطون المهرّجين حد الانتفاخ، وتضوّر الاحرار جوعاً من أجل الكرامة والحرّية.

ازداد سعير المتوكل في اقامة حفلاته الخليعة وازدادت الضرائب وتوقفت بركة الارض، وارتفعت الاسعار.

وكان المتوكل الذي وصل دمشق في صفر من السنة ٢٤٤هـ مايس ٨٥٨م قد شعر بالندم فقد كان يتوقع أن الربيع سيكون لطيفاً في قصره الجديد في ضواحي دمشق.. ولكنه وجد الرياح باردة، ثم زخّت السماء بالثلج حتى تعطلت الحياة في المدينة وانقطعت الطرق(٢٠٦).

وما لبث الجو أن تغيّر فجأة من البرودة إلى الحرارة وهاجم البرغوث المنطقة، وتزامن ذلك مع هزّات أرضية مخيفة.

وكانت التقارير قد بدأت تصل حول تحركات مشبوهة يقوم بها الاتراك في سامراء(٢٠٧)، فقرر المتوكل العودة، وبرقت في خياله فكرة بناء مدينة جديدة قريبة من سامراء، وظلّت الفكرة سرّاً لم يطلع عليه أحداً حتى رئيس وزرائه الفتح بن خاقان فخزانة الدولة خاوية.

سامراء حزينة، فهذه المدينة تحمل في طيّاتها سرّ الفناء انها ولدت لتكون عاصمة للبلاد ومركزاً سياسياً وادارياً وثكنة عسكرية للجيوش، فإذا نقلت العاصمة إلى مدينة أخرى فمعنى هذا الخراب.

كان الناس يتحدثون في كل مكان عن جنون الخليفة في نقل العاصمة إلى دمشق..

ولكن الخليفة لديه من الخطط الشيطانية ما يجعل الشعب يعيش في حيرة وذهول..

ولا أحد يعرف ما يدور في خلد الطاغية سوى انسان واحد.. انه علي بن محمد المعروف بابن الرضا إذ قال لصاحبه وهو ينظر إلى الأفق البعيد:

ـ ان هذا الطاغية يبتدئ ببناء مدينة لا يتم له بناؤها ويكون حتفه فيها على يدي بعض فراعنة الاتراك.

وقال الرجل الحائر:

ـ فكم بقي من ملك المتوكل؟

أجاب الامام وهو يتلو بخشوع:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم

[تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ].

لقد استحال المتوكل إلى طاغية وأصبحت الأمّة قطيعاً ينتظر الذبح.. من أجل أن يتلذذ الطاغية بمنظر الذبح واتهام اللحوم الآدمية الشعب أصبح أسيراً في قبضة طاغية هو الآخر مستعبد لشهواته الشاذة.. حتى هو لم يعد يشعر بالحرّية أنه أسير رغباته المستعرة دوماً.. لقد هبط المتوكل إلى أسوأ مراتب العبودية، اصبح هوسه الجنسي مصدر عذاب له وللآخرين..

إنه يشعر بقوّة وضيعة جداً تدفعه إلى التردّي يوماً بعد آخر.. أنه يشعر بالخواء.

فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواءً، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد لها هذا الخواء، وماذا تقتني؟

تتصيد أناساً آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها، فحيثما وجدت طاغية ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه. ان المكتفي بنفسه لا يطغى.. إنّ من يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه»[٢٠٨].

في الصباح الباكر انبعثت صرخة[٢٠٩] من جناح الحريم في قصر الجوسق الذي فضل

المتوكل الاستقرار فيه لدى عودته من دمشق..

واجتمع الحرس التركي.. كان الخليفة غائباً عن الوعي تماماً في ذلك الصباح بعد ليلة حمراء ساهرة..

وصل الطبيب بختيشوع متأخراً وأجرى فحوصات على الجسد الملتهب بسبب الحمى..

وجاءت والدته وهي تشعر بالقلق لمصيره وفيما كان بختيشوع يقوم بفحوصاته همست الأم بلهجة فيها لكنة تركية في أذن ابنها ونصحته بإطلاق سراح السجناء.

ارتسمت ابتسامة سخرية في وجه الطبيب النصراني من تفكير أم الخليفة، فنظر إليه المتوكل بعينين فيهما تهديد.

كانت قد ظهرت في عنق المتوكل دمامل.. ربما بسبب تلوّث الهواء في دمشق وكان الطبيب يعالجها ببعض المراهم التي لم تسفر عن نتيجة حتى سقط الخليفة مغمياً عليه.

ـ ليس هناك من طريق سوى إجراء الجراحة.

همس بختيشوع.

نظر إليه المتوكل بعينين فيهما توجس.. انه يخشى دسائس الاطباء.. لقد مات كثيرون بسبب ذلك؟

ومن يدري ربما يحاول هذا النصراني الثأر لأبناء دينه بعد الاجراءات المذلّة التي لم يفلت منها سوى أصحاب النفوذ.

أمر المتوكل وزيره أن يستدعي أطباء آخرين خاصّة ابن الطيفوري ويزداد النصراني فربما لديهم ما ينفع.

سادت حالة من التوجس سامراء بين من يتفاءل بموت الخليفة والخلاص منه وبين خائف على نفوذه وما جمعه من أموال..

حتى زوجة الخليفة اصبحت تفكر بمستقبلها الخاص.. يجب تنفيذ خطتها في تقديم ابنها المعتز على ابن «حبشية».. ولم تكتفي بذلك بل راحت تملأ الأقبية السرّية في قصرها بالمزيد من الذهب والجواهر والأموال.. هذه المرأة الفاتنة اخطر من زوجها انها تعرف مصدر الخطر الذي يهدّد نفوذها.

وكان المنتصر الذي غادر القصر مساءً بعد حلول والده فيه قد سمع بالنبأ فشعر بالتفاؤل.. ان القدر سيقضي على والده، وعندها سيثأر لكرامته التي يحاول أبوه سحقها..

في الظهر تشكل فريق من الاطباء برئاسة بختيشوع الذي أعاد فحوصاته كما اجرى ابن الطيفوري فحوصات أخرى.. وكانت النتيجة أن الجراحة هي الوسيلة الوحيدة للعلاج.. نقل رئيس الوزراء تقرير الفريق الطبي للخليفة الذي استمع إليه باهتمام وظهر خوف في عيني المتوكل.. خوف لا يعرفه سوى ابن خاقان فهذا الانسان الذي يرعب الجميع ويخشاه الجميع يخاف من مبضع الجراحة!!

الأم تنظر إلى ابنها بقلق ولكنها شعرت بالأمل عندما سمعت الفتح يقول:

ـ لماذا لا تبعث إلى هذا الرجل فتسأله.. فأنه لا يخلو أن يكون عنده وصفة يفرّج بها عنك.

ـ من تعني؟

ـ ابن الرضا.

ـ ابن الرضا؟!!

وشع الأمل في عيني «شجاع»(٢١٠) ونذرت في نفسها أن عوفي ابنها أن تهدي إلى الرجل المبارك عشرة آلاف دينار.

هز المتوكل رأسه موافقاً.. وسرعان ما انطلق مبعوث خاص إلى منزل الامام الهادي في درب الحصا.

الفصل السادس والعشرون

كان منزل الامام في ذلك الاصيل مشرعاً فقد رفع الحصار ظاهراً، ولكن الجواسيس كانوا يتناوبون العمل ويراقبون بدقة كل ما يجري..

كان المنزل يكتظ بالحاضرين وفيهم شخصيات عباسية وعلوية اتخذت أماكنها قرب الأمام فهم جميعاً ينتمون إلى هاشم شجرة المجد..

ودارت أحاديث حول بعض الأمور اليومية.. قال رجل يدعى محمد بن هارون الجلاّب:

ـ يا سيدي.. روينا عن آبائك أنه يأتي زمان لا يكون فيه شيء أعزّ من أخ أنيس أو كسب درهم حلال.

أجاب الامام وقد علت وجهه سحابة حزينة:

ـ يا محمد: ان الأخ الأنيس موجود، ولكنك في زمان ليس شيء اعز من درهم حلال، وأخ في الله عز وجلّ»(٢١١).

وقال رجل أهوازي وهو يتألم من جرح في اصبعه لرجل في جواره كفاني الله شرّ هذا اليوم.

واستطرد:

ـ لقد جرح اصبعي، وصدمني راكب في كتفي ودخلت السوق وكان مزدحماً فمُزّقت ثيابي.. فما أشأم هذا اليوم؟!

التفت الامام وقد سمع طرفاً من الحديث:

ـ يا حسن كيف تتهم بذنبك من لا ذنب له.

قال الرجل وقد انتبه إلى خطأه.

ـ استغفر الله يا مولاي.

قال الامام بمحبة ليعظ الجميع:

ـ يا حسن ما ذنب الأيام حتى صرتم تتشائمون فيها؟

ـ استغفر الله لن أعود إلى ذلك إلى الابد انها توبتي إلى الله يا بن رسول الله.

ـ اما علمت يا حسن ان الله هو المثيب وهو المعاقب.. والجزاء بالاعمال عاجلة وآجله؟!

ـ بلى يا مولاي.

ـ لا تجعل للأيام صنعاً في حكم الله.

قال حسن بأدب من يتلقى العلم:

ـ بلى يا مولاي[٢١٢].

وسأل رجل:

ـ ما معنى التوبة النصوح؟

أجاب الامام:

ـ أن يكون الباطن كالظاهر..

وسكت لحظة:

ـ وأفضل من ذلك[٢١٣].

وساد صمت مهيب فقال الامام وهو يدعو الناس إلى النظافة لأنها الخطوة الأولى للنهوض بالأمم والمجتمعات:

ـ ان الله يحب الجمال والتجمل، ويكره البؤس والتبؤس..

وان الله عز وجل إذا انعم على عبد نعمة أحب أن يرى عليه أثرها.

تساءل رجل:

ـ كيف يُظهر أثر النعمة؟

أجاب الامام:

ـ ينظف ثوبه، ويطيب ريحه، ويحسن داره، ويكنس أفنيته.. حتى ان السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر، ويزيد في الرزق»[٢١٤].

ودلف رجل تظهر عليه سيماء العلم والجلال فأراد أن يجلس في زاوية ما، ولكن الامام الذي يمجد العلم والعلماء نهض له احتراماً للعلم والتقوى فلهما المجد الحقيقي لا للنسب.

وجلس الرجل إلى جوار الأمام وقد غمرت روحه الفرحة.. انه يعيش في زمن يمجّد المال والثراء والجاه الكاذب.

وانشغل الامام بتفقد شؤون العالم الذي كان يرتدي حلّة بسيطة تفضح مستواه المعاشي.

وكان كافور الذي ينتظر اشارة سيّده قد أدرك ان الامام سوف يهب لهذا الرجل مبلغاً كبيراً أنه يعرف مدى تكريمه للعلماء[٢١٥].

وعندما نهض الرجل وغادر المكان ونهض له الامام احتفاءً به وتكريماً لـه.. سـاد همـس بـين العباسيين الذين اعتبروا هذا الموقف اهانة لهم.. وسرعان ما استحال الهمس إلى لغـط وقـال احـدهم للإمام:

ـ كيف تقدّمه على سادات بني هاشم؟

أجاب الامام وهو يعرّفهم مجد العلم.

ـ ايّاكم أن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: **[أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ]**(٢١٦)..

والتفت إلى المستائين:

ـ أترضون بكتاب الله حَكَماً.

ـ وكيف لا؟!

ـ أليس قال الله سبحانه: **[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ]** إلى قوله: **[وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ]**.

فلم يرض للعالم المؤمن إلاّ أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلاّ أن يرفع على من ليس بمؤمن..

اخبروني عن قوله تعالى: **[يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ]** هل قال: يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات؟

أوليس قال الله: **[هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ]**(٢١٧)؟

فكيف تستنكرون رفعي له وقد رفعه الله لعلمه لا لنسبه.

سكت الحاضرون على مضض.. لقد اعتادوا التمجيد على أساس النسب منذ عشرات السنين.

قال رجل عباسي تعدّى الخمسين من عمره:

ـ يا ابن رسول الله لقد شرّفته علينا.. وما زال منذ أول الإسلام يقدّم الأفضل في الشرف علـى من دونه.

أجاب الامام مستنكراً هذا المنطق اللاإسلامي:

ـ سبحان الله!! أليس العباس بايع أبـا بكـر وهـو تيمـي والعبـاس هاشـمي.. أو لـيس عبـدالله بـن عباس كان يخدم عمر بن الخطاب وهو هاشمي وأبو الخلفاء، وعمر بن الخطاب عَدَويّ..

وما بال عمر أدخل البعداء من قريش في الشورى، ولم يدخل العباس؟؟

فإذا كان رفعاً لمن ليس بهاشمي على هاشمي منكراً فأنكر على العباس بيعته لأبي بكـر وعلـى عبدالله بن عباس خدمته لعمر وإذا كان ذلك جائزاً فهذا جائز»(٢١٨).

وسكت الرجل أمام منطق الإسلام الاصيل الذي لا يعرف مجداً إلاّ للإيمان والعلم.

وانتبه الجميع إلى دخول شخص يرتدي الزي الرسمي لموظف يعمل في البلاط.. تقدم الرجل وحيّا الإمام وسلّمه رقعة فيها بضعة كلمات تبيّن حالة الخليفة الصحية والاعراض التي ظهرت عليه ويطلب وصفة للعلاج..

وكتب الامام وصفة العلاج: يؤخذ كسب الشاة[٢١٩] فيداف بماء الورد ويوضع عليه.. فأنه نافع بأذن الله»[٢٢٠].

وقدمت الوصفة إلى الفريق الطبي، وصدرت من أحد الاطباء كلمات تنمُّ عن استهزاء..

ولكن الفتح اشار على المتوكل بتجربة الوصفة فلا ضرر من ذلك وحُضِّر المرهم العجيب، ووضع بعناية على منطقة الدمامل، وما لبث المتوكل أن غط في النوم وكانت أنفاسه قد انتظمت..

وبعد ساعات فوجيء الجميع بانفتاح «الخرّاج» وخروج القيح والصديد، وتماثل الخليفة للشفاء وبشرت والدته التي سارعت إلى الوفاء بنذرها.

وفي المساء وقد تاقت نفس المتوكل للترويح اجتمع شمل شلّة الأنس للمرح وكان فيهم سليمان الطبال، حشيشة، ابن القصار، صالح الدفاف، ومن المغنيات عريب وجواريها: بدعة، سراب، شارية، وجواريها: ندمان، منعم، نجلة، تركية، فريدة، وعرفان[٢٢١] وتألقت محبوبة بثوب حريري أخاذ.

وأدّى البعض معزوفات جميلة كما انبرت المطربة محبوبة فراحت تنشده شعراً تتغزل فيه بزوجة الخليفة الحسناء:

وكاتبة بالمسك في الخد جعفراً ... بنفسي خطّ المسك من حيث أثرا

لئن كتبت في الخد سطراً بكفّها ... لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا

فيا من مملوك لملك يمينه ... مطيع له في ما أسرّ وأظهرا

ويامن من مناها في السريرة جعفر ... سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا[٢٢٢]

وطرب المتوكل وراح يحتسي خمرته المفضلة; وراحت محبوبة تشدو:

أدور في القصر لا أرى أحداً ... اشكو إليه ولا يكلّمني

حتى كأني ركبت معصية ... ليست لها توبة تخلّصني

فهل لنا شافع إلى ملك ... قد زارني الكرى فصالحني[٢٢٣]

وعندما انفض الجميع نهض الخليفة نصف ثمل ليأخذ محبوبته إلى ما وراء الستائر الحريرية.

الفصل السابع والعشرون

وصلت القصر تقارير خطيرة حول استلام الامام مبالغ كبيرة من المال وأن منزله مشحون بالاسلحة، ومعنى هذا أن هناك استعداداً للثورة..

كان التقرير من الخطورة بحيث أفزع المتوكل فأصدر أمراً إلى سعيد الحاجب أن يفاجيء منزل الامام بهجوم ليلي وضبط كل ما يعثر عليه من المال والسلاح..

كانت سامراء غافية في تلك الليلة من ليالي خريف سنة ٢٤٥هـ ٨٥٨م، عندما نفذ سعيد الحاجب هجوماً مفاجئاً على منزل الامام وضع سعيد السلّم على الجدار ومنه ارتقى إلى السطح.. كان القمر في المحاق والظلام دامساً ما خلا نجوم اشتد سطوعها، فبدت كقلوب تنبض بوهن.. ومن فوق السطح كان سعيد يتلمس طريقه إلى مدرجات ليمكنه النزول منها إلى باحة الدار ولكن دون جدوى..

فجأه وفيما هو حائر يسمع صوتاً يناديه باسمه:

ـ يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة..

وجاء كافور الخادم يحمل شمعة، وفي ضوئها رأى سعيد المدرج الذي يؤدي باحة الدار..

ولمح سعيد الأمام مرتدياً جبة صوف وقلنسوة فأشار إلى حجرات المنزل قائلاً:

ـ دونك البيوت.

وانصرف إلى سجّادته متجهاً إلى الكعبة العظمى، فيما كانت النجوم تسطع في السماء; وراح سعيد يفتش الغرف تفتيشاً دقيقاً وكانت مشاعر الخجل تتعاظم في أعماقه وهو يرسل اللعنات على أولئك الجواسيس الأوغاد..

وجد في احدى الغرف بدرة[٢٢٤] عليها ختم أم المتوكل، وكيساً مختوماً بنفس الختم..

ولج إلى السرداب وشعر برهبة في ذلك العمق تحت الأرض.. لكنه لم يجد شيئاً سوى أرضية مفروشة بالحصى وكان الحوض الصغير خالياً من الماء..

وقبل أن يغادر المنزل خاطبه الامام:

- دونك المصلّى.

تقدّم سعيد إلى الحصير ورفعه ليجد سيفاً في غمد، فأخذه معه وغادر المنزل من الباب وقد شيعه كافور الخادم بعد أن أخذ منه الشمعة..

وانطلق الحاجب الذي ترك السلّم على الجدار لا يلوي على شيء..

استعرت هواجس المتوكل وهو يرى بدرة وكيساً مختومين بختم والدته، وانتابه قلق.. كل شيء يمكن أن يحدث، ولكن هل تتآمر والدته عليه؟!

انه يعرف جيداً عواطف ابنه المنتصر الذي ذهب بعيداً في ولائه لأبناء علي.. انه يتحداه في قصره، ويدافع عن علي أمام الجميع بينما يتزلف إليه الناس بشتم علي والتهريج عليه!

ـ كلاّ!

صرخ المتوكل بحقد، وأصدر أمراً بإيقاظ والدته فوراً.. جاءت المرأة التي اجتازت الستين بحلّة النوم، وقد خطف الرعب لونها.. ما الذي حصل يا ترى؟!

كان «باغر» بطوله العملاق يتقدم المرأة إلى البلاط حيث جلس ابنها على سرير وثير وأمامه على منضدة مضلّعة دن بلوري خاوي..

أدركت المرأة العجوز ما جرى بعد أن لمحت بدرة الدراهم والكيس..

نظر اليها المتوكل بغيظ، ونظر إلى المال المختوم بختمها قالت «شجاع» بلكنة تركية:

ـ كيف؟.. قد نذرت في علّتك لمّا أيست منك إن عوفيت حملت من مالي عشرة آلاف درهم..

ـ هذا خاتمك؟!

ـ نعم هو خاتمي!

ـ والكيس؟ كم فيه؟!

ـ أربعمئة دينار.

فتح المتوكل الكيس وعدّ النقود وكانت أربعمئة..

أطرق المتوكل برأسه وقال:

ـ عودي إلى حجرتك.

تساءلت الأم:

ـ ما الذي حصل؟!

ـ لا شيء.. لا شي..

وعندما غادرت المرأة، المكان التفت المتوكل إلى حاجبه وأمره بإعادة الأموال إلى صاحبها.. كما أعاد أيضاً السيف المقهور الذي لم يشهر حتى الآن.

قال سعيد الحاجب وهو يسلّم الأموال والسيف إلى الامام معتذراً:

ـ يعزّ علي يا سيدي أن أدخل دارك بغير أذنك ولكني مأمور.

واكتفى الامام بالصمت ثم تلا قوله تعالى:

ـ **[وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ]**(٢٢٥).

ورجف قلب سعيد، إنه لا يشعر بالهيبة التي يحسّها حتى في حضرة المتوكل.. انه يحس بان عيني الامام تنفذان إلى أعماقه الحائرة.

وفي منتصف الليل عندما استحال القصر إلى بؤرة للرذيلة، وكان المتوكل ما يزال تحت تأثير الحادثة برقت في ذهنه فكرة..

آه لو استطيع أن اجرّ ابن الرضا إلى الشراب.. آه لو ينادمني مرّة واحدة.. ولكن لا فائدة.

التفت إلى عبيدالله بن يحيى قائلاً بصوت سمعه الجميع:

ـ ويحكم لقد أعياني أمر ابن الرضا وجهدت أن يشرب معي، وينادمني فامتنع وجهدت أن أجد فرصة في ذلك فلم أجدها!!

قال أحدهم وقد برقت في عينيه النذالة:

- إذا لم يجد ذلك مع ابن الرضا، فهذا أخوه موسى.. يأكل ويشرب ويعشق ويتخالع فاحضره وشهّر به.. فان الخبر يشيع عن ابن الرضا بذلك فلا يفرق الناس بينه وبين أخيه.. أما الذين يعرفونه بشخصه فانهم سيتهمون أخاه بمثل أفعاله.

وجد المتوكل في هذه الفكرة سلاحاً جديداً يستخدمه ضد الامام علي الهادي فاصدر أمره إلى الوزير على الفور:

- اكتبوا بأشخاصه مكرّماً.. وأن يستقبل رسمياً وبحفاوة وأن يخصص له من الآن قصر ويجهز بكل ما يحتاج إليه.

ولم ينس المتوكل أن يؤكد على شيء جوهري هو تخصيص جواري مغنيات ويجهز المنزل ببعض دنان الخمر(٢٢٦).

رفع المتوكل الكأس البلوري عالياً معلناً بدء الليلة الساهرة.. وانطلقت موسيقى رقيقة وانسابت صوت إحدى المطربات.. وانطلقت بعض القهقهات الخليعة..

وفيما كانت النوافذ المضيئة بنور القناديل تتدفق ضوءً والأصوات السكرى تختلط بصوت الموسيقى، كانت الرياح الخريفية تجوس خلال الأزقة الغارقة في الظلام، فيما كانت اشباح تمرق خلال الحلكة الدامسة لا أحد يعرف من أين تأتي والى أين تتجه؟!

وهناك في حجرة صغيرة في منزل يقع في درب الحصا كان رجل في الثلاثين من عمره يتلو القرآن على ضوء قنديل.. وكان صوته الحزين يمضي مع الريح..

ان الذي يمرّ قرب المنزل في تلك الليلة لابد وأنه سمع صوتاً مفعماً بحزن مقدس صوتاً منقوعاً بدموع الانسان المقهور:

- «الهي!

مسيء قد ورد..

وفقير قد قصد..

لا تخيب مسعاه..

وارحمه واغفر له خطاه»(٢٢٧).

انه في الثلاثين من عمره ولكن الأيام والعذابات والآلام جعلت منه شيخاً في الستين.

- «الهي صل على محمد وآله محمد..

وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري.

وامّحى من المخلوقين ذكري..

وصرت في المنسيين كمن قد نسي..

الهي كبر سني..

ورق جلدي..

ودق عظمي..

ونال الدهر مني..

واقترب أجلي..

ونفدت أيامي..

وذهبت شهواتي..

وبقيت تبعاتي..

الهي!

ارحمني إذا تغيرت صورتي»[٢٢٨].

روحه تهيم في سماوات بلا انتهاء.. تذوب في الوجود:

ـ «الهي تاهت أوهام المتوهمين.

وقصر طرف الطارفين..

وتلاشت أوصاف الواصفين..

واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك عجيب شأنك.. أو البلوغ إلى علوّك.

فانت في المكان الذي لا يتناهى.

ولم تقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة..

هيهات.. ثم هيهات..

يا أولي!

يا وحداني..

يا فرداني..

شمخت العلو بعز..

وارتفعت من وراء كل نهاية بجبروت الفخر»[٢٢٩].

وتنحدر دموع الخشوع.. دموع الايمان.. لكأن الروح تذوب في بوتقة الوجود فتصبح جزءً من حركة هذا العالم المليء بالأسرار.

الفصل الثامن والعشرون

وصل موسى بن الامام الجواد سامراء، التي كانت تعيش احتفالات شعبية لا نظير لها فقد صادف عيد الاضحى احتفال النصارى بعيد «الشعانين» وعيد «الفطر» اليهودي.. كان الخليفة يمتع نظره من فوق المأذنة الملوّية ويتأمل سامراء العاصمة التي بناها أبوه.. لم تعد تشبع جنونه انه يفكر ببناء مدينة أخرى.. مدينة جديدة.. عاصمة جديدة تليق بمركزه وابهته..

وفي «قنطرة وصيف» حدث لقاء هام بين الأخوين بعد فراق دام أكثر من عشرة أعوام.. ومن خلال الاستقبال الرسمي الذي حظي به موسى من قبل موظفي الدولة والقادة العسكريين وحرص الجميع على تسمية أخيه بابن الرضا أدرك الامام أن المتوكل يريد من وراء ذلك تشويه سمعته بجر أخيه إلى بؤرة الرذيلة من أجل هذا حذّر أخاه من الفخ الذي نصبه المتوكل:

ـ ان هذا الرجل قد جاء بك وأحضرك ليهتكك، ويضع من قدرك، فلا تقرّ له أنك شربت نبيذاً قط. واتق الله يا أخي ان ترتكب محظوراً.

قال موسى:

ـ انما دعاني لهذا فماذا أصنع؟!(٢٣٠)

ـ يا أخي ان طاعة الله أولى من طاعة المخلوقين..

يا أخي ان المتوكل يريد منك أن تشرب الخمر والنبيذ حتى يشيع بين الناس أن ابن الرضا يشرب ويسكر!

وسكت موسى.. فرق كبير بين الأخوين.. منذ أكثر من ربع قرن وعندما كانا في المدينة المنورة وقد سافر أبوهما إلى بغداد.. طلب موسى من والده أن يأتي له بهدية من مصوغات بغداد، والتفت الوالد الذي لن يعود من سفره وسأل علياً الذي بلغ من العمر ست سنين وسأله عن الهدية التي يحب فقال:

«أريد سيفاً كأنه شعلة»(٢٣١)!.. آه أن علياً لم يتغير ما يزال هذا السيف ذكرى والده الراحل يرافقه.. وانتبه موسى إلى كلمات أخيه الغاضبة:

ـ انك لن تلتقيه إلى الأبد!

كانت كلماته تشبه نبوءات الانبياء.

وضاعت الكلمات الصادقة.. لم تجد لها أُذناً واعية.. ومضى موسى إلى قصره الفخم وهو لا يشعر بأنه يضع قدمه في بيت العنكبوت بيت هو أوهن البيوت.. سوف يظل يطرق أبواب المتوكل التي لن تفتح له أبداً.. فالطاغية غارق في هواجسه وهو يخطط لبناء مدينته الجديدة..

ضربت الزلازل مصر والعراق وسوريا، ورجفت الأرض بأهلها، فقد زلزلت كثير من المدن بغداد واللاذقية والرقة ورأس عين ودمشق وطرسوس وأدنة وسواحل الشام، واستحالت انطاكيا إلى انقاض.. وهاج البحر، وهاجمت الامواج الغاضبة المدن الساحلية في البحر الابيض.. واختفى الجبل الاقرع في انطاكيا.. كما ابتعلت الارض نهراً يمرّ قريباً من البحر.. وغارت «عين مشاش» في مكة(٢٣٢).

وامتدت الزلازل والهزات الارضية إلى ايران، وما زاد الاوضاع سوءً قيام الروم بالهجوم على السواحل المصرية ومحاصرة «سمياط».. اما الطاغية فقد كان مشغولاً عن كل ذلك بلذائذه وشهواته وكان هاجسه الوحيد بناء «المتوكلية».

وكانت أول خطوة قام بها هو اصداره أوامر بتهديم قصرين في سامراء وهما: «المختار» و «البديع» ونقل موادّ البناء فيهما إلى شمال سامراء على بعد أربعة أميال عربية(٢٣٣).

وقد تولّى المهندس النصراني دليل بن يعقوب كاتب «بغا» الإشراف على تخطيط وتنفيذ بناء القصر الجعفري وشق نهر يرفد المدينة بالمياه.

وبدأ العمل ببناء قصر فخم على ضفاف دجلة ثم يبدأ العمل بتنفيذ بناء المدينة بما في ذلك مسجدها الجامع الكبير الذي سيكون على غرار المسجد في سامراء وستكون له مئذنة ملوية أيضاً[٢٣٤].

وفي ظروف بالغة القسوة بدأ العمل بتدفق آلاف العمال.. وسرعان ما نهض القصر الجعفري في الزاوية التي يتفرع منها نهر القاطول عن دجلة وقد بلغت تكاليف البناء لهذا القصر مليوني دينار[٢٣٥].

واستحال موظفي البلاط إلى ذئاب بشرية تتخطف أموال الأمّة وكان المهندس النصراني ما انفك يملأ تلك الأفواه الشرهة بالرشاوي [٢٣٦]وبدأت الخزينة تصفر من الأموال مما دفع بالطاغية إلى البحث عن مصادر للمال وكان عليه أن يختار إحدى الأبقار التي سمنت في بلاطه وتقديمها إلى الذبح..

وبدأ رجال البلاط يشمون رائحة الدم.. فتضاعفت حمّى التآمر وبدأت وتيرة الدسائس بالتنامي!

وانفجر الصراع بين عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير الطاغية وبين نجاح بن سلمة المسؤول عن التواقيع الرسمية للبلاط، وكانت اسرة خاقان قد بلغت الذروة في سيطرتها على شؤون البلاط وقد أدى كثير من الاسباب إلى بدء تحالف دنس بين زوجة الخليفة «قبيحة» التي نجحت في ايجاد قطيعة نهائية بين زوجها وابنه المنتصر المرشح الأول للخلافة فيما مضى وبين رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.. لقد اصبح كل شيء جاهزاً وسوف يتم خلع ولي العهد في اللحظة المناسبة أو حتى اغتياله[٢٣٧].

كانت فكرة رئيس الوزراء مصادرة أموال بعض القادة الاتراك للحدّ من نفوذهم..

وكان اسم وصيف في صدر القائمة ولذا بدأت الدسائس تتحرك في هذا الاتجاه.

ولكن القدر دفع الأحداث باتجاه آخر..

كان «نجاح بن سلمة» يخطط لازاحة جميع خصومه والسيطرة على شؤون البلاط، وليس هناك من وسيلة أفضل من إغراء المتوكل بالقاء القبض على شخصيات متنفذة متخمة بالاموال وقد حان الوقت المناسب للانقضاض عليهم.. فلديه ادلّة دامغة على خيانة بعض كبار الموظفين في البلاط وتواطئهم مع عبدالله بن يحيى ذلك الوزير الشره الذي عرض حكم الولايات الإسلامية لمن يدفع الأكثر من الرشاوي(٢٣٨).

أعدّ «نجاح» تقريراً مثيراً حول خيانة كلّ من «الحسن بن مخلد»، مسؤول ديوان الضياع و «موسى بن عبدالملك» مسؤول ديوان الخراج وانهما قد اختلسا باستغلال منصبيهما أموالاً ضخمة.. وانه يستطيع أن يستخرج منهما ما قيمته ٤٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم!

تمكن الوزير من الاطلاع على التقرير الخطير بعد أن وقع في يد المتوكل، فوضع رجاله في حالة استنفار، واستدعى «موسى» و«ابن مخلد» واطلعهما على ما يجري وفي لهجة تفوح برائحة الخطر قال الوزير:

ـ إذا دخل نجاح على المتوكل فأنه لن يخرج إلاّ برأسيكما ومصادرة كل ما تملكان.

قال ابن مخلد:

ـ وماذا بوسعنا أن نفعل؟

ـ اكتبا رقعة تقبلان فيها على دفع ٢/٠٠٠/٠٠٠ دينار!

أجابا على الفور:

ـ سنفعل ذلك متى شئت.

ـ اليوم..

وأردف الوزير وقد برقت عيناه بالشرور:

ـ نتغدى به قبل أن يتعشى بنا!

وفي المساء استدعى المتوكل «نجاح بن سلمة» لمنادمته وشرب الخمر معاً.

كان المتوكل قد أفرغ دناً بلورياً من الخمر، ولم يكن قد سمح بعد للمغنين والمغنيات بحضور المجلس..

قدّم المتوكل كأساً يطفح بخمرة معتقة إلى نديمه وقال:

ـ يا نجاح بكّر الي غداً سأسلمك الرجلين.. ولكن الفي ألف درهم لا تكفي.. هل تستطيع أن تأخذ منهما أكثر من ذلك؟

واستحال نجاح إلى افعى وبرقت عيناه بالغدر:

ـ يا مولاي أعرف عشرين آخرين لو سلّمتهم اليّ لاستخرجت لك منهم أموالاً كبيرة تبني بها مدينتك..

وسكت لحظة ثم قال:

ـ فإنه يلزمك من الاموال في بنائها ما يعظم قدره ويجلّ ذكره قال الطاغية وقد استحال إلى ذئب بشري:

ـ سمّهم لي![٢٣٩].

قال «نجاح»:

ـ سوف اسجل لك اسماءهم في رقعة.. واذكر الأموال التي يمكن أخذها منهم..

ـ اذكر لي بعضهم؟

ـ موسى بن عبدالملك، وعيسى بن فرخنشاه، نائب الحسين بن مخلد، وأبن مخلد، وزيدان بن إبراهيم، نائب موسى بن عبدالملك.. وسكت لحظات ليرى انعكاس كلماته على وجه المتوكل الذي كان يصغي بشراهة، تجرأ نجاح وأردف:

ـ وعبيدالله بن يحيى وأخوه عبدالله وزكريا وميمون بن ابراهيم، ومحمد بن موسى المنجّم وأخوه أحمد وعلي بن يحيى وجعفر المعلوف وغيرهم[٢٤٠].

هتف المتوكل وقد اسكرته الخمرة والأموال القادمة:

ـ خذل الله من خذلك بكّر إلى غداً سوف اسلمهم جميعاً اليك.

كان الخليفة قد استكمل شرب سبعة أرطال من الخمرة وبدأ يتعلثم في حديثه، ولذا تقدم موسى بن بغا وأشار إلى الندماء باخلاء المكان وفقاً لتعليمات الخليفة الذي يتوجب عليه في هذا الوقت الانصراف إلى مخدعه الوثير حيث تنتظره إحدى حسناوات القصر[٢٤١].

الفصل التاسع والعشرون

في الصباح الباكر وفيما كانت رياح شباط[٢٤٢] تجوس شوارع سامراء كان نجاح بن سلمة قد اعدّ رجاله الذين سيتولّون المناصب الجديدة بعد اعتقال رجال القائمة السوداء.

وفي مدينة يحكمها الجواسيس تنتشر الاخبار والشائعات انتشار الروائح.. وقد تأكد لدى الجميع أن نجاحاً سوف يطيح بجميع الرؤوس الكبيرة.. وستكون له السطوة وحده وقد يصبح وزيراً كبيراً أو رئيساً للوزراء.. فالطاغية ليس له اصدقاء لأن الطغاة لا يعرفون معنى الصداقة!

والطاغية لا يملك من الانسانية سوى الشكل فقط أما داخله فغابة رهيبة يدوّي في فضائها صراخ الحيوانات المتوحشة والشريرة.. وتلك هي الغرائز المجنونة عندما تتمرّد على نظام العقل وحكمته.

وعندما يغيّب الكرى ذلك الجزء العاقل الرقيق من النفس الذي يتولّى التحكم في الجزء الآخر، ينطلق الجزء الحيواني المتوحش في النفس من عقاله مثقلاً بالطعام والشراب، فينفض عن نفسه النوم، ويبحث عن مجال نشاطه، ومتنفس لشهواته، والنفس ها هنا لا تخجل من شيء قط، كما لو كانت قد تخلّت عن كل حياء، فلا تتردد في ارتكاب أية جريمة»[٢٤٣].

والطاغية مخلوق يخرج من أهاب الانسان ويندفع نحو اشباع رغبات مجنونة حيث تشتد هستيريا الهوى النفسي في ارضاء الرغبات المتطرّفة، ويغدو الطاغية في سلوكه مخلوقاً يجمع بين صفات السكير والمجنون حيث يحلّ اللاشعور مكان الشعور الانساني النبيل.

وفي ذلك الصباح الباكر كان المتوكل قد تحفز في أعماقه الذئب البشري مع شهوة جامحة للافتراس.. أنه بحاجة إلى المال.. المال الكثير لبناء مدينته.

قبل أن يصل نجاح بن سلمة القصر ويجتمع بالمتوكل كان عبيدالله بن يحيى وزير البلاط قد دخل على الطاغية قائلاً باستخذاء:

ـ يا أمير المؤمنين! أراد نجاح الآ يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلاّ أوقع به.. فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين؟!

نظر الطاغية إلى وزيره باحتقار ولعلّه قال في نفسه، أية أعمال أيها التافه؟!

أدرك الوزير أن المتوكل لن يصغي إلى مثل هذا الكلام فغيّر من لهجته قائلاً:

ـ ان الحسن وموسى يوافقان على دفع المال المطلوب.. وهذه رقعة بخطيهما.

ـ كم يدفعان؟

ـ مليوني دينار.

ـ ....

ـ انهما على استعداد أيضاً لدفع مبلغ آخر يقرب مما ضمنه لك نجاح.

ـ حسناً.. وهل يضمنان ذلك؟.

ـ سأفكر بالأمر.

وغادر الوزير المكان، وسرعان ما وصل نجاح ليجد أمامه في البهو الرجلين اللذين سيلقى القبض عليهما بعد لحظات.. لكنه فوجيء بالوزير يمنعه من الدخول على المتوكل قائلاً له باحترام متكلّف:

ـ انتظر يا أبا الفضل.. تفضل هناك ريثما آخذ لك أذناً بالدخول..

وعندما ولج نجاح إحدى الغرف قال الوزير للرجلين مرهباً ايّاهما:

ـ إذا اجتمع بالمتوكل فمعنى ذلك نهايتكما.

وقبل أن يتكلما استطرد الوزير بحذر:

ـ اكتبا رقعة تضمنان للمتوكل دفع المال المطلوب..

ـ ومن أين نستطيع ذلك؟!

قال الوزير وهو يصرّ على أسنانه وينظر إلى الغرفة التي ينتظر فيها نجاح:

ـ أنا أعرف كيف سنحصل عليه!

وفيما كان موسى وابن مخلد يهيئان رقعة جديدة ويوقعان عليها اتجه الذي يفوق الحرباء في تلوّنها.. قال لنجاح بلهجة فيها قدر من النصيحة:

ـ يا نجاح! أشير عليك بأمر لك فيه صلاح.

قال نجاح:

ـ ما هو؟

ـ اصلح علاقتك بهذين الرجلين..

ـ كيف؟ لقد اخبرت الخليفة بخيانتهما؟!

قال الوزير بخبث:

ـ وما الضرر من ذلك؟! اكتب رقعة واذكر انك كنت شارباً، وانك تكلمت بأشياء تحتاج إلى اعادة النظر فيها..

ـ ولكن هذا سيعود بالضرر علي!!

ـ لا تخف أبداً سوف اصلح لك الأمر.

ـ...

ـ ماذا تنتظر اكتب! اكتب بسرعة قبل فوات الأوان وانخدع نجاح فكتب رقعة ذكر فيها أنه كان سكراناً وأنه كان يهذي الليلة الفائتة باشياء خطيرة.

عندما أمسك الوزير بالرقعة ودخل على الطاغية كان قد حسم الموقف تماماً قال وهو يضرب ضربته القاتلة:

ـ يا أمير المؤمنين لقد تراجع نجاح عما قاله البارحة.. وهذه رقعته بخطه وتوقيعه.

ثم ناوله رقعة أخرى:

ـ وهذه رقعة موسى والحسن يتقبلان بما كتبا فتأخذ منهما ما ضمناه ثم تعطف عليهما فتأخذ منهما قريباً مما ضمن لك نجاح عنهما.

صفق الخليفة مبتهجاً.. وهتف منتشياً:

ـ ادفعه اليهما..

طغت البهجة على تصرفات المتوكل ولم يكن ليهمه «نجاح» ولم يشعر بأية وخزة وجدانية للمصير الأسود الذي سوف يلاقيه كاتبه على أيدي ذئاب التعذيب..

انه على استعداد على أن يرتكب أية جريمة دون أن تطرف له عين.. بل أنه على استعداد أن يذبح ابنه المنتصر إذا شعر بأنه ينافسه أو يترفّع عن سلوكياته.

لقد اصبح يمقت ابنه لسبب واحد هو أنه قد اصبح رجلاً ذو كرامة.. رجلاً شريفاً ذو روح عالية وشخصية مستقلة.. ان ابناً بهذه الصفات محكوم بالموت من قبل الطاغية لأنه ينافسه في

السيادة أنه متأكد من أن ابنه لم يكن هكذا ولكنه تأثر بشخصية ابن الرضا.. آه لشدّما يمقته! انه المصدر الوحيد للخطر!

انه الوحيد الذي استعصى عليه ارهابه واخضاعه؟

وهكذا سيق نجاح ذليلاً، وقد استسلم لمصيره الرهيب وتبادل موسى مع صاحبه النظرات.. هذا الذي اراد اقتطاف رأسينا قد وقع في قبضتنا.. كما العنكبوت تقع في شراك بيتها اسيرة!

وقبل الضحى كان قد تم القاء القبض على «أبي الفرج» ابنه أمّا ابنه الآخر فقد استطاع الهرب، كما القي القبض على مساعديه: «اسحاق بن سعد» و«ابن البواب»، وصودرت قصور الجميع وأملاكهم في سامراء وبغداد، وتعرّض نجاح إلى تعذيب وحشي من قبل موسى بن عبدالملك وصدر أمر من قبل المتوكل شخصياً بتغريم اسحاق بن سعد واحداً وخمسين ألف دينار ادعى.. الخليفة ان سعداً هذا كان مساعداً لعمر بن فرج زمن الواثق وأنه أخذ منه خمسين ديناراً رشوة حتى يستطيع استلام مرتبه(٢٤٤).

ولم يصمد نجاح تحت التعذيب، واعترف مع ابنه باختلاس أموال تصل إلى مئة وأربعين ألف دينار، واعترف اسحاق بخمسين الف دينار.. ولقي نجاح حتفه تحت التعذيب الوحشي، كما القي القبض على ابنه الهارب، وتمّ ترحيل جميع أفراد اسرته من سامراء في ظروف سيئة وامتدت حملة المطاردة والاعتقالات لتشمل كل من له صلة بنجاح من قريب أو بعيد والقي بعضهم في السجون.

وكان الاستجواب والتحقيق والتعذيب قد تم في ديوان الخراج حيث يمارس موسى بن عبدالملك وظيفته الرسمية.

وفي صباح بارد توجه موسى بن عبدالملك إلى قصر المتوكل واطلاع البلاط على وفاة المتهم اثناء جلسات الاستجواب والتحقيق(٢٤٥)!!

وتلقى الطاغية الخبر بأسف شديد لأنه لم يتم استحصال المبلغ المطلوب ولذا أكد على وزيره ان يستحصل المبلغ الذي ضمناه بأسرع وقت.

كما اصدر تعليماته بتعيين الوزير ابن يحيى مسؤولاً على ديوان التوقيع بدل نجاح(٢٤٦).

وتلقى الناس الانباء العجيبة بذهول لأنها جاءت عكس التصوّرات السابقة.

وسئل «أبو العيناء» الذي كان يتردد في تلك الأيام على قصر الخليفة عن مصير نجاح فقال:

ـ وكزه موسى فقضى عليه(٢٤٧).

وانتشر التعليق الساخر مع الاخبار والشائعات حتى وصل مجلس المتوكل في نفس اليوم قبل أن تبدأ حفلته المسائية.

واقترح أحدهم على الخليفة الذي ضحك للتعليق الساخر أن يضمّ أبا العيناء إلى شلّة الندماء فقال:

ـ لولا أنه أعمى لنادمته(٢٤٨)..

وفي تلك الليلة عبّ المتوكل عشرة أرطال من الخمر حتى ثمل وراح يهذي بأشياء كثيرة ولكن الوزير سمعه مراراً، يهتف:

ـ ردّوا علي كاتبي وإلاّ فهاتوا المال[٢٤٩].

وفي الصباح وعندما وقعت عينا موسى بن عبدالملك على ابي العيناء تهدّده بالعقاب الشديد... فقال الشاعر الساخر:

ـ يا موسى أتدريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟!

وضحك الناس المجتمعين عند بوابة القصر فيما ألهب موسى ظهر حصانه بالسوط وقد توهجت عيناه بالشرّ.

الفصل الثلاثون

لاح هلال محرّم حزيناً، كقارب يبحر في سماء تنوء بغيوم نيسان الرمادية[٢٥٠].

وفي هذا الشهر الذي يحرص فيه المؤمنون على زيارة كربلاء للتبرك بزيارة ريحانة النبيo، فإنّ الشرطة تكثف من مراقبتها في الأرض التي اصبحت زراعية منذ عقد من الزمن.

غير أن بعض الزائرين قد وضعوا علامات تساعد الذين يحجون لتلك البقعة الطاهرة حيث هوى الحسين شهيداً قريباً من شطآن الفرات.

وبالرغم من أن كثيراً من المؤمنين كانوا يحرصون على زيارة المكان ليلاً ولكن الشرطة كانت تلقي القبض على بعضهم وتزجّهم في سجن «المطبق» الرهيب.

وبرز في تلك الظروف الرهيبة أدلاء يعرفون طرق التسلل بعيداً عن عيون المفارز المسلحة[٢٥١].

وكانت العلامة الأكيدة في ذلك الوقت انبعاث رائحة طيبة منعشة حيّرت حتى العطارين[٢٥٢].

وانتشرت حكاية ذلك الاعرابي من بني أسد الذي استطاع اكتشاف البقعة الطاهرة بعد أن عفى أثرها فكان يأخذ قبضة من التراب فيشمّها وهكذا إلى أن انتهى إلى المكان الطاهر فأخذ بقعة وشمّها، فاذا هي تفوح عبيراً.. فبكى وغمغم قائلاً:

ـ بأبي أنت وأمي ما أطيبك؟ وأطيب تربتك.

ثم راح يدندن:

أرادوا ليخفوا قبره عن وليه وطيب تراب القبر دلّ على القبر[٢٥٣]

وفيما كان الناس خاصّة في الكوفة وبغداد وحتى سامراء يشدون الرحال إلى كربلاء سرّاً وعلانية... انتشرت في العاصمة اخبار عن نيّة الخليفة الانتقال إلى قصره الجعفري والاستعداد لإقامة احتفالات كبرى بهذه المناسبة.

لا أحد يدري لماذا انتخب الطاغية يوم «عاشوراء» موعداً[٢٥٤] لتدشين قصره الجديد وتوزيع إقطاعيات المدينة الجديدة التي تم تخطيطها نهائياً.

ومن أجل الاسراع في انجاز بناء المدينة في وقت قياسي فقد تقرّر تكليف اصحاب الاقطاعات من قصور ومنازل بمسؤولية تنفيذها بعد منحهم نفقات البناء[٢٥٥] وهي نفس فكرة المعتصم في بناء سامراء قبل ستة عشرة عاماً[٢٥٦].

لقد ابرز المتوكل كل عقده كطاغية في قصره الجديد فكان من الابهة والفن في العمارة والبناء ما يعتبر اعجوبة الزمن..

ولكن هل يدوم بناء نهض على الجماجم والدماء؟

ودخل الطاغية ماخورته[٢٥٧] وهو ظالم لنفسه..

النفوس الضعيفة تنخدع بالظواهر الخلاّبة... ولا شك أن قصر الجعفري الذي اشتق من اسم الخليفة كان من العلوّ الشاهق بحيث بدت منارة الملوية ضئيلة بالقياس إلى ارتفاعه الشاهق.

بدت الاستعدادات للاحتفال منذ الغروب، وكانت نسائم نيسان المنعشة وهي تهب من النوافذ المشرعة مفعمة برائحة الورود الربيعية..

كانت الدعوة عامة للجميع واعدّت منصّة في حدائق القصر وفتحت بوابات القصر من كل الجهات حتى البوابة المطلة على نهر دجلة.

كانت الحدائق تتلألأ بأضواء القناديل والشموع... وتدفق أهالي سامراء إلى القصر

الاعجوبة حتى أقفرت المدينة[٢٥٨] ولم يبق في سامراء إلاّ الذين لا يرون في هذا القصر المشؤوم سوى الخرائب والدمار والمزيد من الضرائب والقهر والدسائس والمؤامرات والطغيان... والمزيد من الفساد والخلاعة والانحطاط.

والقى الطاغية نظرة تصفح فيها الحاضرين من علية القوم وأثار حنقه غياب ابن الرضا واعتبر ذلك اهانة لسيادته وتحدّياً لسطوته وجبروته!

بدأ الاحتفال بقصيدة الشاعر البحتري فراح يتمايل وهو يشدو:

قد تم حسن الجعفري، ولم يكن ... ليتم إلاّ بالخليفة جعفر

ملك تبوأ خير دار أنشئت ... في خير مبدى للأنام ومحضر

في رأس مشرفه حصاها لؤلؤ ... وترابها مسك يشاب العنبر

مخضرّة والغيش ليس بساكب ... ومضيئة والليل ليس بمقهر

ظهرت لمختـرق الشمال وجاورت ... ظلل الغمام الصائب المتغزر

فرفعت بنياناً كأن منـاره ... أعلام رضوى أو شواهق صبر

ازرى على همم الملوك وغض من ... بنيان كسرى في الزمان وقيصر

عال على لحظ العيون كأنما ... ينظرن منه إلى بياض المشتري

ببانيه باني المكرمات وربّه ... رب الاخاشب والصفا والمشعر

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت ... شرفاته قطع السحاب الممطر

وتسير دجلة تحته ففناؤه ... من لجّة غمر وروض أخضر[٢٥٩]

ثم تلا ذلك فقرات غنائية وبعدها أدى المهرجون بعض الملاهي المضحكة [٢٦٠]وقام المشعوذون بحركات مدهشة أثارت ابتهاج المتوكل الذي وهب الجميع ٢/٠٠٠/٠٠٠ درهم جوائز وهدايا[٢٦١].

وحزّ في نفس المنتصر الذي حضر الاحتفال هذا الاسراف والتبذير كما أثار غضبه أن والده كان يعامل أخاه التافه بطريقة يفهم منها الجميع انه الابن المدلل وربّما الخليفة في المستقبل.. وسُفحت مئات الدنان من الخمر.

ولم تكن والدة المتوكل سعيدة بالاحتفال بل أنها انسحبت من المكان المخصص لنسوة القصر... اما أم المنتصر فلم تسكن القصر بالمرّة وفضلت البقاء في الجوسق الخاقاني ولم تكن راضية بطبيعتها المتدينة عن تصرفات زوجها خاصّة معاملته القاسية والمذلّة لابنها[٢٦٢].

وقال المتوكل لأبي العيناء:

ـ ما رأيك بالجعفري؟

قال الشاعر:

الناس يبنون قصورهم في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في قصرك؟

وفي اليوم التالي كان بلاط القصر يعجّ برواة الحديث وكأنهم يتبارون بنقل الحديث وحفظ الاسانيد الطويلة... يقف أحدهم فيجر إسناداً طويلاً عن ظهر قلب: حدثني فلان قال حدثني فلان... التفت عبيدالله بن يحيى وقد برقت عيناه بالنذالة وهمس بخبث:

ـ الآن يمكنك أن تسدد ضربة لابن الرضا.

التمعت عينا الطاغية:

ـ كيف؟!

ـ تحضره الآن وتسأله عن تفسير هذه الآية: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني أتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا)[٢٦٣].

ـ ولماذا هذه الآية؟!

ـ لأنه يفسرها في الشيخين.

ـ حقاً؟!

ـ نعم يا سيدي.. احضره واسأله أمام أهل الحديث فإن فسّرها هكذا كفاك هؤلاء أمره.. وأن فسّرها بخلاف ذلك فهي فضيحة له بين أصحابه!

وتصور الطاغية أن الامام سيقع في الفخ المنصوب ويقضي عليه انتصاراً للسنة وسيكون مصيره كمصير عيسى بن جعفر بن عاصم الذي اعدم بتهمة شتم الخليفة الأول والثاني.

برقت عيناه وقال:

ـ ارسل وراءه فوراً!

وكان شيخ طويل اللحية ما يزال يلقلق بسند طويل لحديث مزوّر سخيف...

عندما وصل الامام كان البلاط يغص برجال الحديث واغلبهم على استعداد كامل لأن يشرب من دماء الشيعة والمعتزلة.

وهبّ المتوكل للقاء ابن الرضا فور ظهوره في البلاط.. القوام المربوع والوجه الاسمر المهيب.. وداهمه شعور بالضآلة لا يعرف مصدره... لماذا يتضاءل كلما التقى هذا الرجل العلوي الذي ظهر بعض الشيب في لحيته وهو في منتصف الثلاثين من عمره؟!

لقد مرّ اكثر من عشرة أعوام على احضاره إلى سامراء وفي كل مرّة كان يقرّر تصفيته ولكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة.. أمّا هذه المرّة فسوف يجعله بين انياب المحدّثين!!

عندما استقر بالامام الجلوس ينظر إلى جموع أهل الحديث تروي أحاديث لم يتفوه بها جدّه العظيم.. شعر بالحزن المرير لهؤلاء.. وكان أولى بهم أن يعرضوا الحديث النبوي على كتاب الله فأن وافقه أخذوا به وأن خالفه طرحوه.

فالقرآن الكريم وهو المعيار في سلامة الحديث وإلاّ كان مفتعلاً في زمن بني أمية لارضاء الخلفاء والسلاطين.

ورأى المتوكل الفرصة سانحة لتسديد ضربة لابن الرضا فقال:

ـ يا أبا الحسن ما تقول في تفسير قوله تعالى: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يالتني اتخذت مع الرسول سبيلا.. يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا)؟!

نظر الامام بعينين تشعان حزناً إلى عبيدالله الذي شعر بان اشعة نفاذة تغوص في أعماقه وتفضح ما يموج فيها من دسائس ومؤامرات..

واصغى الحاضرون لما سيقوله الامام وفيهم قضات ومسؤولون في الدولة.. قال الامام بهدوء وهو ما يزال يحدّق في وجه عبيدالله الذي علته صفرة شديدة:

ـ هذان رجلان كنّى الله عنهما، ومنّ عليهما بالستر، أ فيحبّ أمير المؤمنين أن يكشف ما ستره الله؟!

قال المتوكل على مضض:

ـ كلا.. لا أحب.

وهيمن صمت مهيب على المكان، سرعان ما كسره رجل من أهل الحديث انبرى ليجتر سنداً طويلاً ثم يختمه بحديث من انتاج الوضاعين والأفاكين!

الفصل الحادي والثلاثون

تمت ترقية الضابط التركي «باغر» واصبح شخصية لها نفوذها في البلاط وأصبح من حقه أن ينتخب بعض رجال الحرس لحماية الخليفة من أية محاولة للاغتيال.

وبالرغم من أن نفوذ القائد التركي القديم «وصيف» ما يزال قويّاً إلاّ أنه شعر بان هناك من يحاول الايقاع به، فالوزير بن يحيى لا يكف عن حبك الدسائس ضد كل من لا ينحني أمام «آل خاقان» الذين اصبحوا الحكام الحقيقين، فهناك ما يشبه الحلف بين أفراد الاسرة وزوجة الخليفة التي ما انفكت تخطط للسيطرة على الخلافة من خلال ابنها المعتزّ.

ولكنّ وصيفاً لن يقف مكتوف الأيدي ويتعين عليه أولاً أن يكسب «بغا» أو ابنه بأية طريقة!!

أما القائد «بغا» العجوز فقد كان واثقاً من مركزه فهو زوج خالة الخليفة[٢٦٤]. فزوجته هي اخت «شجاع» فهو إذن خال الخليفة!

كما أن ابنه موسى الذي يلقب بـ «بغا الصغير» أو بغا الشرابي هو ابن خالة الخليفة والمسؤول الأول عن حفلات المتوكل وهو الذي يقوده عندما يثمل من الشراب إلى مخدعه.

ولذا اصبح في مأمن من دسائس الوزير، ومع ذلك، فان المتوكل لا يمكن الركون إليه والوثوق به أبداً إنّه لم يعد يفكّر إلاّ بمنافعه الشخصية حتى لو كان ثمنها هلاك العباد ودمار البلاد.

كما أن بغا الكبير ظل يحافظ على هيبته العسكرية من خلال قيادته العامّة للجبهة الشمالية حيث الاشتباكات مع الروم تندلع بين فترة وأخرى في ظل ظروف متوترة دائماً ساعدت على تثبيت

مركز الخليفة وتبرير استبداده وعندما تهدأ الاوضاع في الجبهات يعود إلى سامراء خاصّة مع بدء المفاوضات لتبادل الأسرى والتي بدأت هذا العام بعد حلول شهر صفر(٢٦٥).

وفي كربلاء كان التوتر ينذر بوقوع انفجار خاصّة مع حلول شهر شعبان حيث يحرص الناس على زيارة البقعة المباركة حيث يرقد الحسين رمز الاباء والثورة على الظلم وعلى كل «يزيد» جديد.

فوجئت الشرطة بأعداد غفيرة تتدفق، يشكل سكّان الأرياف أغلبية ساحقة.

واصبح من الصعب مواجهة كل هذا العدد خاصّة وأنهم لم يأتوا مسلحين وانما جاءوا فقط لزيارة الحسين ابن بنت نبيهم وريحانته!

حاول قائد الشرطة منعهم من الاقتراب وحذرهم من عواقب ذلك ولكنه لمح في عيونهم اصراراً لا يمكن زحزحته، وسمع بعضهم يهتف:

ـ لو قتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منا عن زيارته.

ووجه القائد إلى سامراء رسالة سريعة يوضح فيها خطورة الوضع..

وجاء الجواب من الطاغية إلى القائد بالكف عنهم والمسير إلى الكوفة

والانكفاء إلى المصر(٢٦٦).

وكانت فكرة المتوكل تعزيز قواته العسكرية وضرب طوق كامل على المنطقة ومن ثم القيام بحرثها مرّة أخرى وطمس جميع المعالم التي قد تدل على القبر.

ولذا فقد رابطت قوّات عسكرية قرب النجف واكتفت بمنع زيارة مرقد الامام علي بن أبي طالب(٢٦٧).

وفي هذه الظروف الخطيرة أعلن الامام الهادي عن بعض الافكار المناقضة لسياسة الحكم الفكرية.. فقد اجتمع في منزله جمع غفير من الناس وفيهم علماء كبار.. واتخذ الاجتماع صبغة التحدّي للطاغية الذي يريد للأمة أن تستحيل إلى قطيع من النعاج لا يعرف غير الطاعة حتى لو ساقها إلى المسلخ!

وكان واضحاً تماماً أن الامام سوف يجيب على أي سؤال فكري دون تردد..

وكان السؤال الحساس والخطير حول امكانية رؤية الله سبحانه!! فجاء الجواب حاسماً:

ـ لا يجوز الرؤية ما لم يكن بين المرئي هواء ينفذه البصر فإذا انقطع الهواء، وعدم الضياء بين الرائي والمرئي لم تصحّ الرؤية.. وكان في ذلك الاشتباه لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان في ذلك التشبيه لأن الاسباب لابد من اتصالها بالمسببات»(٢٦٨).

ان الجهاز البصري انما يرى الاشياء من خلال الضوء والهواء وفي انعدامها تستحيل الرؤية.. والضوء والهواء من الممكنات المحدودة فكيف يمكن أن يكونا وسيلة لرؤية القوّة التي ابدعتهما وابدعت غيرهما.

كما ان الرؤية تستلزم المساواة بين الرائي والمرئي، ولذا صعق موسى النبي عندما أراد رؤية الله:

قال: ربّ أرني أنظر اليك؟

قال: لن تراني... ولكن انظر إلى الجبل فان استقرّ مكانه فسوف تراني.

فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا، وخرّ موسى صعقاً!

فلما أفاق قال: سبحانك.. تبت اليك وأنا أول المؤمنين»(٢٦٩).

وسأل آخر:

ـ هل ان الله جسم؟

وغمرت الامام حالة من غضب مقدس فقال:

ـ ليس منا من زعم ان الله عز وجل جسم، ونحن منه براء في الدنيا والآخرة..

يا بن أبي دلف ان الجسم مُحْدَث والله محدثه ومجسّمه»(٢٧٠).

ان من يقول بتجسيم الله انما ينفي عنه الأزلية...

تساءل ابن أبي دلف:

ـ ولكن هشام بن الحكم(٢٧١) كان يقول بالتجسيم؟!

ـ مالكم ولقول هشام.. سبحان من ليس كمثله شيء لا جسم ولا صورة(٢٧٢).

وسأله آخر:

ـ هل يمكن وصفه سبحانه؟

ـ ان الخالق لا يوصف إلاّ بما وصف نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه والابصار عن الاحاطة به؟!

جلّ عما يصفه الواصفون، وتعالى عمّا ينعته الناعتون..

نأى في قربه وقرب في نأيه..

فهو في نأيه قريب.. وفي قربه بعيد.

كيّف الكيف.. فلا يقال له كيف؟

وأيّن الأين.. فلا يقال له أين؟

إذ هو منقطع الكيفية والأينية..

هو الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد(٢٧٣).

وتساءل شيخ تبدو عليه سيماء الإيمان:

ـ ماهي حقيقة التوحيد؟

أجاب الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب:

ـ أن نعتقد أن الله لم يزل وحده لا شيء معه، ثم خلق الأشياء بديعاً، واختار لنفسه الأسماء، ولم تزل الأسماء والحروف معه قديمة..»[٢٧٤].

ومن خلال النافذة أرسل الأمام نظرات ملؤها الحزن والخشوع وهو يحدّق في الأفق

البعيد ويتمتم بخشوع:

ـ الهي تاهت أوهام المتوهمين.

وقصر طرف الطارفين.

وتلاشت أوصاف الواصفين.

واضمحلّت اقاويل المبطلين.

انت في المكان الذي لا يتناهى..

يا أولي.. يا وحداني.

يا فرداني..

ودمعت عيون البعض خشوعاً لله رب العالمين.

غير أن هناك بعض العيون الزجاجية كانت تراقب بقسوة كل ما يجري.. انها عيون الجواسيس الذين لا يفقهون شيئاً مما يسمعون فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

الفصل الثاني والثلاثون

كانت فكرة المتوكل من وراء بناء مدينته الجديدة لا تنحصر فقط في اشباع رغبته المجنونة في بناء القصور فهناك أهداف أخرى أيضاً..

فالبناء يتطلب أموالاً كبيرة، والمطلوب من حكام الولايات توفير هذه المبالغ الخيالية.. وسوف يقود هذا إلى ارتفاع الضرائب، وارتفاع الضرائب سيقود إلى افقار الناس، الذين سيضطرون إلى العمل ليل نهار من أجل الحصول على رغيف الخبز.. وعندها لن يكون لديهم الوقت الكافي للتفكير في سياسة الحكم أو التأمر على الطاغية.

ثم أن المدينة الجديدة قد منحها نفس لقبه: «المتوكلية» وشاعت لدى الناس باسمه: «الجعفرية»، وسيسكنها عُلْية القوم أو بعض الشخصيات التي قد تهدّد مركزه فيسهل حينئذ مراقبة الجميع ولن يكون بمقدورهم بعد اليوم الاتصال بالشعب... أما الجواسيس فستكون لهم مهمتهم القديمة: تدمير روح المواطنين وانعدام الثقة بينهم.

من أجل هذا خصص المتوكل قطعة من الأرض للإمام أبي الحسن الهادي ليبني فيها منزله[٢٧٥] وبهذا سوف يعزله عن الناس وتسهل مراقبته جيداً، ولذا اصدر أوامره بمنح الامام ثلاثين ألف درهم[٢٧٦] لتشييد منزله في المتوكّلية واخلاء منزله في سامراء بأسرع وقت... وسيكون الامام الهادي بعد نهوض منزله الفخم الجديد في نظر الكثيرين من الناس انساناً مثل الآخرين... انساناً ثرياً قد لا يختلف عن اصحاب النفوذ من العباسيين وربما حتى القادة العسكريين الاتراك!

ان الذين يعرفون المتوكل قبل أن يصبح خليفة، سوف يصعقون وهم يشاهدونه في صورته الجديدة طاغية كبير ثبّت حكمه من خلال اساليب رهيبة جداً.. جواسيس كبار لا يعرفهم المرء فقد يكون الجاسوس خادماً صغيراً أو جارية حسناء، وربما كان شحاذاً متسولاً في سامراء!

كان المتوكل قبل أن يتسلم زمام الحكم شاباً مائعاً بشعره الطويل، الذي يشبه شَعْر المرأة[٢٧٧] وكانت تلوح عليه ملامح المخنثين!!

فأين يكمن يا ترى سرّ كل هذا الإرهاب؟ وكيف تفتق هذا الانسان الوضيع عن طاغية رهيب؟!

ان الاشباح التي يخشاها المرء في الظلام ليس لها وجود إلاّ في رؤوس الخائفين الذين يتصوّرون خشخشة الأشواك شياطين سوف تنقضّ عليهم..

وكذلك الطغاة انهم ليسوا مرعبين بذاتهم... ان صورهم المرعبة لا توجد إلاّ في اعماق النفوس الخانعة المتسلمة للذل من أجل الحياة..

من أجل هذا يحقد المتوكل على «الحسين» بعد أن استحال رمزاً يتألق مجده كلما ظهر «يزيد» جديد.

ومن أجل هذا اقدم الطاغية على تدمير قبة الحسين ومرقد الحسين وسوّى القبر بالتراب... من أجل أن يحطم روح العزّة والاباء في نفوس ابناء شعبه ورعاياه.

ولم لا يكون المتوكل مرعباً ومخالبه تنشب في كل مكان يريد.. وها هي الاخبار تصل عن اغتيال الشاعر المشرّد دعبل الخزاعي في قرية نائية قريباً من «سوسة»[٢٧٨].

لقد انتهت حياة الشاعر الذي يعد أول من وصف المتوكل بالذئب.

ها هو الآن يرقد في اعماق الثرى الذي يضم بين حناياه رفات الأنبياء.

لقد ظلّ يحمل معه صليبه عشرات السنين متشرّداً في المدن الخائفة[٢٧٩].

تدفق آلاف العمّال إلى شمال سامراء للعمل في المدينة ليل نهار، وكان ١٢/٠٠٠ عامل ينهمكون في شق تفرع نهري شمال «المتوكلية» لتأمين مياه الشرب وملء الأحواض وامداد النافورات بالمياه الكافية.. ولكن «المهندس دليل» قد بدأت تساوره الشكوك في نجاح المشروع بسبب صلابة الارض بعد أن باتت معاول العمال تعجز في تفتيت الصخور والحصى كلما أمعنوا في الحفر وقد تجاوزت نفقات الحفر اكثر من ١/٥٠٠/٠٠٠ دينار دون أن يبشر النهر بخير.

وكانت جدران القصور والمنازل في المدينة الجديدة قد بدأت ترتفع ابتداءً من القصر الجعفري الذي يربض في الشمال، وباتجاه الجنوب الشرقي حيث يوجد قصر «بركوارا»، قصر الامير المدلّل «المعتز» وولي العهد المرشح للخلافة في الوقت الحاضر... بعد أن وصلت العلاقات بين المتوكل وابنه «المنتصر» إلى أردأ مستوى، وليس هناك ما يمنع وقوع الانفجار سوى «أم المتوكل» التي لا تخفي تضامنها مع حفيدها، ولكنها الآن قد شاخت كثيراً، وباتت تخطو خطواتها الأخيرة نحو الحفرة التي تكمن في طريق البشر، وفي مكان ما من الطريق!

وفي تموز سنة ٨٦٠م ربيع الثاني سنة ٢٤٦هـ توفيت «شجاع» ورتب لها تشيع من القصر الجعفري وحتى المسجد الجامع حيث ستوارى الثرى... ولأسباب غير معروفة لم يحضر الخليفة الصلاة فقام المنتصر بالصلاة على جثمان جدّته التي دفنت عند المسجد الجامع[٢٨٠].

وفي شعبان توترت الأجواء في بغداد والكوفة وفي كربلاء وحتى في سامراء..

وأصبحت «زيارة الحسين» في هذا الشهر المبارك وقبل حلول الشهر الكريم هاجس الكثيرين..

وكالمعتاد ضاعفت الحكومة قوّاتها العسكرية في الطرق المؤدية إلى الأرض المباركة حيث هوى الحسين شهيداً.

فرضت الحكومة هذه المرة غرامات مالية ثقيلة يدفعها الزائر لكي يمكنه التوجه إلى كربلاء، وكان بعض المؤمنين قد وضع علامات تحدد مكان القبر(٢٨١).

وبالرغم من وحشية الإجراءات إلاّ أن سيل الزائرين لم ينقطع، ووقعت بعض الحوادث المؤلمة واعتقل كثير من الزوار سيقوا إلى سجن المطبق الرهيب في بغداد.

وبسبب كثرة الزوّار وازدحامهم وارتفاع أصوات الذين يبكون لمظلومية سبط النبيo.. شعر الطاغية بالخطر فأرسل تعزيزات من الجيش.

وهناك قُرأ انذار شديد اللهجة يهدد بالموت كل من يقترب من القبر(٢٨٢).

كانت الغيوم تتحشد في السماء.. غيوم حزينة كابية تجسد بمرارة حزن الخريف وظل القمر قابعاً خلف السحب.. وفي نهاية الاسبوع الثالث من شعبان تدفقت الغيوم مطراً غزيراً.. لكأن السماء تبكي، وأضحت السماء من شمال بغداد وحتى جنوبها عند كربلاء ملبّدة بالسحب الداكنة.. واستمر المطر يهطل بشكل متواصل تخف زخاته وتشتد.. حتى أن أهل بغداد لم يروا هلال رمضان بسبب كثافة الغيوم فصاموا باستهلال المدن القريبة..

ولم تكفّ السماء عن البكاء إلاّ في منتصف شهر رمضان المبارك وظهر القمر نديّاً تحيطه هالة من النور; وظهرت السماء زرقاء صافية بعد واحد وعشرين يوماً من المطر(٢٨٣)، ولكن الأفق الغربي لم يزل يحتضن بعض نتف السحب الرمادية.. وفي بغداد نبت العشب فوق الأجاجير(٢٨٤) ولكن ما أثار الدهشة ذلك الخريف أن السماء أمطرت دماً عبيطاً في «بلخ»(٢٨٥)!!

وقبل أن يظهر هلال شوّال أحيط أهالي سامراء بأن صلاة «عيد الفطر» سوف تقام في العاصمة الجديدة ولذا يتعين على الجميع الحضور مع طلوع الشمس وكانت رياح كانون الأول تبشر بشتاء قارس طويل.

لم يحضر الخليفة في الوقت المناسب وكانت الجموع الغفيرة التي قطعت اربعة أميال بين سامراء والمتوكلية قد ساورها حزن مكبوت بسبب جبروت لا ينفك الخليفة تجسيده في تصرّفاته..

وفيما كانت الجموع تنفضُّ للعودة والابتهاج بالعيد السعيد كان المتوكل في طريقه إلى

أحياء المتوكلية.. وقد ظهرت بعض القصور والمنازل.. ولفت نظره منزل الامام الذي لم ترتفع أسسه إلاّ اشباراً معدودة... وانفجر بركان غيظ وحقد والتفت إلى وزيره الذي اصبح مركزه قويّاً وراح يتهدد:

ـ إذا جئت مرّة أخرى ورأيت البناء لم يرتفع فسأقتله.. وسأحرقه..

وراح المتوكّل يتشظى غيظاً وهو يؤكد تهديداته بالقسم.

قال الوزير محاولاً اشباع رغبته إلى التملّق:

ـ يا أمير المؤمنين.. لعلّه في ضائقة.

ـ ارسل إليه عشرين ألف درهم!

وفي الضحى من نفس اليوم كان احمد بن عبيدالله يحمل المبلغ في طريقه إلى سامراء وقال ابن الوزير:

ـ ان والدي أرسل اليك هذا المبلغ لإنفاقه على البناء، وأمرني أن ابلغك ما حدث.. ان الخليفة يهدد ويتوعد ويقول إذا ركب إلى البناء مرّة أخرى ولم يره قد ارتفع فسوف يقتلك.

قال الامام بهدوء وقد تألّقت عيناه بحزن سماوي.. لكأنه ينظر إلى المديات البعيدة:

ـ «إن ركب إلى البناء»(٢٨٦).

وعلّق الوزير وهو يستمع إلى تقرير ابنه:

ـ إذن لن يركب الخليفة إلى البناء(٢٨٧)..

تساءل الابن:

ـ كيف؟!

ـ انني يا بني أعرف هذا العلوي أنه يقول أشياء عجيبة... لكأنه ينظر إلى صفحات الغيب ويقرأها سطراً سطراً.

وفي منتصف شوّال بدأت رياح كانون الثاني بالهبوب تبعثر أوراق الاشجار التي استعصى قلعها على الخريف، وتصاعدت وتيرة الحفلات في قصر الجعفري حفلات تسفح فيها القيم الأخلاقية أمام عربدة غرائز مجنونة لا تعرف الشبع، ويمكن القول أن المتوكل الذي أدمن بشراهة الخمر قد اصبح في سكر دائم وبدا القصر الكبير بمساحته الواسعة وغرفه الكثيرة يستحيل إلى بيوت عناكب.. وقد استعرت حمى الدسائس.

واحس القائد التركي «وصيف» بأن مؤامرة خطيرة تستهدفه وأن الفتح بن خاقان ومعه أسرته المتنفذة والمسيطرة على شؤون القصر سوف توجه له ضربة قاضية، وأن زوجة الخليفة النهمة التي يسيل لعابها للمال تتطلّع مع آل خاقان لنهب ثروته!!

عليه أن يبادر قبل فوات الأان!!

وفي جنح الليالي المظلمة كانت رقاع مكتوبة بعناية فائقة ترمى في هذه الغرفة أو تلك أو تسقط بطريقة ذكية في طريق بعض موظفي القصر الكبار.

وقعت في يد القائد بغا عدة رقاع كلّها تشير وتؤكد نوايا المتوكل بالحدّ من نفوذه ومصادرة بعض ممتلكاته بل وحتى قتله بصورة سرّية(٢٨٨) وتزامن ذلك مع وقوع رقاع أخرى في يد المتوكل ورئيس وزرائه تحذر من حركة عسكرية سيقودها بغا ضد الخليفة الذي زادت هواجسه فأمر بمراقبة «بغا» من بعيد.

كما تكثفت المراقبة لمنزل الامام في سامراء، وكان الجواسيس يضخمون من الحوادث الصغيرة بحيث يتحول لقاء صغير بين الناس والامام إلى تقرير خطير يحذر من احتمال جمع الإمام للرجال استعداداً للثورة!

أما المنتصر فقد اصبح هاجساً ثقيلاً لدى المتوكل، الذي كان يستغل المناسبة وغير المناسبة للحط من شأنه والتنكيل به وإذلاله(٢٨٩).

وبات الجميع يدركون أن الحكم قد أصبح بيد آل خاقان ومن ورائهم زوجة الخليفة ذات النفوذ المتفاقم.

وبدأت اجهزة البلاط تخطط بشكل جنوني لتعزيز مركز المعتز على حساب أخيه(٢٩٠).

وقد دفع هذا الوضع «بغا» و«وصيف» إلى الالتفاف حول المنتصر ولو من بعيد والتضامن معه بشكل سرّي، والاستفادة منه باعتباره الوريث الشرعي للخلافة بعد أبيه.

الفصل الثالث والثلاثون

الرياح الشتائية تنتحب وهي تقطع المسافات بين قصر الجعفري الرهيب وحتى سامراء، على امتداد الطريق العريضة... حيث تنهض منازل حديثة وقصور منيفة..

الرياح تجوس الأزقة الغارقة في الظلام، وقد غاب القمر في المحاق.. ومازاد الظلام رهبة الغيوم الكثيفة وهي تقطع السماء الكحلية بسرعة كسفن هزمت في معركة ضارية.

ومن خلال نوافذ القصر الجعفري المتوهجة بالأضواء يحدس المرء بذخ الليلة الساهرة التي أحياها الطاغية.. وكانت أصوات ناعمة وأخرى مخنثة متقطعة يمكن للمرء أن يسمعها لو أصاخ السمع قليلاً.

الطاغية الذي تمدد مسترخياً متكئاً على ساعده الأيسر يرتشف متلذذاً خمرة معتقة، وكانت الكؤوس تدور على الحاضرين وفي طليعتهم وزير البلاط عبيدالله بن يحيى، وبعض الندماء، ابن الحفصي، سلمك، عثعث، سليمان الطبال، حشيشة، ابن القصار، صالح الدفاف، ومن المطربات، عريب، سراب، عرفان، نجلة، فريدة(٢٩١)، فيما انفردت محظيته «محبوبة» بمكان مرموق(٢٩٢) وقد بد أباغر التركي وهو قائم خلف السرير الملكي عملاقاً اسطورياً.

وانتشى المتوكل منفعلاً مع انغام الموسيقى وغناء المطربات... وفي صمت كان موسى بن بغا الكبير المعروف بـ «بغا الشرابي» يراقب الخليفة إذ يتعين عليه انهاء السهرة إذا ثمل الخليفة، أو إذا تجاوز في شربه سبعة أرطال من الخمر.

كؤوس الخمرة تدور، وتدور معها رؤوس غادرتها العقول.

الخمرة مياه آسنة تطفىء وهج العقل... ذلك القبس السماوي الذي يمنح الانسان هوّيته.

ليس هناك ما هو أخطر من طاغية يستحيل إلى عبد خانع.. عبد لشهواته وغرائزه المجنونة.. وعبد لمخاوفه وهواجسه.. انه يجد نفسه وحيداً في صحراء قاحلة.. ليس لديه اصدقاء.. لديه فقط أعوان قد يقومون باغتياله لأنهم اناس أوغاد بطبعهم..

أنه يشعر بالحاجة اليهم.. مضطرّاً إلى تملّقهم.. من أجل هذا كان المتوكل مضطرّاً

لارضاء أُسرة خاقان التي تفاقم نفوذها بشكل سرطاني..

إنّ كل ما يجري حوله يشعر به من خلال رئيس وزرائه الفتح بن خاقان أو وزير البلاط عبيدالله بن يحيى بن خاقان.. انه مضطر أيضاً لارضاء زوجته التي لا حدود لاطماعها ومضطرّ إلى أن يفعل كل شيء من أجل عرشه..

أنه يخشى غضب الشعب الذي ينوء تحت وطأة ضرائب تقصم الظهر.. انه مضطر لافقار الناس حتى لا يفكروا بشيء سوى الحصول على رغيف الخبز.. انه مضطر.. مضطر لأن يخضع لقوى عمياء تحيله إلى عبد.. نذل.. وغد.. ذئب.. طاغية.. يسعى إلى أن يجعل من أمته قطيعاً ذليلاً من النعاج..

يلتهم لحومها.. يرتدي أصوافها ويتلذذ بشرب البانها ثم يرمي عظامها بعيداً!!

ولكن ما يثير رعبه وجود الأحرار ذوي الكرامة الذين يترفعون عن الخضوع.. التذلل.. الخنوع..

أنه يجعلهم تحت رقابة خانقة.. فيقتلهم مع أول تقرير تنقله إليه كلابه المسعورة..

وربّما انتابت الطاغية هواجس مرعبة وهو في حالة سكر فتقفز بعض مخاوفه الرهيبة فإذا به يصدر أمراً إلى جلاوزته الأوغاد بمداهمة رجل كريم في قلب الظلام.. وهذا ما حصل تلك الليلة الشتائية عندما استكمل المتوكل شرب ثلاثة أرطال من الخمر..

وفي منتصف الليل وفيما كانت الرياح الشتائية تهب من صوب الشمال شهد درب الحصا هجوم عصابات الليل.. وخليطاً من أشباه الرجال فيهم أتراك غلاظ وزنوج وأجلاف من قبائل الخزر.. فجاسوا خلال الحجرات..

كان الامام يرتدي ملحفةً من الصوف مستقبلاً جهة الجنوب يتلو بحزن آيات من القرآن في حجرة خالية:

ـ «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً..

وجعل فيها سراجاً..

وقمراً منيراً..

وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكرَ

أو أراد شكورا..

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً..

وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما..

والذين يبيتون لربّهم سجداً وقياما(٢٩٣).

واقتحم الأوغاد الحجرة.. ليقطعوا تراتيل الآيات... ليوقفوا النهر السماوي الخالد..

لم يكن في الحجرة شيئا ولا في غيرها سوى بعض الكتب..

رفع الامام رأسه ولم يبد عليه أي ردّ فعل.. كانت السكينة تغمره ويشع من عينيه نور يعكس انسجام نفسه المتسامية وروحه الطاهرة..

ولقد كان منظر الأوغاد يحيطون به يحكي غربة الانسان المقهور... وعندما أراد الامام أن يرتدي بدلة الخروج قال أحدهم بغلظة:

ـ ان أمر الخليفة يقضي بحملك على نفس الهيئة التي وجدناك عليها..

واقتيد الامام مخفوراً من سامراء وحتى القصر الجعفري الرابض في شمال «المتوكلية».

كانت رياح الشمال تلفح الوجوه.. وتزيد من استعار البرد وقد اختلط أنين الريح وسنابك الخيول، وعواء ذئاب بعيدة، لتؤلف معاً موسيقى تبعث الرهبة في القلوب، وقد زاد من رهبة الطريق الأفق المزدحم بغيوم كالحة، وقد ظهرت نجيمات تفعل المستحيل من أجل أن تنقل بصيص نور إلى الارض الغارقة في بحر الظلمات... فتحت بوابات القصر المواجهة لدجلة..

ويرسم القدر في تلك الليلة الموحشة لوحته الرهيبة.. إذ الرياح تولول خلال الدروب الغارقة الظلام فيتألق مشْهد من مشاهد النبوّات الغابرة.. عندما يقف ابراهيم وجهاً لوجه أمام النمرود، أو يواجه موسى فرعون ذا الاوتاد..

كان الطاغية على وشك أن يعبّ كأساً أخرى مترعة بسائل يطفيء شموع العقل..

عندما دخل الجلاوزة وهم يحفّون برجل اسمر يرتدي ثياباً منسوجة من الصوف.. فبدا في وقفته المهيبة وإبائه ووجهه الاسمر; موسى الذي دخل على فرعون في قعر قصره.

قال جلواز بصوت فيه خنوع العبيد:

ـ لم نعثر يا سيدي على أي شيء.. لا سلاح ولا أموال.. لقد فتشنا المنزل تفتيشاً دقيقاً.

تأمل الطاغية الوجه الاسمر فداخله شعور غريب هو مزيج من التهيب والحنق مع قدر مدمّر من الحقد.

أشار الطاغية إلى غريمه القديم ليجلس معه على السرير جلس الامام وقد غمره شعور بالحزن لمشهد دنان الخمر... وقد اصطف اسفل السرير حشد من المهرّجين الذين يعبدون الطاغوت من دون الله..

ناول الطاغية الرجل الاسمر كأسه... فقال الذي ورث أخلاق النبوّات:

ـ اعفني يا أمير المؤمنين.. انه لم يخامر لحمي ولا دمي أبداً.

قال الطاغية:

ـ إذن انشدني شعراً.

ـ إنّي لقليل الرواية للشعر.

قال الطاغية بإصرار:

ـ لابد من ذلك!

وهيمن صمت مهيب.. صمت يشبه السكون قبل هبوب العاصفة.. السكينة قبل هطول المطر.. صمت يجسّد لحظات الحزن الأخيرة قبل انبجاس الدموع.. وجاء صوت الامام حزيناً معبّراً، يكشف حقائق الحياة والانسان والتاريخ:

«باتوا على قللِ الاجبالِ تحرسُهم ... غُلْبُ الرجالِ فما أغنتهمُ القُللُ

واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم ... وأودعوا حفراً يابئس ما نزلوا

ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قبروا ... أين الاسرّةُ والتيجانُ والحللُ؟

أين الوجوه التي كانتْ منعمةً ... من دونها تُضربُ الأستارُ والكللُ؟

فافصحَ القبرُ عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدودُ يقتتلُ

قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكلِ قد أكلوا

وطالما عمّروا دوراً لتُحصنهم ... ففارقوا الدورَ والأهلينَ وارتحلوا

وطالما كنزوا الأموال وادّخروا ... فخلّفوها على الأعداء وانتقلوا

أضـــحت منـــازلُهم قفـــراً معطلـــةً وساكنوها إلى الاجداث قد رحلوا[٢٩٤]

وصوب الامام نظرة تتجلى فيها رحمة الانبياء:

ســـل الخليفـــةَ إذ وافـــت منيتـــهُ أيـن الحمـاة وأيـن الخيـلُ والخـولُ؟

ايـــن الرمـــاةُ أمـــا تُحمـــى بأســـهمِهمْ لمّـــا أتتـــك ســـهامُ المـــوتِ تنتقـــلُ؟

أيـن الكمـاةُ أمـا حـاموا أمـا اغتضـبوا أيـن الجيـوش التـي تُحمـى بهـا الـدولُ؟

هيهـات مـا نفعـوا شـيئاً ومـا دفعـوا عنـك المنيـة إن وافـى بهـا الأجـلُ

فكيـف يرجـو دوامَ العـيش متصـلاً مـن روحـه بحبـالِ المـوتِ تتصـلُ؟!

وعنـدما هـدأت صـواعق الكلمـات توقـع الحاضـرون أن رأس هـذا السـيد الحصـور سـوف يتدحرج.. وأن باغر التركي سوف يستلّ سيفه الاسطوري.. ليهوي به على رأس يحيى بـن زكريـا، ليستقر عند قدمي «سالومي» الجديدة، زوجة الطاغية تلك المرأة الغامضة... ولكـن مـا حـدث كـان يشبه أمواجاً غاضبة تدمّر المجد الزائف الذي يبنيه الطغاة فوق جماجم الابرياء..

ذلك أن الذين يتربعون فوق عروش المجد الدنيوي سوف ينحدرون إلى هاوية سحيقة.

سيلوي القدرُ سواعدهم المفتولة.. القدر.. المصير الحتم الغامض الموت.

ويستحيل العرش إلى شاهدة قبر بائس، حيث يرقد الإنسان بعد ضجيج السنين تحت التراب..

ويصبح القبر إلى ميدان تتصارع فيه الديدان... ويُسـأل الراقـد الـذي يمتصـه التـراب وينهشـه الدود، ولكن السؤال يبقى دون جواب لم يعد هناك من فرق بين النور والظلمة.. أشـرقت الشـمس أم لم تشرق... لأن عالم القبور.. عالم صامت مقفر إلاّ من عظام الموتى.. عالم يلفه ليل طويل كليـالي الأبد..

وبالرغم من السكون المهيب فأن القبر يكاد يهتف بالحقيقة.. حقيقة الحياة والانسان!!

آه ان جماجم الملوك عارية من التيجان.. والخدود المتورّدة بالدماء هي الآن جزء مـن التـراب الذي يلف الجماجم النخرة.

كل شيء يستحيل إلى رماد ورفاة.. حتى الأغاني والزهور، وتستحيل القبور إلى عالم صـمت يرهف سمعه إلى الخطى التي تجوس الدروب خلال الحقول... فالعالم فوق التراب يضـج بالحيـاة.. والأشياء التي كانت في قبضة الموتى ذات يوم هي الآن في قبضة الآخرين..

القصور يسكنها الآخـرون، والأمـوال فـي أيـدي الآخـرين.. انهـا حركـة الاجيـال تصّـاعد مـن التراب، وتعود إليه ولو بعد حين.

تلك حكاية القرون.. القرون التي مضت.. فالانسان مهما ملأ الدنيا ضجيجاً له موعـد يومـاً مـا مع نومة في التراب.. انه يقترب شيئاً فشيئاً من حفرته التي تكمن له فـي الطريـق.. طريـق الحيـاة.. ولن ينفع الملكَ جنُودُه، ولن تجديه جيوشه ولن تحميه سيوف حرسه الخاص..

وحده صوت الموت يبقى هادراً يدمّر جدران الاجيال.. وفي كل لحظة من الحياة تنتظم قافلة الموتى فيها ألف حسناء.. آلاف الرجال.. وربّما آلاف الاطفال أيضاً..

آه من الموت.. الموت.. نهاية الحياة..

آه من السكون.. السكون خاتمة الضجيج..

آه من الظلام.. الظلام.. الظلام الدائم..

آه من أجل الأنفاس المضخمة بالعطر والشذى والعبير.. انها تستحيل إلى تراب.. تراب.. تراب.

... ما أشدّ ضعفك أيها الانسان.. ما أشدّ غفلتك.. الموت هناك.. في مكان ما يتربّص بك.. لا تحاصر النقاء في أعماقك.. لا تقهره.. لا تثقله بالسلاسل والأغلال.. لا تصعّر خدك لأخيك.. لا تحاول خنق أنفاس اخوتك.. لا تكن ذئباً... فكّر في النهاية.. انظر إلى المدى البعيد.. البعيد انظر!! إلى هناك.. نعم هناك ألا ترى شيئاً؟!

ألا ترى قوافل الزمن الراحل؟!

كل شيء يتحرك باتجاه الموت.. الأعوام تذهب.. الحياة.. تنضب.. ويذوب الانسان.. يتعب.. يموت في الخريف كالشجر..

وكأوراق الشجر الصفراء تتبعثر أحلامه آماله والأعوام التي ملأها صخباً.. كلُّ شيء في مهبّ العاصفة القادمة.. عاصفة الموت..

كما الزلزال يدمّر صرحاً فرعونياً ويحيله إلى أنقاض وشظايا فعلت الكلمات القادمة من عالم الحقيقة المطلقة فعل الزلزال... لقد خمد عواء الذئاب، واختبأ الخنزير المتوحش في الأعماق في لحظة من لحظات الاصغاء البشري والخضوع... فوجيء الجميع وفي مشهد عجيب بالطاغية يبكي.. وقد أشار بكفّه أن ارفعوا مائدة الخمر!! وفي لهجة شابها تودّد همس المتوكل:

ـ عليك دين يا أبا الحسن؟

قال الرجل الاسمر:

ـ نعم.. أربعة آلاف دينار.

والتفت المتوكل إلى وزير البلاط وأمره بصرفها فوراً، كما أمر بمرافقة الامام إلى منزله مكرّماً(٢٩٥).

الفصل الرابع والثلاثون

ليس هناك ما هو آلم من إنسان حرّ شريف أبي قدّر له أن يحيا في زمن طاغية.. زمن يضجّ من عواء الذئاب.. إن إنساناً محاصراً كهذا سوف تتضاعف محنته إذا غمره شعور بالمسؤولية تجاه أمته وشعبه.. وهداية التائهين في دروب الحياة.. سوف يذوي مثل شمعة تحترق في ليل دامس كثيف الظلمات.. لكنه لو مات فسوف يموت واقفاً كما النخيل.

وتمرّ الأيام حزينة.. كل شيء يبدو كابياً... فاذا غطت الغيوم السماء فإن دموع الحزن

والحنين تنبجس ساخنة فيها حنين إلى أيام مضت وحنين إلى صفاء مفقود..

لقد مرّت شهور وجاء خريف سنة ٢٤٧هـ ٨٦١م.. دمياط في مصر تتعرض إلى غارات الروم، ولم يكن الخليفة الذي أصبح دائم السكر ليكترث، أو يفكّر بإرسال إمدادات للمدينة المنكوبة.

لقد اصبح الطاغية في الشهور الأخيرة أكثر جنوناً.. حفلات صاخبة وليالي حمراء، ولم يعد التكهّن بتصرّفات المتوكل، ولكن موظفي القصر الصغار باتوا يدركون أن هناك صراعاً سرّياً مستعراً بين جناحين، جناح يقوده عبدالله بن يحيى وزير البلاط ومسؤول ديوان التواقيع.. ويتضامن معه الفتح بن خاقان ويسانده المتوكل شخصياً، وجناح آخر بقيادة القائد التركي «وصيف» الذي نظّم جبهة قوية خاصّة بعد أن كسب إلى جانبه القائد العسكري «بغا الكبير» وابنه بغا الشرابي، وبعض القادة الاتراك بما فيهم «واجن» و «باغر» ذلك الضابط التركي الطموح وقد أفاد «وصيف» من العلاقات المتوترة بين المتوكل والامير محمد المنتصر والتي راحت تتدهور من سيء إلى أسوأ..

مع اطلالة شعبان كان القصر الجعفري ينذر بوقوع انفجار ما فقد باتت الاجواء مشحونة بالخطر..

وكانت نوبات هستيرية ما انفكت تنتاب الطاغية واصبح من المتعذر ادخال البهجة إلى روحه المعذبة..

وكان السكر الدائم والهوس الجنسي الذي يخونه العجز في بعض الأحيان يدفع بالمتوكل إلى المزيد من الجنون.

وربّما خامرت رئيس الوزراء، ووزير البلاط، وآل خاقان فكرة خلع المنتصر من ولاية العهد أو حتى اغتياله لتمهيد الطريق أمام المعتز.. فقد يموت المتوكل أو يتعرض لحادثة ما من يدري؟

وكان نفوذ زوجة المتوكل المتفاقم قد أسهم في تأجيج الصراع السرّي الرهيب والذي بات دخانه يحرق العيون; وكانت تقارير الجواسيس تزيد من استعار الصراع الذي بات ينذر بحريق كبير.

وفي ظروف بالغة القسوة وفي أرض تتحطم على صخورها المعاول ما يزال اثنا عشر ألف عامل ينهمكون في شق النهر.. يعملون من الصباح إلى المساء كالعبيد من أجل اشباع شهوة طاغية مجنون لا يفكّر إلاّ بلذائذه المجنونة.. حتى بات المهندس النصراني دليل بن يعقوب يتمنى في أعماقه سقوط الطاغية قبل أن يكتشف فشل المشروع الذي أرهق ميزانية الدولة دون جدوى!

وفيما كانت رياح تشرين تكتسح خضرة البساتين وتملأ الحدائق بالأوراق الصفراء والبرتقالية.. وصلت القائد «وصيف» معلومات مؤكدة حول إعداد فرامين رسمية تقضي بمصادرة جميع ممتلكات «وصيف» وأراضيه الزراعية في اصفهان وشمال ايران إلى جانب تعليمات بتسجيل هذه الممتلكات باسم رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.

ولم يبدّد «وصيف» وقته بل راح يخطط لاغتيال الخليفة وبدأ يكثف من لقاءاته مع «بغا» و«باغر» ومع ولي العهد المغضوب عليه..

وقد فعلت الرسائل السرّية الخالية من أي توقيع فعلها لدى بغا الشرابي حول وجود نوايا لدى الخليفة بإقصائه عن مركزه في البلاط..

وفي الجانب المقابل كان عبيدالله بن يحيى يخطط هو الآخر للقضاء على نفوذ القادة الأتراك، وكانت مخاوف الخليفة تنعكس داخل القصر في لقاءاته المتوترة بابنه المنتصر فاصبح ديدنه توجيه الاهانات إليه ومحاولة الحطّ من شأنه... وفي الليالي الخريفية، يستحيل القصر إلى بؤر للمؤامرات، والمؤامرات المضادة والدسائس..

وباتت لدى البلاط الحاكم بزعامة الوزير قناعات ثابتة بضرورة اغتيال الأمير المنتصر والقضاء على القادة الاتراك..

وفي المقابل كان وصيف قد نجح في اقناعه اعضاء جبهته بضرورة اغتيال المتوكل وأن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم، وكانت الاجواء تزداد توتراً حتى اطلالة رمضان الكريم الذي لم يرَ أحد هلاله بسبب كثافة الغيوم.

ولم تتمكن الرياح رياح تشرين من ايقاف استعار حمّى التآمر وفي الليالي حينما يشتد الظلام كان الناس يسمعون عواء ذئاب بعيدة... كما امتلأت السجون خاصّة سجن

المطبق الرهيب بآلاف المعتقلين من شيعة أهل البيت والعلويين..

وكان العلويون يعيشون حالة معاشية يرثى لها، وقد اضطر الامام الهادي نفسه إلى العمل في الزراعة والاقتراض للانفاق على الفقراء والمعوزين الذين تتنامى اعدادهم بشكل مؤسف.

واصبح التشيع لأهل البيت وزيارة الامام عليA والاقتراب من أرض كربلاء بقصد زيارة الامام الحسين جريمة تعاقب عليها الدولة بأشدّ العقوبات.

واصبحت حياة الطاغية الشخصية موضوعاً مبهماً يحيّر الشعب، وبات من المستحيل لقاءه، في زمن كثر فيه الظلم والعدوان واغتصاب الحقوق والحرّيات ووصل القهر حدّاً جعل بعض زعماء البيت الهاشمي يشعرون بالخطر.

ولذا فعندما أُعلن عن البلاط أن الخليفة سيصلّي آخر جمعة من رمضان بالناس في المسجد الجامع بسامراء. هبّ الكثيرون للسفر إلى سامراء لتقديم الشكاوى من حيف وظلم الولاة[٢٩٦]، في زمن لم يبق فيه لسلطة القضاء وجود حقيقي.

كانت حياة الطاغية في رمضان سلسلة من الحفلات الماجنة والكوابيس وكان المحيطون به يتفنون في ادخال الرضا إلى قلبه المترع بالجحيم..

وذات ليلة وفيما كان المؤمنون يناجون رب السموات المرصعة بالنجوم وكلمات الحبّ الالهي تدور في فضاء السحر.. كان الطاغية يتعذب تحت وطأة كابوس مخيف..

«كان يرتقى ظهر موظف أرمني في القصر.. يدور به في أروقة القصر وهو يقهقه عالياً.. فجأه كبر رأس الأرمني بشكل مخيف، وشعر هو بالرعب اصبح الراس مرعباً ثم نطق بكلمات مخيفة:

«إلى كم تؤذينا..»[٢٩٧].. وحاول هو الفرار.. ولكن رجلاه كانتا قد تسمرتا.. ثم هبّ من نومه ليجفف عرقه».

وفي اليوم التالي.. استدعى الطاغية المنجّم علي بن يحيى ليقرأ له صفحات من المستقبل الغامض.. وتعثر المنجم في قراءته وثم سكت قال الطاغية:

ـ مالك توقفت؟!

أجاب المنجم مرتبكاً..

ـ لا شيء.. لا شيء يا سيدي.

ـ اقرأ إذن..

استأنف المنجم القراءة متوجساً:

ـ ويقتل ملكٌ في مجلس شراب.

أشار المتوكل بيده.

ـ يكفي..

ثم أستطرد مغمغماً وقد اجتاحته موجة من الحزن الغامض:

ـ ليت شعري من هذا الشقي المقتول؟![٢٩٨]

وفي يوم الجمعة ٢٨ رمضان ٢٤٧هـ كان المتوكل يستعد لإمامة المصلّين في سامراء حسب ما أعلن عن البلاط.. ولكن رئيس الوزراء ومعه ابن أخيه وزير البلاط قرّرا استثمار هذه الفرصة لتسليط الاضواء على المعتز.. والايحاء للجميع بأن المنتصر قد انتهى سياسياً قال الوزير بلهجة فيها تملّق وخبث:

ـ يا أمير المؤمنين إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وبعضٌ متظلم وبعض طالب حاجة.. وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة.. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر ولي عهده بالصلاة ونكون معه جميعاً فليفعل.

استجاب الخليفة فوراً ولكنه تطلّع إلى وزيره ساكتاً فقال رئيس الوزراء:

ـ يا سيدنا انّا نتمنى أن تأمر الأمير المعتز بالصلاة لتشرّفه بذلك فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً!

هزَّ المتوكل رأسه موافقاً وبدأت الاستعدادات لترتيب موكب مهيب يليق بخليفة المستقبل، وطبقاً لأوامر من البلاط يتعيّن على أهالي سامراء استقبال الأمير والاحتفاء به.

وكانت تصرّفات الوزير ورئيس الوزراء اللذين رافقا الأمير في موكبه رسالة معبّرة.. تصرخ بأن المنتصر قد انتهى إلى الأبد.

وقد أثارت هذه الخطوة من الطاغية غضب المنتصر الذي سجّل احتجاجه بانزوائه في الجناح الخاص به في قصر الجعفري.

ان القادة الاتراك وفي طليعتهم وصيف وحدهم يعرفون مخزون الغضب المكبوت في اعماق الأمير.. ولولا ذلك الصبر المدهش وضبط النفس لقام المنتصر بحماقة تودي بحياته.

لقد حكم الطاغية بهذه الخطوة على نفسه بالموت.. لم يعد في وسع المنتصر السكوت بعد الآن.. ان الموت افضل بكثير من حياة الذل والخنوع.. سوف يثأر لكرامته المهدورة ولحقوقه المصادرة..

وخلال يوم الجمعة ويوم السبت عمّت الشائعات حول تدهور صحة الخليفة.. وقد ساعد على انتشار الشائعات حضور المعتز بدل والده، وتقبيل رئيس الوزراء ووزير البلاط الأول يديه وقدميه(٢٩٩) وما قام به نخبة من الحرس الخاص من مراسم تخص الخلفاء.

بدأت رياح كانون الأول بالهبوب وتبعثر أوراق تشرين الصفراء هنا وهناك.. فيما

بدت الأفاق غارقة في الظلام والمستقبل غامضاً يختبىء وراء ستائر المجهول!

الفصل الخامس والثلاثون

من فوق المئذنة الملوية ارتفع آخر أذان في شهر رمضان وكان ذلك يوم السبت ليلة الأحد.. وكان بعض الصائمين فوق اسطح المنازل يتطلّعون إلى الافق الغربي بالرغم من وجود بعض نتف الغيوم..

وظهر هلال شوّال بابتسامته الجميلة الخجولة.. وهتف صائم مبتهجاً:

ـ هناك! انظروا هناك!

وبالكاد رؤي الهلال.. هلال عيد الفطر السعيد..

ومن بعيد بدا القصر الجعفري الرابض فوق ربوة في الشمال نسراً جاثماً يتربّص بضحية ما!

كان المتوكل متوتر الأعصاب جدّاً، تشتعل في عينيه آلاف الحرائق المجنونة.. لقد تحدد موعد خطير.. سيشهد يوم الخميس القادم تساقط رؤوس كبيرة.. سوف يسقط رأس «وصيف» و«بغا» ورأس ابنه العنيد أيضاً.. ورؤوس أخرى..

وفيما كان الطاغية يهيم في أروقة القصر وقعت عيناه على الموظف الأرمني فصرخ بالحاجب زرافة:

ـ اطردوا ذلك الارمني من القصر!

فغر زرافه فاه من الدهشة.

ـ ولكنك يا سيدي كنت تحب خدمته.

وتوقف الطاغية لكأنه يحدّث نفسه:

ـ أجل كنت احبّ خدمته ولكني رأيته في الحلم يتأفف مني!!

كان الرجل ينتظر مكافأة في ليلة العيد ولكنه وجد نفسه في الشارع المؤدي إلى سامراء وحيداً..

مع أول خيوط الشمس كان وزير البلاط يصدر أوامره لتنظيم موكب الخلافة حيث تقرر أن يصلّي الخليفة في المسجد الجامع بسامراء صلاة العيد... كان المتوكل قد بدا شاحب اللون(٣٠٠) وكان من الواضح أنه قد امضى ليلة عصيبة لم يغمض له فيها جفن.. ولذا بدا أكثر صفرة باستثناء عينيه اللتين كانتا ترسلان بريقاً مخيفاً..

كانت رغبة الخليفة المجهد البقاء في القصر.. ولكن الوزير قال محذّراً من تزايد الشائعات:

ـ يا أمير المؤمنين قد كان الناس تطلعوا إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا فلم يركب أمير المؤمنين.. ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجف الناس بعلّته ويتكلّموا في أمره.. فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأصدقاء ويكبت الاعداء بركوبه فعل..

اشتعل حقده وتأجج في أعماقه الخاوية.. واصدر أمره بالتأهب وأن يُنظّم استقبال شعبي يمتد من القصر الجعفري إلى سامراء..

ولذا مع شروق الشمس كانت الجموع التي حشدت بالقوّة تترقب خروج الخليفة من القصر.

وكانت قوّات من الحرس والجيش تنتشر على جانبي الطريق العريضة وهي في حالة استعداد تام.

وخرج المتوكل بصحبة رئيس الوزراء على فرسيهما وخلفهما بعض الوزراء والحجّاب وكبار موظفي القصر.

والقى الطاغية نظرة فيها كبرياء على الجموع، ولمح ابن الرضا على بغلته وقد بدا مهيباً غارقاً في طمأنينة وسكينة.. لم تكن تصدر عنه حركة واحدة تنمّ عن اكتراثه بالضجّة التي ارتفعت احتفاءً برؤية الخليفة... وغاظه موقف ابن الرضا وداهمه شعور رهيب بالحقارة..

ان هذا العلوي الأبيّ ينافسه في الجلال الذي يجب أن يكون له وحده.. التفت إلى ابن خاقان وقال بلهجة آمرة:

ـ قل لابن الرضا أن يترجّل ويمشي قدّامي.

قال الفتح متوجساً:

ـ يا سيدي إن في ذلك شناعة عليك وسوء قالة!!

ـ يجب أن يترجل.. ان ذلك يحطّ من شأنه فيستهين به الناس.

قال ابن خاقان وهو يخشى ردود فعل خطيرة:

ـ إذن أصدر أمرك لجميع القادة والأشراف وذوي النفوذ بالترجل.. حتى لا يظن إنه هو المقصود وحده!

هزّ الطاغية رأسه موافقاً ولكنه قال:

ـ ليترجل الجميع باستثناء شخص واحد فقط:

ـ من هو؟

ـ أنت.

وترجّل الجميع ليمشوا أمام الخليفة الذي راح ينظر إلى شخصيات الدولة تمشي قدّامه وشعر بالزهو.. إنه السيد الوحيد في هذه الأرض.. منظر الجنود المدججين بالسلاح المصطفّين على جانبي الشارع الطويل الذي يمتد إلى اربعة أميال عربية [٣٠١]يسكر الطاغية الذي يعاني عشرات العقد النفسية..

كان الامام يعاني من وعكة صحية ولم يكن بمقدوره أن يقطع آلاف الخطى مشياً على الاقدام في مثل ذلك الزحام الشديد.

شعر الهاشميون من بني العباس بأن المتوكل قد وجه اليهم طعنة نجلاء.. أنهم يعاملون كالعبيد.. وتجرأ بعضهم على ذكر الطاغية وتصرّفاته الحمقاء..

كان الامام يتصبّب عرقاً وقد اجهده المشي بسبب شدّة الزحام والغبار، فاتكأ على أحد مواليه الذين كانوا يرافقونه.

وضحك أحدهم بمرارة قائلاً:

ـ لقد تذكّرت شيئاً رأيته في عيد الاضحى.. رأيت قطيعاً من الأغنام يساق للأضاحي.

ردّ آخر:

ـ الحمد لله اننا في عيد الفطر وليس في عيد الاضحى!!

وسيطر على المشهد هتافات الغوغاء بحياة خليفة المسلمين السيد المطاع والملك الكبير.

الجماهير مفتونة بمنظر الطاغية يشق طريقه فوق فرس وسط آلاف الجنود الذين اصطفوا على امتداد أربعة أميال.. فيما كان كبار القادة وشخصيات البلاط تمشي أمامه.

ربّما غمغم الامام وهو يتأمل منظر هؤلاء المفتونين بالمظاهر البرّاقه والمجد الزائف قائلاً:

ـ «الغوغاء قتلة الانبياء»(٣٠٢).

أن هؤلاء الناس الذين يزدادون خنوعاً وذلاً هم الذين يصنعون بذلّهم وخنوعهم الطاغية الذي ينظر اليهم بازدراء، ويستخدمهم دائماً للقضاء على الأحرار.

كان الامام يقطع الطريق مجهداً حزيناً للمصير البائس الذي وصلت إليه الأمّة.. تمتم بأسى:

ـ لقد قطع رحمي قطع الله أجله(٣٠٣)..

أن هذا الطاغية هو في الحقيقة ابن عمه.. ولكنه انسان دموي استحال إلى ذئب بشري مجنون... يتصوّر أن الجميع يتآمر عليه ولذا يجب قمعهم والقضاء عليهم.. يجب أن يحوّلهم إلى عبيد أو يدسّهم في التراب!

ان هذا الطاغية يرعبه وجود إنسان حرّ حتى لو يقم بأية حركة مسلّحة ضده.. إن وجود إنسان شريف هو في نظر الطاغية عدوان على سيادته.

بلغ بالامام الاعياء... وكان ينقل خطاه على هون.. وكان الهاشميون الذين يرافقونه في المشي قد خالجهم شعور بالمرارة من ابن عمهم الذي جعل مقاليد الحكم بأيدي الغرباء بل وبأيدي النساء والمخنثين الساقطين!!

قال رجل هاشمي تعدّى الخمسين من السنين مبهور الأنفاس مخاطباً السيّد العلوي المبارك:

ـ يا سيدنا ما في هذا العالم أحد يستجاب دعاؤه فينا فيكفينا الله؟!

قال أبو الحسن وقد أضاء وجوده تاريخ النبوّات:

ـ في هذا العالم من قلامة ظفره أكرم على الله من ناقة ثمود... لمّا عقرت وضجّ الفصيل فقال الله: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب»(٣٠٤).

وصلت الحشود المتعبة سامراء في حالة يرثى لها وتبدّدت مع الغبار فرحة العيد.. وظهرت الشمس باهتة وراء السحب الرمادية التي ازدحمت في الأفق الشرقي.

كانت أبواب المسجد الجامع مشرعة وأذان صلاة العيد ينساب من فوق المئذنة الملوّية.. ودلف الامام مع الجموع المتدفقة عبر الباب إلى المسجد ووقعت عينا زرافة الحاجب على الامام منهكاً يتصبب عرقاً بالرغم من برودة كانون فاتجه إليه وقاده إلى دهليز هناك، وأخذ منديلاً وراح يجفف عرق الامام.. وحاول أن يخفف عنه حالة الحزن التي تموج في الوجه الأسمر فقال:

ـ ابن عمّك لم يقصدك بهذا دون غيرك.

نظر إليه الامام نظرة أودعها بصيرته النافذة ومعرفته بحقيقة ما يجري حتى داخل أسوار القصر الكبير.

ـ إليك عنّي!!

وتلا بخشوع آية إنذار قبل هبوب العاصفة: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب).

ونهض الامام مغادراً المكان.. فيما ظلّ الحاجب ساهماً للحظات يحاول فك رموز الكلمات الغامضة..

وقبيل الظهر عندما عاد زرافة إلى منزله; دار حوار بينه وبين معلّم لديه ميول شيعية وكان زرافة يحب في بعض المناسبات ممازحته قال زرافة:

ـ أتدري من رأيت في المسجد صباحاً؟

ـ ؟!!

ـ رأيت إمامك.. لقد اجهده المشي فساعدته وحاولت أن أخفّف عنه ما حصل.. فقال لي ما لم أفهم منه شيئاً!

ـ ما الذي قال؟!

ـ تلا هذه الآية: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب).

مثلما يشتعل البرق في السماء المثقلة بالغيوم.. توهج مشهد من مشاهد التاريخ المندثر.. انه «صالح النبي» يخاطب قبيلة ثمود الوثنية.. يوم هاجم الشقي «قيدار» ناقة الله فذبحها وراح يلهث وراء فصيلها المذعور فوق صخور الجبل.. فلم يرحم نظراته البريئة فذبحه من الوريد إلى الوريد..

ـ آه ان الامام ينذر بوقوع كارثة ما.. ربما يموت المتوكل أو يقتل..

صرخ زرافة مذعوراً:

ـ ماذا؟!

ـ أنني أنصحك بالاحتراز.. حاول أن تخزن أشياءك... الأيام القادمة حبلى بحادث رهيب..

ان مجرّد الحديث عن شؤون خطيرة في زمن يخنق الأنفاس يثير الهلع، ولذا صرخ زرافة بالرغم من مركزه في البلاط:

ـ اخرج من البيت حالاً.. لا أريد رؤية وجهك مرّة أخرى.

فوجيء المعلّم بموقف زرافة، وأسف لما قال، ولكنه غادر البيت بهدوء وحزن، وكان هاجس الذي سيحدث في الايام القادمة ما يزال يصنع التوتر في أعماقه.

الفصل السادس والثلاثون

كان «زرافة الحاجب» في طريقه إلى القصر الجعفري مساء يوم العيد.. ما يزال ينتابه هاجس الحادثة الرهيبة التي تحدّث عنها المعلم..

في البوابة الجنوبية ادّى الحرس التحيّة للقائد الذي ما يزال يسيطر عليه الوجوم..

وتبادل كلمات مقتضبة مع نائبه زرقان حول سير العمل قال زرقان:

ـ كل شيء على ما يرام.. ولكن الخليفة لن يعقد مجلسه هذا المساء.

ـ لماذا.. هل هناك سبب؟!

ـ لا شيء.. ربّما ان حالته الصحية لا تساعد!

ـ ربّما!

ومضى زرافة مع نائبه في الرواق الذي يؤدي إلى البلاط.

قال زرقان:

ـ هذا يوم عيد.. ولكني لا أشعر بالفرحة لماذا؟

ـ ربّما بسبب برودة الجوّ.. الخريف فصل حزين.. نحن في منتصف كانون.

قال زرقان:

ـ أراك واجماً.. هذا اليوم.. أنت معروف بمزاحك.

ـ لا شيء.. اشعر بالتعب قليلاً.. دعني استريح..

وتركه زرقان وحيداً ومضى.

استعاد زرافة كلمات المعلم وهو ينصحه بالاحتراز... قال في نفسه: «ما يضرّني أن أحزم أمري.. الحذر في هذه الايام مطلوب على كل حال.. ربّما يحدث شيء من يدري(٣٠٥)؟

كان أول شيء فعله زرافة أن أخذ أمواله ليودعها عند بعض معارفه، ويتصرّف بحكمة وحذر.

الله وحده الذي يراقب الأعماق.. ولا أحد يدري ما الذي جرى ويجري وراء الأبواب المغلقة.. اليوم هو ٣ شوال، وقد أصبح المتوكل نشطاً على غير عادته تملأ البهجة نفسه حتى

فوجىء طبيبه الطيفوري بحالته الجديدة.. لقد فارقته حالة الكآبة التي لازمته خلال الأسابيع الأخيرة. قال المتوكل متسائلاً:

ـ كأني أجد مسَّ الدم(٣٠٦).

قال الطيفوري:

ـ يا أمير المؤمنين عزم الله لك على الخير.. افعل!

وأيد ابن الأبرش طبيب المتوكل الآخر ذلك.

وأجريت على الفور عملية فصاد للدم..

وعلى مائدة الطعام عندما انتصف النهار اشتهى المتوكل خروفاً فجاءوا إليه بخروف سمين محشّى.. وراح يتخطف اللحم المشويّ بيده متلذذاً.. لم يكن هناك على المائدة الحافلة بكل ما لذ وطاب سوى رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.. وعلى مقربة منها مائدة أخرى لبعض المغنين والمهرّجين، وفيهم المغني ابن الحفصي وعثعث وزنام.. ثم التحق بهم بنان الذي جاء برفقة الأمير المنتصر الذي ظلّ واقفاً ينظر إلى والده.. يراقبه بصمت وغضب مكبوت.. يستطيع أن يراه المرء متوهّجاً في عينيه.

التفت المتوكل إلى ابن الحفصي ودعاه مع عثعث إلى مائدته قائلاً:

ـ كل أنت وعثعث هنا..

وكان المتوكل الذي شبع تماماً مبتهجاً جداً.. ولا أحد يعرف مصدر سعادته.. وعندما رأى مطربه لا يأكل قال:

ـ لماذا توقفت عن الأكل؟!

ـ لقد نفد ما بيننا من الطعامّ

ورمى المتوكل اليهما لحماً ينضح سمناً، وقام المطرب بحركة مضحكة وهو يتخطف اللحم، فضحك الطاغية سعيداً.

ـ كِلوا بحياتي!

وحضرت بعد انتهاء تناول الطعام أربع فتيات جميلات يحملن على طبق بلوري هدية زوجة الخليفة.. كانت الهدية عبارة عن مطرف خز اخضر يبهر العقولَ جمالُه(٣٠٧)!!

شق المتوكل المطرف نصفين ونظر إلى ابنه المنتصر واقفاً فصاح:

ـ ردّوه.. لا أظن إني سألبسه.. ولا أريد أن يلبسه أحد بعدي..

وتقدّم من ابنه الذي ظل واقفاً:

ـ لابد وأنك تنتظر أن تصبح خليفة؟!

ـ...

وتفجّر حقد رهيب في أعماق الطاغية واجتمع في يده فهوى بها على وجه ابنه الذي تلقى الضربة بصبر عجيب!!

صرخ المتوكل بعصبية:

ـ لقد سميتك المنتصر.. فسماك الناس لحمقك المنتظِر.. ثم صرت الآن المستعجل..

قال المنتصر وهو يعض على نواجذه:

ـ يا أمير المؤمنين! لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي!

ـ من قال أنني لا أقتلك.. سوف اقتلك..

ونهض الفتح لإقناع الخليفة بضبط نفسه قبل أن تنكشف الخطة الجهنمية التي سوف تنفذ غداً أو بعد غد..

وقبّل رئيس الوزراء يد الطاغية إرضاءً لعقده ولكن المتوكل صاح:

ـ اشهدوا جميعاً اني قد خلعت المستعجل.

هتف المنتصر:

ـ يا أمير المؤمنين!!

وصعّد المتوكل الموقف المتوتر عندما طلب من ابن خاقان قائلاً:

ـ برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله إن لم تلطمه!

تقدّم الفتح من المنتصر وقد برقت عيناه بالنذالة وصفعه بوحشية على وجهه ثم على قفاه وندّت صيحات بعض الجواري اللاتي كن يراقبن ما حصل من وراء الستائر الشفافة.

كان ما حدث في الواقع قد دمّر إلى الأبد هواجس التردد التي كانت تنتاب المنتصر في الإقدام على قتل أبيه.. لقد استحال هذا الأب إلى ذئب لا يتورّع حتى عن أكل بني عمّه وأولادهِ.

لم يسمح للمنتصر من مغادرة القصر حتى بعد أن بدأت الحفلة المسائية، وبالرغم مما حدث فان المتوكل بدا مسروراً يستجيب لأبسط حركات اللهو التي يقوم بها مهرّجيه، وكان يتعمد الاستغراق في الطرب.

واستدعي جميع الندماء الذين كانوا في غرفهم، وأُفتقد أبو نوح (٣٠٨)ولم يعثر له على أثر.. وكان هذا الغلام قد عثر على رسالة بدون توقيع كتبتها امرأة تركية تحذّر من محاولة لاغتيال الخليفة.. فقام بتسليمها إلى عبيدالله بن يحيى الذي اجتمع فوراً مع عمه رئيس الوزراء; ولكنهما اتفقا على اخفاء الأمر عن المتوكل لما رأوه من سروره وانشراحه.. ثم من يجسر على قتل المتوكل واسمه وحده يبعث الرعب؟!!

وكيف يمكن وجود أسرار خطيرة في وجود شبكة معقدة من الجواسيس... جواسيس لا يعرفهم أحد... باستطاعتهم التسلل حتى إلى غرف النوم؟!!

ولذا اكتفى رئيس الوزراء بابتسامة ساخرة هازئاً من قلق ابن أخيه وزير البلاط والعقل المدبّر لما سيحدث يوم الخميس القادم!

الفصل السابع والثلاثون

استحال البلاط في ساعات المساء الأولى إلى ماخورة[٣٠٩] وكانت رائحة الخمور المعتّقة تزكم الأنوف.

واستدعي المنتصر لحضور الاحتفال رغماً عنه، ووضعت أمامه مائدة الخمر ولكنه امتنع عن الشرب.. فأشار الخليفة إلى بعض جلاوزته بأن يسقوه الخمر بالقوّة وفُرّغت كؤوس عديدة في جوفه.. وكان والده الثمل يشرب ويقهقه بهستيرية مخيفة إنّ أية إشارة تصدر الآن تكفي لتمزيق أي شخص إرباً إرباً..

حان موعد العشاء ووضعت المائدة بين يدي المتوكل.. الذي راح يلقم طعامه وهو سكران..

ونهض المنتصر ليغادر المكان ولكنه ألقى نظرة ذات معنى على «بغا الشرابي» الذي كان يقف قريباً من الستائر.. وكانت النظرة التي غفل عنها الجميع باستثناء «بغا الصغير» تكاد تصرخ: «الليلة».. الليلة يسقط الوثن البشري.

خارج البلاط التقى المنتصر الحاجب زرافة فأمسك بيده قائلاً:

ـ تعال معي!

قال زرافة متردداً:

ـ يا سيدي ان أمير المؤمنين لم يقم بعد!!

قال المنتصر:

ـ لقد عصفت برأسه كؤوس الخمر.. وسيخرج بغا والندماء..

وسكت لحظات وهما يمشيان في رواق طويل في القصر الكبير ثم قال بودّ:

ـ أحببت أن تجعل أمر ولدك اليّ.. إن القائد «أوتامش» سألني أن أزوّج ابنه من ابنتك وابنك من ابنته.. ما رأيك؟

أجاب زرافة متسلماً:

ـ نحن عبيدك يا سيدي.. تأمرنا فنطيع!!

وراحا يمشيان إلى أن انعطفا في إحدى الغرف..

كان المتوكل ثملاً تماماً عندما جاء زرافة وأشار من بعيد إلى «بنان» والى «ابن الحفصي» قال لبنان أن المنتصر يدعوك وقال لابن الحفصي:

ـ ان أمير المؤمنين سكران.. وقد رأيت القائدِ «تمْرت» فسألني عنك وطلب مني أن أدعوك إلى حجرته.. سوف أمضي إلى المنتصر أولاً ثم التحق بك في حجرةِ «تمْرت» فيما بعد.

وفي حجرة المنتصر وبحضور «أوتامش» وزرافة وبنان قال المنتصر:

ـ قد أملكت ابن زرافة من أبنة أوتامش، وابن أوتامش من ابنة زرافة قال بنان:

ـ والنثار يا سيدي.. أين النثار فهو يحسن الإملاك؟!

قال المنتصر:

ـ غداً إن شاء الله.. نحن في الهزيع الأخير من الليل!!

وأمر «أوتامش» بعض الخدم باحضار مائدة الطعام. وفي الأثناء وفيما كان زرافة وأوتامش وبنان يتناولون الطعام، كانت أبواب القصر تغلق جميعاً.. وحركة غير طبيعية تسود الاجواء.. كانت البوابة الكبرى المطلّة على نهر دجلة قد ظلّت مواربة فقط دون اقفال، وثلاثة أبواب داخلية ظلت مفتوحة..

وفي جنح الظلام تسلل جنود أتراك ملثمون يتقدمهم الضابط التركي «باغر» ويليه «بغلون» وثلاثة جنود آخرون..

وفي البلاط كان المتوكل قد ثَمِل تماماً.. نهض بغا الشرابي، وأمر الندماء بالانصراف إلى غرفهم..

قال الفتح متوجساً:

ـ ليس هذا وقت انصرافهم.. ان أمير المؤمنين ما يزال جالساً!!

قال بغا بلهجة واثقة:

ـ ان أمير المؤمنين أمرني إذا جاوز في الشرب سبعة أرطال أن لا أترك أحداً في المجلس.. وقد شرب أربعة عشر رطلاً!!

أشار الفتح إلى الندماء بالجلوس، ولكن بغا قال بفظاظة:

ـ إن حرم أمير المؤمنين خلف الستارة، وقد سكر... فقوموا وأخرجوا!

ونهض الجميع لمغادرة المكان.. ولم يبق سوى الفتح وعثعث وأربعة من الخدم..

شفيع، فرج الصغير، مؤنس، ومارد، وجاء الطباخ بمائدة الطعام.. وراح المتوكل يأكل وهو سكران ويقول لمارد:

ـ كل معي!

وراح يشرب..

وكان أحد أبناء المتوكل(٣١٠) قد نهض إلى المرحاض، فصادف المسلّحين قادمين وقد شهروا سيوفهم في الظلام فصاح:

ـ ما هذا يا سفلة.

قال الطاغية وقد سمع الضجة:

ـ يا بغا! ما هذا؟!

قال بغا مطمئناً ايّاه:

ـ هؤلاء رجال النوبة للحراسة الليلية.

سمع باغر الحوار.. وانتابه شعور بأن الخطة قد فشلت ولذا لم يدخل البلاط واتجه مع مجموعته للقاء القائد وصيف قال باغر:

ـ يجب أن تكون معنا.. ربما نفشل في مهمتنا.

قال بحزم:

ـ سأرسل معكم أولادي..

ـ وفيهم صالح؟!

ـ نعم.. صالح وأخوته.

وفي الأثناء حضر «بغا» وعيناه تقدحان شرراً:

ـ يا سفلة أنتم مقتولون لا محال فموتوا كراماً.

وقال لوصيف:

ـ أين «واجن» ومجموعته؟!

ـ سيحضرون حالاً.. ستدخلون في الوقت المناسب.. لا تنسوا أن الوزير عبيدالله ما يزال في حجرته.. فحراسة الأبواب ومراقبة الوزير جزء من الخطة.

ارتدّت المجموعة بقيادة باغر والتي أصبح عدد أفرادها ثمانية مسلحين إلى مجلس الخليفة..

كانت الضربة الأولى لبغلون حيث أهوى على كتف الخليفة فقطع إذنه واستلّ باغر سيفه[٣١١] فسدد له ضربة قاضية.. صاح الفتح:

ـ أيها الكلاب.

صرخ بغا وهو يبعجه بالسيف:

ـ ايها الجلفي.. اسكت..

والقى الفتح نفسه فوق الطاغية وراحت السيوف تقطعهما إربا إربا.. واستحال الطاغية مع صاحبه جثتين هامدتين وسط بركة من الدماء.. وكان نصيب عثعث ضربة في رأسه..

وهرب الخدم أما الخادم الصغير فقد اختبأ تحت الستائر.

كما فرّ ابن المتوكل تاركاً أباه تتخطفه السيوف كنسور مجنونة..

استحال القصر إلى جحيم تستعر بالانتقام والقسوة وشهوة البطش من أجل السيطرة.

وانبعثت ضجة وصراخ، فخرج المنتصر وزرافة وتمرت لاستطلاع ما يجري ومن اقصى الرواق الطويل ظهر بغا الشرابي هتف المنتصر:

ـ ما هذه الضجة؟

أجاب «الشرابي» وهو يبشر بنجاح المؤامرة:

ـ خير.. يا أمير المؤمنين.

ـ ويلك ما تقول؟!

قال «بغا» وهو يتظاهر بالحزن:

ـ أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين.. كان عبدالله فأجابه..

لم يعد هناك من مبرر لتستّر.. اصدر المنتصر أوامر بغلق أبوب القصر وغلق أبواب المجلس..

وشهرت السيوف بوجه زرافة:

ـ بايع أمير المؤمنين المنتصر!

فانحنى أجلالاً للخليفة الجديد:

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين!

واستعاد زرافة النبوءة العجيبة التي كشف عنها المعلّم من كلمات ابن الرضا صباح العيد!!

السماء ما تزال تنث المطر بصمت.. واشتعلت في الأفق البعيد بروق.. وكانت ترجيعة الرعود تصل مكبوتة.

أحد الخدم الذين فرّوا من المجلس يتجه إلى حجرة عبيدالله الذي بدأ يتثاءب بعد ساعات طويلة قضاها في قراءة رسائل وتقارير الجواسيس!

هتف الخادم مبهوراً:

ـ يا سيدي ما يجلسك؟!

ذعر عبيدالله:

ـ ماذا حصل؟

ـ السيوف تملأ القصر.

طلب الوزير من مساعده أن يذهب على عجل لاستطلاع الحادث... وسرعان ما عاد ليقول مرعوباً:

ـ قتل المتوكل مع الفتح!!

ونهض على عجل ومعه أحد مساعديه، فانطلق الثلاثة حذرين للخروج من القصر..

اتجهوا صوب البوابة الجنوبية ولكنها كانت مقفلة.. فاتجهوا نحو بوابة دجلة واستطاعوا كسر ثلاثة أقفال وانحدروا إلى المرسى حيث يوجد زورق فاستقلّوه تحت المطر باتجاه قصر «بلكوارا» شمال سامراء..

الفصل الثامن والثلاثون

كان المنتصر ما يزال يرسل صيحاته كربّان سفينة تشق عباب الأمواج العاتية بعد نجاح أخطر محاولة انقلابية في ذلك العصر... فأمامه مشوار طويل وعسير للسيطرة على الموقف..

وكانت الخطوات القادمة لا تقل خطورة عن تنفيذ عملية الاغتيال.. لقد أفلت وزير البلاط وفي هذا يكمن خطر كبير.. ولذا كانت فكرة المنتصر توجيه دعوات سرّية وفورية على لسان المتوكل إلى بعض الشخصيات والقادة..

كُلّف «وصيف» بإلقاء القبض على كل من المعتز والمؤيد قبل أن يجتمع بأحدهما الوزير أو يطلعهما أحد على الحادث.. وقد ساعد على ذلك وجود خطة سرّية تقضي باغتيال المنتصر والقضاء على بعض مساندية من القادة الأتراك.. ولذا كان كثير من كبار موظفي القصر على علم تام بعملية إغتيال المنتصر ومن بينهم سعيد الصغير الذي كلّف بتصفية الامام لدى أول اشارة..

كان سعيد الصغير في منزله يفكّر بمهمته العسيرة.. بعد أن كُلّف باعتقال الامام الهادي[٣١٢].. واغتياله ربما في نفس الليلة التي يتقرر فيها اغتيال المنتصر.. خطرت في باله فكرة أن يذهب إلى القبو.. لقد سمع الكثير عن هذا السيد العلوي!

عندما ولج السرداب.. كان الإمام يصلّي «وراح ينظر إلى الرجل الذي يرتدي حلّة بيضاء هي نفسها التي رآه فيها يوم العيد.. تفوح منه رائحة عطر ربيعي.

وراح سعيد يصغي إلى كلمات الانسان المقهور تجسد محنته عذابات امّة ترزح تحت نير الطغيان:

«اللّهمّ: إني وهذا الطاغية عبدان من عبيدك، نواصينا بيدك..

تعلم مستقرّنا ومستودعنا، وتعلم منقلبنا ومثوانا.. سرّنا وعلانيتنا، وتطّلع على نيّاتنا، وتحيط بضمائرنا..

علمك بما نبديه كعلمك بما نخفيه، ومعرفتك بما نبطنه كمعرفتك بما نظهره، ولا ينطوى عنك شيء من أمورنا، ولا يستتر دونك حال من أحوالنا، ولا لنا منك معقل يحصننا، ولا حرز يحرزنا، ولا هارب يفوتك منّا، ولا يمتنع الظالم منك بسلطانه، ولا يجاهدك عنه

جنوده، ولا يغالبك مغالب بمنعته، ولا يعازّك متعزّز بكثرة..

أنت مدركه أينما سلك، وقادر عليه، أين لجأ..

فعاذ المظلوم ببابك، وتوكّل المقهور منّا عليك، ورجوعه إليك، ويستغيث بك إذا خذله المغيث، ويستصرخك إذا قعد عنه النصير، ويلوذ بك إذا أنّته الأفنية، ويطرق بابك إذا غلقت دونه الأبواب يشكوه إليك، وتعرف ما يصلحه قبل أن يدعوك له، فلك الحمد سميعاً بصيراً لطيفاً قديراً...».

«اللهمّ: انّه قد كان في سابق علمك ومحكم قضائك، وجاري قدرك وماضي حكمك

ونافذ مشيئتك في خلقك أجمعين سعيدهم وشقيّهم وبرّهم وفاجرهم إن جعلت لفلان عليَّ قدرة فظلمني بها وبغى عليَّ لمكانها، وتعزز عليَّ بسلطانه الذي خوّلته إياه، وتجبّر عليَّ بعلوّ حاله، الذي جعلته له، وغرّه املاؤك له، وأطغاه حلمك عنه فقصدني بمكروه عجزت عن الصبر عليه، وتعمّدني بشر ضعفت عن احتماله ولم أقدر على الإنتصار منه لضعفي والإنتصاف منه لذلي، فوكّلته إليك، وتوكّلت في أمره عليك، وتوعّدته بعقوبتك، وحذّرته سطوتك، وخوّفته نقمتك، فظنّ أن حلمك عنه من ضعف وحسب ان امهالك له من عجز ولم تنهه واحدة عن أخرى، ولا انزجر عن ثانية بأولى، ولكنّه تمادى في غيّه وتتابع في ظلمه ولجّ في عدوانه، واستشرى في طغيانه جرأة عليك يا سيّدي، وتعرضاً لسخطك الذي لا تردّه عن الظالمين، وقلّة اكتراث ببأسك الذي لا تحبسه عن الباغين..

فها أنا يا سيّدي مستضعف في يديه مستضام تحت سلطانه، مستذلّ بعنانه، مغلوبٌ.. مبغيٌّ عليّ، مغضوب وجل، خائف، مروّع، مقهور...

قد قلَّ صبري، وضاقت حيلتي وانغلقت عليَّ المذاهب إلاّ إليك، وانسدّت عليَّ الجهات إلاّ جهتك، والتسبت عليَّ المذاهب إلاّ إليك، وانسدّت عليَّ الجهات إلاّ جهتك، والتبست عليَّ أموري في دفع مكروهه عنّي، واثبتت عليَّ الآراء في إزالة ظلمه، وخذلني من استنصرته من عبادك، وأسلمني من تعلّقت به من خلقك.. واستشرت نصيحتي فأشارت اليَّ بالرغبة إليك، واسترشدت دليلي فلم يدلّني إلاّ عليك..

فرجعت إليك يا مولاي صاغراً راغماً مسكيناً عالماً أنّه لا فرج لي إلاّ عندك، ولا خلاص لي الاّ بك..

أنجزْ وعدك في نصرتي، وإجابة دعائي فإنّك قلت: وقولك الحقّ: الذي لا يردّ ولا يبدّل **[وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ]**[٣١٣] وقلت: جلّ جلالك وتقدّست أسماؤك **[ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ]**[٣١٤]وأنا فاعل ما أمرتني به لا منّاً عليك، وكيف أمنّ به وأنت عليه دللتني، فصلِّ على محمد وآل محمد.. واستجب لي كما وعدتني يا من لا يخلف الميعاد.

وإنّي لأعلم يا سيّدي إنّ لك يوماً تنتقم فيه من الظالم للمظلوم، وأتيقّن أن لك وقتاً تأخذ فيه من الغاصب للمغصوب لأنّك لا يسبقك معاند، ولا يخرج عن قبضتك منابذ ولا تخاف

فوت فائت، ولكن جزعي وهلعي لا يبلغان بي الصبر على أناتك، وانتظار حلمك..

فقدرتك عليَّ يا سيّدي ومولاي فوق كل قدرة، وسلطانك غالب على كلّ سلطان، ومعادُ كلّ أحد إليك وإنْ أمهلته، ورجوع كل ظالم إليك وان أنظرته، وقد ضرّني حلمك من فلان وطول أناتك له، وإمهالك إياه، وكاد القنوط يستولي عليَّ لولا الثقة بك، واليقين بوعدك فان كان في قضائك النافذ، وقدرتك الماضية ان ينيب أو يتوب عن ظلمي أو يكفّ مكروهه عنّي، وينتقل عن عظيم ما ركب منّي... اللهمَّ فصلِّ على محمد وآل محمد وأوقع ذلك في قلبه الساعة، الساعة قبل إزالة نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وتكديره معروفك الذي صنعته عندي..

وإن كان في علمك به غير ذلك من مقامه على ظلمي فأسألك ياناصر المظلوم المبغي عليه إجابة دعوتي.. فصلِّ على محمد وآل محمد، وخذه من مأمنه أخذ عزيز مقتدر وافجأه في غفلة مفاجأة مليك منتصر، واسلبه نعمته وسلطانه، وافضض عنه جموعه وأعوانه..

ومزّق ملكه كلّ ممزق، وفرّق أنصاره كل مفرق، وأعره من نعمتك التي لا يقابلها بالشكر، وانزع عنه سربال عزّك الذي لم يجزه بالاحسان..

واقصمه يا قاصم الجبابرة، وأهلكه يا مهلك القرون الخالية، وأبره يا مبيرة الأمم الظالمة، واخذله يا خاذل الفئات الباغية، وأبر عمره، ابتر ملكه، وعف أثره، واقطع خبره، واطف ناره، واظلم نهاره، وكور شمسه وازهق نفسه، واشم شدته وجب سنامه، وارغم انفه، وعجّل حتفه، ولا تدع له جنبة الاّ هتكتها، ولا دعامة الا فصمتها، ولا كلمة مجتمعة إلاّ فرقتها، ولا قائمة علوّ إلاّ وضعتها، ولا ركناً إلاّ وهنته ولا سبباً الا قطعته، وأرنا أنصاره وجنده وأحبّاءه وأرحامه أباديد بعد الإلفة، وشتّى بعد اجتماع الكلمة، ومقنّعي الرؤوس بعد الظهور على الأمة..

وأشف بزوال أمره القلوب المنقلبة الوجلة، والأفئدة اللهفة، والأمّة المتحيّرة، والبريّة الضائعة، وأزل ببواره الحدود المعطّلة، والأحكام المهملة، والسنن الدائرة، والمعالم المغبرّة، والآيات المحرّفة، والمدارس المهجورة، والمحاريب المجفوة، والمساجد المهدومة، وأرح به الأقدام المغبّة، واشبع به الخماص الساغبة، واردد به اللهوات اللاغبة، والأكباد الظامئة، واطرقه بليلة لا اخت لها، وساعة لا شفاء منها، ونكبة لا انتعاش معها، وبعثرة لا إقالة منها، وأبح حريمه، ونغّص نعيمه..

وأره بطشتك الكبرى، ونقمتك المثلى، وقدرتك التي هي فوق كل قدرة، وسلطانك الذي هو أعزّ من سلطانه، واغلبه لي بقوتك القوية، ومحالك الشديد، وامنعني بمنعتك التي كلّ خلْق فيها ذليل، وابتله بفقر لا تجبره، وبسوء لا تستره، وكله إلى نفسه فيما يريد إنّك فعّال لما تريد، وابرأه من حولك وقوتك، واحوجه إلى حوله وقوته، وأدل مكره بمكرك، وأدفع مشيئته بمشيئتك، وأسقم جسده، وأيتم ولده، وانقص أجله، وخيّب أمله، وأزل دولته، وأطل عولته، واجعل شغله في بدنه، ولاتفكّه من حزنه، وصيّر كيده في ضلال وأمره إلى زوال، ونعمته إلى انتقال، وجدّه في سفال، وسلطانه في اضمحلال وعاقبته إلى شرّ مآل، وأمته بغيظه إذا أمّته، وأبقه لحزنه ان أبقيته، وقني شرّه وهمزه ولمزه وسطوته وعداوته، والمحه لمحة تدمّر بها عليه فانّك أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً، والحمد لله ربّ العالمين»[٣١٥].

واستجابت السماء.. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. وبدأت الاقدار تنسج خيوط حادثة مدوّية سوف تحدث في الساعات القادمة... انها مشيئة الله.

سوف يسقط الوثن البشري ويتهشم إلى الأبد...

الفصل التاسع والثلاثون

السرداب الموحش الذي لم يبدّد ظلمته القنديل، يستحيل إلى عش مفعم بالسكينة..

ان لروح الانسان الطاهر قدرة الاشعاع على ما حولها من الاشياء والنفوس.. هكذا وجد سعيد نفسه في حضرة الرجل المبارك.

التفت الامام إليه بعد أن شعر بوجوده قال له دون مقدّمة:

ـ لا يكفّ عني جعفر حتى يُقطّع إرباً إرباً[٣١٦].

فوجيء سعيد بكلمات الامام.. لكأنها تأتيه من عالم الغيب.. كسهام مخيفة..

أنه يذكر الخليفة باسمه.. ويتنبأ له بمصير رهيب.. تسمّر في مكانه.. ولكن الامام أشار إليه بكفٍّ سمراء:

ـ اذهب وأُعزب.

وفيما هو يخرج مرعوباً من القبو تناهت إليه طرقات متوالية حطّمت سكينة الليل وإذا فارس ملثم يقوله له:

ـ احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير المنتصر وهو على الركوب.

وغاب الفارس في الظلام.

لم يبق مجال للشكّ في نفس سعيد وأدرك إن ساعة اغتيال المنتصر قد حانت..

قفز سعيد على صهوة جواده بعد أن تجهز بالسلاح، وانطلق إلى قصر «الحير»، القريب من «الجعفري» وكان المتوكل قد أجبر ابنه على السكن في هذا القصر تمهيداً لأغتياله!

كان «واجن» القائد التركي قد غادر «الحير» الذي استحال في وسط الظلام والمطر إلى خلية ملتهبة بالعمليات... ولمحه سعيد بعد أن رأى حركة غير طبيعية فلحقه وهو في طريقه إلى القصر الجعفري.. كان قلبه يدق رعباً كطبل افريقي مجنون! قال واجن مُطمْئناً:

ـ لا تخف يا سعيد! ان أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه بعد انصرافنا فمات.. رحمه الله..

كان سعيد في قلبه يميل إلى المنتصر ولذا لم يكن راضياً عن فكرة اغتياله.. ولكنه كان لا يجسر على الافصاح عن ميوله في زمن يُعاقب بالموت كل من لا يصفق للطاغية في كل ما يقول ويفعل!

عاد سعيد إلى قصر «الحير» فوجد كثيراً من القادة العسكريين وبعض الشخصيات وفي طليعتهم احمد بن الخصيب وكاتبه سعيد بن حميد وكان منهمكاً في إعداد «ميثاق البيعة» للمنتصر.

وبدا واضحاً أن أحمد بن الخصيب كان يمارس مهامه كرئيس للوزراء فما أن وصل سعيد الكبير الذي بايع المنتصر على الفور حتى أُرسله ابن الخصيب إلى المؤيد لاحضاره.. والتفت إلى سعيد الصغير قائلاً:

ـ اذهب انت إلى المعتز ولا ترجع إلاّ به..

قال سعيد وهو يحاول التخلص من هذه المهمة العسيرة:

ـ ان الوضع هنا جدّ خطير.. وأمير المؤمنين يحتاج إلى حراسة.

قال الخصيب بالحاح ممجوج:

ـ ها هنا من الرجال ما يكفي!

قال سعيد بعناد!!

ـ لن أذهب حتى يجتمع من يكفي.

تدخل المنتصر لحسم الاختلاف:

ـ اتركه يا أحمد انه يعرف متى يذهب!

وانطلق سعيد يسابق الريح إلى قصر بلكوار في طريق ممهدة مرشوشة بالمطر ووجد بعض الجنود يتحدثون عن شائعات حول وفاة الخليفة.. قال أحد الحراس بغلظة وهو يخاطب سعيداً.

ـ من أنت؟!

قال سعيد:

ـ رسول الفتح بن خاقان.. ان معي رسالة هامّة..

قال الحارس:

ـ يمكنك المرور.. ولكن لا أظن أن احداً سيفتح لك الباب في هذا الوقت!

راح سعيد يطرق الباب بعنف ولكن دون جدوى كانت لحظات مصيرية فقد يصل عبيدالله بن يحيى في أية لحظة وينكشف كل شيء... وعندها سوف يسحق كذبابة.

وجاء صوت:

ـ من أنت؟

ـ سعيد الصغير رسول أمير المؤمنين المنتصر!

ومرّت اللحظات ثقيلة مرعبة!! انه الآن على حافة قبر مفتوح لا يدري من الذي

سيدحرجه فيه!!

فجأة فُتحت الباب وظهر «بيدون» الخادم:

ـ ادخل!

وأغلق الباب باحكام.. وشعر سعيد بدنو النهاية ولكنه قرر الاّ يخسر نفسه على الأقل؟ هتف في أعماقه: «سيطير رأسي»!

تساءل «بيدون» وهو يقود سعيداً إلى بهو الاستقبال:

ـ ما الخبر؟

ـ شرق أمير المؤمنين وهو على مجلس الشراب بكأس شربه ومات من ساعته.. اجتمع القادة وبايعوا المنتصر بالله.. وقد أرسلني إلى الامير أبي عبدالله المعتز ليحضر البيعة..

ترك الخادم سعيد في البهو وصعد إلى مخدع الأمير وما لبث أن عاد ليقول له:

ـ ادخل؟

وفي حالة منكسرة تظاهر بها سعيد دخل على الأمير المعتز الذي فاجأه بالسؤال قلقاً:

ـ ويلك يا سعيد ما الخبر؟!

ـ رحمه الله مات.. مات بكأس شرق بها..

وتباكى سعيد:

ـ أعظم الله لك الأجر يا سيدي.. انهض يا سيدي لتكون في أوائل من بايع لتعطف قلب أخيك عليك.

ـ الآن؟!.. كلاّ لن أذهب الآن.. في الصباح..

تدخل بيدون قائلاً:

ـ ان الأمر لا يستدعي النوم.. الذهاب الآن افضل.. وإلاّ لم يرسل وراءك أخوك.

قال المعتز بحيرة:

ـ أين عبيدالله بن يحيى؟!

وكاد قلب سعيد يقفز من بين ضلوعه ولكنه اجاب على الفور:

ـ أنه مشغول بأخذ البيعة من الناس!

وأضاف ليطيح بآخر خيوط الشك التي قد تساور المعتز.

ـ والفتح قد بايع أيضاً!

نهض المعتز على عجل ليرتدي ثيابه.. فيما وقف سعيد مع بيدون خارج القصر بانتظاره..

سلك سعيد بالأمير طريقاً بعيداً عن الشارع الرئيسي.. وألهب حصانه بالسوط قائلاً:

ـ المسافة إلى «الحير» من هنا أقصر..

كانت السماء قد كفّت عن المطر منذ ساعة، وقد بدأت نسائم السحر بالهبوب..

في منتصف المسافة ظهر فارس يصيح بـ الخادم «بيدون» فتوقف له ويبدو أنه كان يحدّثه بشيء خطير... ولكن بيدون الخادم نهره وهمز حصانه ليلحق بالأمير وسعيد وعلى بوابة قصر الحير عندما طرق سعيد الباب:

ـ من أنت؟

ـ سعيد الصغير والأمير المعتز.

وفتحت الباب لتغلق مرّة أخرى بإحكام.

وشاء القدر أن يصل الوزير قصر «بكلوارا» مقر الأمير المعتز فيجده قد غادر القصر قبل لحظات فقط.. هتف الوزير بيأس:

ـ لقد قتلني، وقتل نفسه!!

والتفت إلى أحد الحرس.. هل يمكن اللحاق به؟

الهب الحارس ظهر حصانه بالسوط، فابتسم الوزير لهذه الحركة الجريئة وشعر بالأمل..

وفي قصر الحير تم توقيف الأميرين المعتز والمؤيد، في إحدى غرف القصر، ريثما يتم السيطرة على الموقف.

وقد كان لهذه الخطوة الذكية الأثر الأكبر في شلّ قدرة الوزير الذي تمكّن من حشد أكثر من عشرة آلاف فارس مسلح، وكانوا خليطاً من الأرمن والأعراب والصعاليك والغوغاء الذين جمعتهم الاطماع اضافة إلى بضعة آلاف من تشكيلات الجيش.

وعمّت موجة من الحماس وارتفعت صيحات تطالب بالزحف نحو الشمال، والقضاء على المنتصر والقادة الأتراك الذين التفوا حوله، ولكن الوزير فنّد هذه الفكرة بقوله:

ـ لا يمكن فعل شيء ما دام المعتز في قبضتهم!

ومع أولى خيوط الشمس غادر المنتصر مع كوكبة من كبار القادة قصر الحير إلى قصر الجعفري، بعد أن تمت السيطرة على دواوين الدولة وقيادة الحرس الخاص، وأصدر المنتصر أوامره بدفن الطاغية مع رئيس الوزراء، فدفنا في قبر واحد بسبب استحالة الفصل بين الجسدين المقطّعين واختلاط أحدهما مع الآخر!!

وصيغ بيان مختصر يفيد بأن الفتح بن خاقان قد قتل الخليفة وأن المنتصر قد نفذ بالقاتل حكم القصاص..

وفيما كان الخدم يقومون بتنظيف البلاط من آثار الليلة العاصفة حدثت حركة مضادة إذ تدفق الآلاف من الغوغاء الذين تحشدوا في الفجر إلى قصر الجعفري وراحوا يطلقون هتافات معادية..

وخرج اليهم الحاجب زرافة يبشرهم بعهد جديد.. لقد اشرقت شمس الحرّية وستهب نسائم العدالة.. وستفتح أبوب السجون. ولكن الغوغاء لهم آذان لا يسمعون بها.. أنهم نتاج تربية طاغية لقنهم الخنوع والانسحاق والطمع والاعتياش على فتات الموائد..

وجاء سيل من الشتائم ما جعله يتراجع ويحيط الخليفة المنتصر علماً بما يجري داخل أسوار القصر!

وهبّ المنتصر لمعالجة الموقف بنفسه وهو يعرف كيف يواجه مثل هؤلاء الناس.. انهم مثل الكلاب المسعورة لن يفيدها سوى الرجم..

وظهر المنتصر يحفّه حرس من المغاربة بوجوههم السوداء المخيفة..

أطل المنتصر على الجموع بنظرات ملتهبة وصاح بحرسه:

ـ خذوهم!!

واندفع عشرات الحرس من الزنوج العمالقة من فوق المدرجات وحدثت الفوضى بين الجموع وداس بعضهم بعضاً حتى اخرجوا من الابواب الثلاثة ولم يبق داخل السور سوى أجساد الذين دهسوا واستحالوا في لحظات الفوضى إلى جثث هامدة[٣١٧] تبحلق عيونها في الفراغ.

الفصل الاربعون

خائفاً يترقب ذلك الرجل[٣١٨] القادم من الحجاز ها هو يحوم حول القبة البيضاء في النجف حيث يرقد بطل الإسلام والسيف المقاتل.. اليوم هو يوم الثلاثاء ٣ شوال ٢٤٧هـ.. ١٠ كانون الأول ٨٦١م كان الرجل الذي تعدّى الاربعين من عمره يتلفت في البيداء متحاشياً الاقتراب من المفارز المسلحة التي اتخذت من الروابي مقرّات للمراقبة واعتقال من تسوّل له نفسه زيارة المرقد الطاهر!

الرياح الباردة في ذلك الأصيل دفعت بالجنود الذين ملّوا هذه المهامّ القذرة إلى التماس الدفء داخل خيام تعبث بها رياح كانون..

وتمكّن الرجل من زيارة ولي الله وابن عم رسول الله، وعلى الرغم منه انبجست من عينيه دموع تختصر تاريخ طويل من القهر والظلم والاضطهاد.. تاريخ مضمخ بالدماء منقوع بالدموع. مفعم بالحزن مخزون بالغضب المقدس.

وتساءل في نفسه ما الذي دهى الامّة فلا تستطيع أن تقول للظالم لا؟! ما الذي دهى الناس فلا يستطيعون البوح عما في انفسهم من الألم والعذاب؟!

ما الذي دهى هذه الأمّة.. أحرارها في ظلمات السجون.. وعبيدها خائفون..

والمهرّجون فيها اثرياء مترفون؟!

بدت الشمس في الأفق باهتة منطفئة وراء الغيوم.. وكان الرجل يقطع المسافات في طريقه إلى كربلاء.

الرياح تلفح المسافر الوحيد الذي اقترب من «الغاضرية»، وقد غاصت الشمس في المغيب فارتسم في الأفق الغربي لون ملتهب بحمرة متوقدة كجراح الانبياء.

ولمح رجلين يختبآن بين حشائش نبتت في غابة من النخيل وأدرك على الفور أنهماجاء للزيارة أيضاً..

وحتى يبدّد مشاعر الخوف بادرهما بالتحية:

ـ سلام على زوّار الحسين.

واشرقت ابتسامة من رجل تفوح منه رائحة العطر..

قال «الاشناني» بآسى:

ـ الثيران ما تزال تحرث أرض كربلاء منذ الصباح.

تساءل الرجل:

ـ وكيف يمكن التعرّف على موضع القبر؟!

قال الذي تفوح منه روائح العطر:

ـ أنا ادلّك عليه.. استطيع ذلك من شمّ الأرض أن رائحة زكية تنبعث من المكان.

ـ أيّ رائحة هذه؟!

قال العطار خاشعاً:

ـ انني أعمل في صنع العطور منذ عشرين سنة... والله ما شممت مثلها أبداً..

ـ رائحة الفردوس!!

ـ أنا لم أشم رائحة الجنة.. ولكني أجزم أنها ليست من روائح أزهار الأرض!

ـ أريد أن أنظر إلى المكان من بعيد..

قال العطار:

ـ كن حذراً.. يوجد مسلحتين عن اليمين وعن الشمال.. فسر في الوسط. وأنظر من بعيد.. وإلاّ كان مصيرك في ظلمات «المطبق».. ولولا بعد العهد بالزيارة لم أخاطر[٣١٩] ومن بعيد راح «ابن رابية الطوري» ينظر إلى الثيران وهي تحرث الأرض.. وشاهد شيئاً عجيباً أن الثيران كانت تحيد عن بقعة محددة يميناً أو شمالاً فينهال عليها رجال غلاظ بالعصي ضرباً شديداً فلا ينفع ذلك فيها.

كان يرنو إلى تلك البقعة والتي غرقت في لجة من الدموع.. دموع صافية كاللآلئ.. طاهرة كقطرات الندى.. مخزونة بالغضب كالبراكين.. انها دمعة شيعي مقهور مطارد منذ أن جاء إلى هذه الدنيا، وخائفاً يترقب حتى لحظة الرحيل.. الرحيل من هذا العالم المليء بالشرور.

وعندما عاد إلى صاحبيه قال:

ـ انصحكما بالعودة.. لقد رأيت رجالاً كالذئاب أو أشدّ قسوة.

قال الأشناني:

ـ اننا ننتظر حلول الظلام.. سوف ينامون عند منتصف الليل.. لقد عاهدت ربّي على أن أضع علامات حول القبر.

قال الرجل:

ـ لقد زرت من بعيد.. ويتوجب علي العودة إلى بغداد قبل منتصف الليل.

ودّع الرجل صاحبيه وراح يسير بين النخيل إلى مرسى توجد فيه زوارق تنقل

المسافرين إلى الضفة الأخرى من الفرات.. وخلال الطريق راح يشدو بحزن:

تـــالله إن كانـــت أميـــة قـــد أتـــت قتـــل ابـــن بنـــت نبيهـــا مظلومـــا

فلقـــد أتـــاه بنـــو أبيـــه بمثلهـــا هـــذا لعمـــرك قبـــره مهـــدوما

أسـفوا علـى أن لا يكونـوا شـاركوا فـــي قتلـــه فتتبعـــوه رميمـــا

عندما وصل بغداد كانت النجوم تسطع في سماء صافية ماخلا بعض نتف الغيوم في الأفق الغربي ووجد نفسه يناجي ربّه:

ـ الهي.. أما آن لهذا الليل البهيم أن ينجلي؟!

الهي ادخل الطمأنينة على القلوب الخائفة.

وأنر الطريق للحائرين.. واهد يا الهي الضائعين.

آمين..

فضل ابن رابية التوجه إلى خان «عاصم»[٣٢٠] وقضاء ليلة في خان المسافرين قبل أن يذهب إلى منزله في شرق بغداد في هذا الوقت المتأخر من الليل.

تناول عشاءه بصمت وفضل الاّ يتبادل الحديث مع أي كان توجساً من آذان الجواسيس الذين يصعب التعرّف عليهم!

إن ذكر آل الرسول بخير قد يؤدي بالإنسان إلى التهلكة!

ما ان وضع الرجل المسافر رأسه على الوسادة حتى راح في اغفاءة عميقة... وفي النوم يغمض الانسان المقهور عينيه ليفتحهما على عالم غامض زاخر بالرموز..

«كان يقطع الصحراء المليئة بكثبان الرمال.. ظامئاً ينشد قطرة ماء ولم يكن في الأفق سوى السراب.. كان يركض بين الكثبان كما لو كان يسعى بين الصفا والمروة.. وعندما شعر باليأس نظر إلى السماء..».

وانتبه على صوت أذان الفجر ينبعث من منارة مسجد قريب وارتشف من ماء كوز فوق رفٍّ جرعة ماء.

بغداد ما تزال غارقة في غبش الفجر وبدت الفوانيس في الأزقة محاطة بهالة من النور صنعها الضباب الشفيف..

وفي ضوء القنديل ظلّ ابن رابية جالساً فوق سجادته يتلو القرآن بصوت رخيم..

ومع شروق الشمس عندما نزل إلى بهو الخان لتناول طعام الافطار.. شاهد همساً وحركة غير طبيعية وانتابته الهواجس..

وتذكر بأسى مصير صاحب الخان الذي لقي مصرعه تحت سياط لا ترحم ورمي بجثمانه في مياه دجلة(٣٢١).

ولذا تناول أفطاره المؤلف من رغيف خبز وقدراً من الزبدة وسدد ثمن المبيت وطعام العشاء والافطار، وأسرع بلملمة أشياءه ومغادرة الخان..

كان الشارع الذي سلكه يؤدي إلى جسر الرصافة مارّاً بسوق الرياحين ثم سوق الوّراقين.. والصاغة..

بغداد تستيقظ في كانون قبيل الضحى ولذا كانت الأسواق مقفرة ماعدا بعض الباعة الذين يبكّرون عادة.

ومن فوق جسر الرصافة بدت النخيل على امتداد جبهة النهر، وظهرت بعض القصور الفخمة التي كان يقطنها ذات يوم خلفاء سادوا ثم بادوا.. انها سنة الحياة.. كمياه النهر لا تعرف التوقف.. لابقاء إلاّ لله.. كل من عليها فان ويبقى وجه ربّك...

ووقع بصره على زحام الناس في ميدان رحب عند رقبة الجسر في جانب الرصافة..

لقد كان المشهد عجيباً خاصّة في مثل هذا الصباح البارد الندىّ... إن شيئاً خطيراً قد وقع ولا شك!! شيء دفع بهذا العدد من الناس إلى التجمهر في هذا المكان لسماع المزيد من التفاصيل المثيرة!!

وسأل الرجل أول من صادفه..

ـ ما الخبر؟!

ـ يقولون سقط الطائر بقتل المتوكل!

ـ ماذا؟!

ـ لا أحد يدري ما الذي حصل؟!

تدخل آخر قائلاً:

ـ يقولون ان الرسالة التي حملها الحمام الزاجل خالية من التوقيع!!

ـ ولكن حمام الزاجل لا يطير إلاّ من قصور الخلفاء!!

وقبل أذان الظهر كان كل شيء قد بدا واضحاً كشمس ذلك اليوم.. لقد سقط المتوكل إلى الأبد!!

وكان مشهد الافراج عن السجناء في «المطبق» وغيره من السجون مؤثراً..

عشرات الابرياء ممن قضوا أياماً طويلة في الظلمات ينظرون إلى الشمس بفرح ويملأون صدورهم بنسيم الحرّية!!

وعمّت الفرحة بغداد.

وفي سامراء.. أُفرج عن الامام المعتقل ليعود إلى منزله والابتسامة تشرق في وجهه واستقبلته أسرته بفرح وأمل..

فيما كانت نواقيس الكنائس تصّاعد في الفضاء فتتعانق مع أذان حالم ينساب من فوق المنائر.

خاصّة المنارة الملوّية التي بدت مغمورة في النور.

وفي كربلاء تدفق المئات من المؤمنين وفي طليعتهم جماعة من الطالبيين وكانت المناحة الكربلائية ذلك اليوم مزيجاً من دموع الحزن والفرح والشوق للقاء سيد الشهداء وأبي الأحرار في يوم الخلاص و الحرّية(٣٢٢)

الفصل الحادي والاربعون

هلال شوال ما يزال مبتسماً فقد اشرق زمن الحرّية، وانتهى إلى أمد ليل الطاغية الطويل..

الخليفة الجديد يتخذ قرارات تنم عن ارادة في أن يسود الخير والسلام ربوع البلاد..

ولكن لعنة غامضة ما تزال تطارد الشاب الذي أقدم على اغتيال والده في تلك الليلة

الخريفية من سنة ٨٦١م.

عمّت الفرحة انحاء البلاد وكان أكثر الناس فرحاً العلويون الذين ابتهجوا بالسياسة الجديدة..

فقد الغيت الاجراءات التعسفية كما اطلقت جميع أموالهم المجمّدة وافرج عن السجناء الذين اعتقلوا لتهم واهية، أو بسبب زيارة مرقدي الامام علي في النجف ونجله سبط النبيo الامام الحسين في كربلاء.

وخلال فترة وجيزة تم بناء مرقد الامام الحسين الذي ظل طوال عقد من السنين ارضاً زراعية وتكربها وتجوسها ثيران الحراثة كل عام.

احدث سقوط الطاغية دوّياً كبيراً هزّ المجتمع الإسلامي وكانت سامراء التي هي مركز الزلزال في طليعة المدن التي هزّها الحادث.

على أن الدفء الذي غمر الأرض بعد شتاء قارس لم يدم طويلاً فلقد اسفر المشهد الجديد عن وجود قوى تريد كسب المزيد من الثراء والنفوذ والسلطان.

فقد وجد «محمد المنتصر» نفسه محاصراً في قصره بسامراء..

كل ما استطاع فعله حتى الآن أنه أمر باخلاء العاصمة الجديدة «المتوكلية» بل وهدم جميع منشآتها ونقل مواد البناء إلى سامراء فالمتوكلية مشروع فاشل ولد ميتا لأن مشروع النهر الذي يعدّ شريان حياتها كان فاشلاً فتحققت نبوءة الرجل المبارك «علي بن محمد».

نحن، الآن في نهايات عام ٢٤٧هـ مطلع العام الميلادي الجديد ٨٦٢م.. وزعماء الحركة الانقلابية من ضباط الحرس والجيش الاتراك قد بلغوا ذروة نفوذهم ويريدون الآن تحقيق اكبر ما يمكن من التسلّط «وصيف» «بغا الشرابي» «أوتامش» و «باغر»، وقد ظهرت شخصية انتهازية ظهور النباتات المتسلقة تلك هي شخصية رئيس الوزراء الجديد «احمد بن الخصيب»، وقد بدا واضحاً أنه قد كسب ثقة الاتراك.

المشهد الآن داخل القصر.. خليفة شاب في الخامسة والعشرين من العمر، يمتاز برجاحة عقل وحسن تدبير انه يفكّر بانقاذ الخلافة من براثن النفوذ التركي المتسلّط..

واستعادة المجد العباسي..

أربعة ضباط اتراك يضمر كل منهم للآخر الكيد ويحاول افتراس صاحبه قبل أن يفترسه، فيما ظهر ابن الخصيب حرباء تتلّون حسب الظروف وأفعى تنفث سمّها وحقدها في كل اتجاه.

أما بغا الكبير فقد كان يخطو خطواته الأخيرة نحو القبر بعد أن ذرّف على التسعين.. لقد اكتفى بمساندة الاتراك وتأييد الحركة الانقلابية فقط.. ما دام ابنه بغا الصغير المعروف بالشرابي أحد قادتها ومنفذيها.

شعر المنتصر أنه ارتكب خطأ فادحاً بتعيينه أحمد بن الخصيب رئيساً للوزراء، خاصّة بعد أن تناهت إليه حادثة مؤلمة(٣٢٣) أثارت استياء الناس.

كان المنتصر قد كسب شعبية ومحبوبية بين الناس بسبب سياسته المعتدلة وتخفيفه من محنة العلويين ولكن ثمة أشياء كانت تلقي ظلالها على وجه المنتصر أنه في كل الاحوال قاتل أبيه، وقاتل الأب لكن يكون طيباً في نظر الناس مهما تفانى في طيبته! ان سياسة رئيس الوزراء ونفوذ الزعامات التركية قد اصبح واقعاً مريراً يحسّ بوطأته الشعب، وكان المنتصر يدرك ذلك جيداً، ولذا اجتاحته مشاعر الندم المريرة منذ بدء العام الهجري الجديد الذي أطلّ مع ربيع سنة ٨٦٢هـ.

واضحى قصر «المحدث» بؤرة للمؤامرات والدسائس من جديد، وما أثار مخاوف الاتراك ان المنتصر قد اصبح كئيباً يعاني من موجات حزن تنتابه بين فترة وأخرى.

كان قمر محرّم الحرام بدراً بهياً، ولم تفلح نسائم آذار المنعشة في أن تدخل البهجة على النفس المعذّبة... «المنتصر» يعيش احزانه وحيداً تحاصره مشاعر الندم.. ما الذي فعله؟!.. ان كل شيء كان يحلم في تحقيقه يتحطّم على صخرة التعسف التركي البغيض.. هؤلاء القتلة الذين مزّقوا أبي إرباً ارباً فعلوا ذلك لكي تصبح الخلافة العوبة بأيديهم.. ها أنا اصبح دمية في أيديهم.. واجتاحته موجة من الغضب فغمغم ولكن بإصرار:

ـ سوف أمزّقهم جميعاً.. قتلني الله ان لم اقتلهم وافرّق جمعهم(٣٢٤)!

لكنه يشعر باليأس.. اليأس من الاصلاح وكيف يمكنه مقاومة العاصفة المجنونة..

ان هؤلاء الاجلاف قد استعذبوا التسلّط.. سيوفهم في أيديهم.. والخناجر; واسهل ما عندهم ذبح الانسان من الوريد إلى الوريد.. الذين يعرفون «المنتصر» يعرفون مأساة الذي اكتشف أنه لم يحصد سوى الريح..

في المساء امتطى المنتصر حصانه والهبه بالسياط فانطلق به نحو الافق البعيد لكأنه يريد الهرب لا يدري إلى أين؟! وعندما عاد إلى القصر كان يتصبب عرقاً(٣٢٥) فألقى بنفسه في إيوان كانت تهب خلاله نسائم باردة.

القصر يكاد يكون مهجوراً ذلك المساء.. ولم يكن أحد يستطيع الاقتراب من المنتصر هيبة له.. انه يفضل أن يكون وحيداً مع احزانه وعذاباته..

لم يغف المنتصر طويلاً حتى هبّ من نومه مرعوباً.. يبكي.. تطارده اشباح مخيفة..

ونهض من مكانه يدور في أروقة القصر لكأنه يبحث عن شيء وعندما وقعت عيناه على أحد موظفي القصر قال له بحزن:

ـ اين ذلك البساط(٣٢٦)؟

وأدرك أيوب قصد الخليفة:

ـ عليه آثار دماء فاحشة.. وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة.

قال المنتصر:

ـ لم لا تغسله وتطويه؟

ـ اخشى أن يشيع الخبر عندما نفرشه؟

قال المنتصر بمراراة:

ـ وهل تظن ان الحادثة بقيت سرّاً.. ان الأمر اشهر من ذلك..

الفصل الثاني والأربعون

تنفس العلويون الصعداء.. في الحجاز.. والعراق.. ولأول مرّة ومنذ اكثر من ربع قرن زالت عنهم هواجس الخوف والتشرّد، وذاقوا حلاوة الأمن والحرّية.. وفي هذه الفترة الوجيزة تحسنت اوضاعهم المعيشية، وشدّ بعضهم الرحال إلى العاصمة سامراء.. خاصّة بعد إعادة «فدك» تلك الأرض الزراعية الخصيبة وكانت «حكيمة» شقيقة الامام علي الهادي في طليعة الوافدين وقد جاءت مصطحبة معها ابن الامام الاكبر محمد الذي يكنى بأبي جعفر وله من العمر ثمانية عشر عاماً.

وتمكنت السيدة حكيمة من شراء بيت قريب من بيت شقيقها الحبيب.. وبدا للكثير منهم أن الزمن يبتسم لأبناء علي بعد عبوس طويل.. ولكن إلى حين.

فلقد بدا واضحاً أن القادة الاتراك يمسكون بقبضات فولاذية على مقاليد الحكم، وسكنت حمّى النفوذ وشهوة الحكم نفوسهم.

فقد تستحيل همسة في البلاط إلى هاجس مخيف، وكان المنتصر يدرك سوء الاوضاع فاقدم على خطوة جريئة، عندما وصلته انباء مؤكدة عن تحركات عسكرية بقيادة الامبراطور تيفوئيل تستهدف اجتياح مدن مصر الساحلية..

ولذا استدعى وصيف قائلاً له:

ـ ان طاغية الروم يهدد حدودنا بغزو وشيك.. وليس هناك من يستطيع صدّه إلاّ أنا أو أنت فما رأيك.. فامّا أن تتوجه أنت أو أنا!!

قال وصيف:

ـ بل أنا!

وهكذا بدأت الاستعداد على قدم وساق في تجهيز حملة عسكرية لصد الغزو الرومي القادم.

وقد ورد في وثيقة الحملة إجراء اثار هواجس «وصيف» وهو ضرورة مرابطة وصيف في الجبهة الشمالية مدّة أربع سنين وستكون عودته بتصريح من الخليفة نفسه(٣٢٧).

وقد لقيت هذه الخطوة ترحيباً من قبل ابن الخصيب بسبب عداء شخصي مع وصيف[٣٢٨].

ولكن حالة المنتصر النفسية فيما يبدو كانت تتدهور نحو الأسوأ.. واستحالت لياليه إلى كوابيس.

وكان دائم النظر إلى السجّادة التي شهدت مصرع أبيه يتأمل في بقع الدماء التي لم تفلح المياه في ازالتها تماماً..

وما ضاعف فجيعته صور ونقوش بالفارسية أثارت اهتمامه وفي إحدى دوائر السجّادة الفارسية فارس متوّج تحيطه كتابة فارسية فسأل عن معناها..

قطب المترجم حاجبيه واعتصم بالصمت.. ولكن المنتصر اصرّ على ترجمتها فقال المترجم:

ـ الكتابة تقول: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز.. قتلت أبي فلم اتمتع بالملك إلاّ ستة اشهر.

واجتاحت المنتصر موجة من الحزن المرير، فجلس عند الصورة فيما غادر الجميع المكان..

أثارت هذه التصرّفات هواجس الاتراك، فقد بنتقم المنتصر لأبيه وكان ابن الخصيب يزيد من مخاوفهم من وجود «المعتز» و «المؤيد» فهناك ميثاق رسمي يقضي بانتقال الخلافة إلى المعتز في حالة موت المنتصر!

وفي مطلع صفر عاد وصيف إلى سامراء بذريعة واهية وبدأ التخطيط لدفع المنتصر إلى خلع المعتز والمؤيد من ولاية العهد.

في البداية قاوم المنتصر هذه الضغوط ولكنه شعر أن رفضه لذلك سيؤدي إلى تفكير الاتراك باغتيال أخويه سيما وأن الظروف السياسية السائدة مواتية.

القي القبض على الاميرين «المعتز» و «المؤيد» ليلاً ونقلا إلى حجرة في القصر..

تساءل المعتز بعدما أغلقت عليهما الباب:

ـ لم تراه أحضرنا؟!

قال المؤيد الذي أدرك ما يجري:

ـ يا شقي للخلع.

ـ لا أظنه يفعل ذلك!

ـ يا شقي هو نعم.. ولكن هؤلاء الاتراك!

في الاثناء فتحت الباب ليدخل مبعوث رسمي من قبل البلاط ومعه كاتب لضبط وتدوين ميثاق التنازل عن ولاية العهد.

بادر المؤيد للموافقة فوراً:

ـ السمع والطاعة.

ولكن المعتز قال:

ـ لن أفعل ذلك!

لكزه المؤيد قائلاً:

ـ انه القتل إذا لم تفعل!

قال المعتز مخاطباً:

ـ ابلغه بذلك.

اشار المبعوث الرسمي إلى جلاوزته، فانقضوا على المعتز وجرّه ليوضع في حجرة أخرى..

سمع المؤيد بكاءً ـ يأتي من الحجرة التي أودع فيها أخوه فصاح بالشرطة:

ـ ماذا تفعلون يا كلاب؟! دعوني اكلّمه.

وجاءت الموافقة على اللقاء، فدخل المؤيد على أخيه وربت على كتفه فكفّ عن البكاء.. قال المؤيد:

ـ يا جاهل لماذا تقتل نفسك.. اتظنّهم لا يفعلون ذلك وقد قتلوا اباك وهو هو...

ـ وماذا تريدني أفعل؟! اخلع نفسي وقد انتشر ذلك في الآفاق؟!

ـ الخلع أفضل من القتل.

سكت لحظات ثم استطرد قائلاً:

ـ إذا كان الله قد كتب لك أن تكون خليفة فستكون نصيبك.

استسلم المعتز.

تم ضبط محضر في تنازل الاميرين اللذين أمرا بتسليم وثيقة التنازل إلى الخليفة في حضور القادة الاتراك.

قال المؤيد:

ـ نجدّد ثيابنا؟

قال الموظف المسؤول:

ـ ولم لا.. ولكن هنا.. سوف نحضر ما تطلبان من ثياب!

تم اللقاء في جوّ متوتراً نسبياً، سلّم الاميران على الخليفة الذي رحب بأخويه..

تساءل المنتصر:

ـ هذا كتابكما؟!

سكت المعتز فقال المؤيد مستدركاً الوضع:

ـ نعم يا أمير المؤمنين.

والتفت إلى أخيه قائلاً:

تكلّم:

غمغم المعتز:

ـ نعم يا أمير المؤمنين.. كتابي وتوقيعي:

قال المنتصر بشجاعة:

ـ اتظنان انني خلعتكما طمعاً في أعيش حتى يكبر ولدي؟!

لا والله.. ولكن هؤلاء..

وأشار إلى الاتراك مستأنفاً:

ـ الحّو عليّ في خلعكما.. فخفت أن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما..

وأدرك الأخوان أن المنتصر لا يعرف الخداع ولذا بادرا إلى تقبيل يديه لكنه ضمّهما إلى صدره بحبّ.

وقام رئيس الوزراء الذي كان يبتسم بارتياح بتحرير[٣٢٩] وثيقة التنازل لتعميمها على جميع ولايات الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

الفصل الثالث والاربعون

سيطرت حمّى الهواجس على القصر حيث يقيم الخليفة الذي مضت على حكمه خمسة أشهر، وما زالت روحه المعذّبة مثقلة بمشاعر الاثم.. وبدأت لقاءات الاتراك تتخذ طابع التوجس من اجراءات الخليفة الذي قد ينقض عليهم في لحظة ما..

ومن يرى القائدين «وصيف» و «بغا الشرابي» لابدّ وأن يدرك انهما ما يزالان يحكمان بقبضة حديدية على مصير البلاد، كما أنه سيكتشف من لقاءاتهما المستمرة أنهما بَدَءا يتوجسان من «المنتصر» الذي لا يمكن السيطرة عليه.

وكان يثير خوفهما أنه لا يمكن اغتياله فلقد كان «مهيباً» شجاعاً، فطناً متحرّزاً[٣٣٠] ولذا بدأوا يفكرون بوسائل أخرى[٣٣١].

الرواق الذي اتخذه المنتصر مجلساً له كان مقفراً فقد انطلق الخليفة المعذب ينهب ميدان الخيل بحصانه امعاناً في الفرار.. كان بغا ووصيف يتمشيان خلال أروقة القصر عندما صادفهما موظف في القصر يعمل كاتباً في ديوان جيش الشاكرية[٣٣٢].

قال الموظف وكان يتقن الفارسية:

ـ ألم يجد الفرّاش بساطاً غير هذا ليفرشه تحت أمير المؤمنين؟

قال وصيف:

ـ لماذا؟!

ـ فيه صورة شيروية قاتل أبيه «أبرويز»

وتبادل القائدان نظرات ذات معنى، قال بغا بعدها:

ـ يجب أن يحرق حالاً!

لفّ البساط بسرعة وقبل أن يعود المنتصر ليحرق في حضرة القائدين، وكانا ينظران إلى وهج النار والى الذهب قد بدأ يسيل برّاقاً تحت السنة النار والدخان(٣٣٣).

عاد «المنتصر» من رحلته اليومية منهكاً ولفت نظره وهو يلج الرواق وجود بساط جديد..

فاستدعى الفرّاش قائلاً:

ـ أريد أن تفرش نفس البساط:

قال الفرّاش:

ـ ومن أين آتي به؟!

قال المنتصر:

ـ وماذا حصل له؟

ـ ان وصيفاً وبغا أمراني بإحراقه.

سكت المنتصر وانطوى على جراح لا تندمل.

وبدأ واضحاً خلال تلك الفترة العاصفة ان بغا الشرابي أو بغا الصغير هو الحاكم الحقيقي بالرغم من استبسال المنتصر في استعادة قدرة الحكم..

وكانت الأمور تجري وفقاً لأهواء القادة الاتراك الذين كانوا يلاحقون شخصيات العهد البائد..

وكان بعض الاشخاص يختفون في ظروف غامضة و لا يعرف أحد عن مصيرهم حتى «محبوبة» جارية المتوكل الأثيرة لم تسلم من التصفيات فقد استدعيت للغناء فرفضت فاجبرت على ذلك لكنها غنّت بلحن حزين وذكرت ليلة اغتيال سيّدها، فأصدر وصيف أمراً بسجنها.

وانقطعت اخبارها من ذلك الوقت(٣٣٤)!

وفي تلك المدينة التي نسى أهلها الله كان الامام الهادي ينظر إلى الأفق البعيد ويرى حمرة الشفق الملتهب.. ويرى سبحاً داكنة قادمة.. سوف تغمر الظلمات الأرض.. وقوافل البشر الحائرة وقد تاهت بها السبل.. وفيما كانت أصوات الغناء والموسيقى تتسرّب من نوافذ القصور.. كانت تمتمات الدعاء تتعالى من منزل في «درب الحصا» حيث يقطن الامام منذ خمسة عشر عاماً.

عاد كافور الخادم متعباً وقد دفعته نفحات الهواء البارد في تلك الليلة التي اشتد فيها هبوب الرياح الشمالية، إلى أن يدسّ نفسه في الفراش..

يتوجب عليه في هذا الوقت أن يأتي بسطل من الماء من السرداب واعداد الوضوء لسيّده الذي يتهيأ عادة في مثل هذا الوقت لأداء صلاة الليل..

لكن دفء الفراش وأمنه عقوبة السيّد كانا يدفعانه إلى تناسي مهمته الأخيرة..

لم يكن قد أغمض عينيه عندما تناهت إليه خطى تتجه إلى حجرته..

قال الامام بلهجة فيها عتب.

ـ ألا تعرف رسمي؟.. أنني لا اتطهّر إلاّ بماء بارد فلم سخنت لي ماءً؟!

فوجىء كافور وقال بدهشة:

ـ ولكن يا سيدي لم آت بالماء أصلاً!!

نظر الامام عبر الباب المشرعة إلى السماء وقال:

ـ الحمد لله.. والله ما تركنا رخصة ولا رددنا منحة..

الحمد لله الذي جعلنا من أهل طاعته ووفقنا للعون على طاعته.

وامتلأت نفس كافور اجلالاً لهذا الانسان الطاهر الذي عبدالله وحده فأكرمه الله بماء

دافىء تحمله الملائكة(٣٣٥)!

مضت ساعة من الليل وتناهت طرقات متواليات على باب المنزل الغارق في سكينة الليل..

كان الطارق «يونس النقاش».. يرتجف ولكن ليس بسبب البرد افسح كافور الخادم ليدخل المنزل.. لابد وأن الأمر جدّ خطير!

قال يونس وهو يرتجف:

ـ يا سيدي أوصيك بأهلي خيراً!

قال الامام:

ـ وما الخبر؟

ـ عزمت على الرحيل.

مبتسماً قال الامام:

ـ ولم يا يونس؟

ـ وجّه بغا الصغير اليّ بفصّ ثمين لا تعرف له قيمة وطلب مني أن انقّشه فانكسر نصفين.. والموعد غداً وهو من تعرف ياسيدي!! إما ألف سوط أو القتل.

قال الامام مهدّئاً:

ـ امض إلى منزلك إلى غد فما يكون إلاّ خيراً.

ـ وماذا أقول لرسوله؟!

ـ اسمع ما يخبرك به، فلن يكون إلاّ خيراً.

ابتسامة الامام وعيناه اللتان تتألقان بنور شفاف بعثت الدفء في قلب الرجل الخائف الذي انقلب إلى أهله.. انه يعرف الامام يعرفه من سنين طويلة.. رجل مبارك كلمّا التقاه في الطريق.. يتفتح في قلبه الأمل في الحياة.. ما تزال الدنيا في خير.. وما يزال هناك قلب ينبض بحب الناس جميعاً.

وفي صباح اليوم التالي.

كان يونس منطلق الوجه قال لكافور وقد استفسره عمّا حصل:

ـ جاءني الرسول يقول: يا سيدي.. الجواري اختصمن، فهل يمكنك أن تجعله نصفين ونضاعف لك الأجرة؟

ـ وبماذا اجبته؟

ـ قلت له: أمهلني حتى أتأمل كيف أعمله(٣٣٦).

وضحكا معاً، وكان ينبوع يتدفق حبّاً للإمام.

الفصل الرابع والاربعون

الجواسيس المبثوثون في القصر وخارجه وهم يعملون لحساب القائد «وصيف» كّونوا صورة مخيفة عن «المنتصر».. هناك خطط مبيّته للخليفة تستهدف تمزيق الاتراك في أول فرصة، وما زاد هذه المخاوف أن المنتصر ربّما تحدّث ذلك علناً وربّما تفجّر غضبه المخزون في نظرة شزراء يلقيها كلّما رأى قائداً تركياً مرموقاً(٣٣٧).

ولذا كان الأتراك قد بدأوا يفكّرون في اغتيال المنتصر والفتك به قبل أن يفتك بهم.. ولكن كيف؟!

سؤال صعب جوابه على الاتراك فالمنتصر من اليقظة والشجاعة ما يصعب فيه اغتياله ولكن هناك نقطة ضعف يمكن استغلالها ان المنتصر يعيش حالة مدمّرة من الندم واليأس ولم يكن ينظر إلى المستقبل بأمل، لكن بركان الغضب الذي انفجر في تلك الليلة العاصفة خمد فجأة استحال إلى رماد تذروه الرياح.. أنه يعاني حالة مريرة من الندم وهذا ما جعل القادة الاتراك يتوجسون منه.. لكنه لم يفكر في تكوين حرس خاص وكانت سياسته المالية المتزنة وابتعاده عن مطاردة مناؤيه من رجال العهد البائد وعدم امتلاكه لشبكة من الجواسيس سوف يسهل من عملية اغتياله بطريقة ما!

صحيح أن الناس بدأوا يميلون إليه ويحبّونه ولكن ما فائدة هذا الحب مادام الناس لا يملكون سلاحاً للدفاع عنه ولا يمكنهم حراسته أيضاً.. ان القوّة الضاربة ما تزال في ايدي الاتراك.. قوّات الحرس والجيش ما تزال في قبضة القادة الاتراك.. وكلّهم مقتنعون بضرورة التخلص من المنتصر.. باستثناء بغا الكبير فهو الوحيد الذي يعارض ذلك.. لأن الخليفة القويّ يساعد في اقرار النظام ومنع الفوضى..

ولكن «وصيفاً» و «بغا الصغير» كانا يفكران بطريقة أخرى.. ان وجود خليفة ضعيف سوف يضمن للاتراك استمرار نفوذهم.. من أجل هذا كان يترقّبان أول فرصة سانحة..

وما دام كل شيء يباع و يشترى، والذهب ما يزال يخطف العقول والابصار فلا

وجود لشيء مستحيل!

كان المنتصر قد عاد من رحلته اليومية مكدوداً تماماً وبدا أنه قد أمعن في الفرار في الفيافي شرق سامراء وكعادته عندما تجتاحه موجة من الحزن المرير أوى إلى عزلته، والقى بنفسه على وسائد خضراء اللون مشوبه بنقوش حمراء.

كانت نسائم نيسان تدور خلال أروقة القصر وستائر حريرية شفافة تميل مع النسيم الربيعي المفعم برائحة الورد.. ومع ذلك فقد كان المنتصر يتصبب عرقاً لكأنه يعاني من رؤيا تعذّبه(٣٣٨).

شاء القدر أن يستيقظ المنتصر وهو يلتهب من الحمّى مما استدعى الاتصال بـ «الطيفوري» الطبيب لاجراء فحوصاته.. اشتعلت في رؤوس الاتراك حمّى التآمر..

استقبل القادة الاتراك الطبيب قبل أن يدخل على المنتصر وكانت نظراتهم تحرّضه بشكل واضح، فأطرق برأسه ومضى.. أجرى الطيفوري بعض الفحوصات السريرية، ونصح المريض بإجراء عملية فصاد للدم، وتم الاتفاق على أن يجري ذلك بعد العشاء..

عندما عاد الطيفوري إلى المنزل وجد من ينتظر عودته، كان الرجل التركي الذي يرتدي حلّة من الديباج الاصفر ساكتاً.. واكتفى بان قدّم ثلاثين الف دينار(٣٣٩).. انه اكبر مبلغ يراه الطبيب في حياته يستطيع أن يحيا بقية عمره في دعة من العيش.. يكفي أن يبضع المريض بمشراط

مسموم(٣٤٠).. لم يصمد الطبيب أمام بريق الذهب، وضجّت نفسه بالوساوس فيما خفت صوت العقل الذي اغتاله بريق الدينار الذهبي..

تمت الجراحة وقد بذل الطيفوري جهد الابالسة في اخفاء مشاعره أمام نظرات المنتصر الثاقبة..

وعندما غادر القصر كان الطريق إلى منزله تغمره ظلمة كثيفة وشعر وهو في منتصف الطريق أن هناك من يطارد خطواته..

لم يشعر المنتصر بأي تحسّن، وعندما تناول كمثرى(٣٤١) شعر بألم شديد في معدته..

أمّه تنظر إليه بحزن.. تبكي بصمت شباب ابنها.. لم يكن محظوظاً في الدنيا حتى أبيه كان يتآمر عليه.. وفي مثل هذا العالم المليء بالذئاب لا يعيش إلاّ من يكون ذئباً..

قال المنتصر بأسى:

ـ يا أماه ذهبت مني الدنيا والآخرة.. عاجلت أبي فعوجلت(٣٤٢)!

كفكفت الأم دمعة ثكلى.

ـ لقد كنت بي بارّاً ومع الناس طيباً.. ومع نفسك صادقاً كل الناس يموتون وقليلون الذين يواجهون الموت بشجاعة.

أغمض المنتصر عينيه وغط في اغفاءة عميقة فانسحبت امه بهدوء بعد أن طبعت على جبينه قبلة أودعتها كل أمومتها..

في اليوم التالي طلب رؤية ابنه الصغير «عبدالوهاب» فقبّله وتمتم بكلمات خافته أن يحميه الله من شرور الذئاب البشرية التي تعوي في قصره..

وفي مساء يوم السبت الرابع من شوّال سنة ٢٤٨هـ كان المنتصر يودّع الحياة..

أطلّ الهلال متألقاً في سماء حزيران الصافية الشاب المسجّى ينظر بعينين فيهما أمل وهو يودّع الدنيا إلى عالم آخر.. وراح يغمغم بشعر نبع من قلبه الكسير:

فما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ولكن إلى الربّ الكريم أصير(٣٤٣)

واغمض عينيه ليغفو بسلام..

وبدأت الاستعدادات لمواراته الثرى حسب المراسم العباسية في دفن الخلفاء سرّاً..

ولكن والدته أصرّت على أعلان قبره ليكون أول خليفة عرف قبره(٣٤٤).

وتم دفنه في الجوسق الخاقاني(٣٤٥) حيث فتح عينيه على الدنيا فكان أول خليفة عباسي ولد في سامراء وتوفي فيها.

الفصل الخامس والاربعون

كشفت وفاة الخليفة المنتصر عن واقع الخلافة العباسية ومدى تغلغل الاتراك في أجهزة الحكم وسيطرتهم على البلاط العباسي الذي اضحى العوبة بين الضباط الاتراك.

لم يكن المنتصر قد دفن بعد حتى انفجر النزاع بين الاتراك الذين اجتمعوا في القصر الهاروني لاختيار الخليفة الجديد.

وفي يوم الأحد تم تحليف عشرات القادة الاتراك والزنوج وهم عماد الجيش والحرس بقبول الاتفاق الذي سيسفر عن اجتماع كل من بغا الكبير، بغا الصغير، ووصيف، أو تامش أحمد بن الخصيب، أما باغر الضابط التركي الذي قاد عملية اغتيال المتوكل فقد حرم من حضور الاجتماع فأجج ذلك في صدره مشاعر الحسد والحقد والكراهية خاصّة لوصيف فانصرف إلى تعزيز نفوذه بين الاتراك، وتحريضهم على وصيف الذي لا يرى سوى مصالحه الخاصّة والأنانية!

كانت فكرة بغا الكبير اختيار خليفة قوي يهابه جميع القادة لأن اختيار خليفة ضعيف سيؤدي تطاحن الاتراك فيما بينهم من أجل النفوذ والسيطرة والاستحواذ على مقاليد الحكم ولكن أحمد بن الخصيب اقنع الجميع بأن مبايعة أحد أبناء المتوكل يعني نهاية النفوذ التركي فقد يفكر أحدهم بالانتقام منهم ثأراً للخليفة المقتول..

وهكذا تم الاتفاق على اختيار أحمد بن محمد بن المعتصم.

فالمعتصم هو الذي أسس مجدهم وجعلهم سلاطين في هذه الدولة الكبرى، وهو وليّ نعمتهم.

لم تكن للخليفة الجديد من ميزة سوى أنه العوبة بيد الاتراك، وفي مراسم عاديّة منح لقب «المستعين بالله» وحدثت حركة مضادّة في سامراء يقودها بعض رجال العهد البائد وترمي إلى فرض خلافة المعتز وتعرض موكب الخلافة إلى هجوم زمر من المرتزقة والغوغاء(٣٤٦)، واستمرت الاشتباكات ثلاث ساعات وأعيد الخليفة إلى القصر الهاروني وخلال القلاقل سقط أحد قصور الخلافة في أيدي الناس فنهبت خزانة الدولة، وسطا الكثيرون على مشاجب السلاح وكسرت أبواب السجن الكبير.

ولكن الاتراك سيطروا على القلاقل باعلانهم عن توزيع المرتبات في مراسم البيعة العامّة.

ولم تلبث قوات الجيش والحرس أن فرضت سيطرتها على الأوضاع.. ولكن الاجواء كان يسودها التوتر..

وظهر المستعين خليفة مغلوبا على أمره يحفّه أحمد بن الخصيب رئيس الوزراء ومجموعة من الضباط الاتراك في طليعتهم أوتامش، وصيف، وبغا الصغير في حين غيّب باغر التركي الذي انطوى على احقاده وكراهيته للجميع منتظراً فرصة مواتية للانقضاض على خصومه واثقاً من تأييد قطاعات كبيرة من الجنود الاتراك بزعامة «باكيباك» القائد التركي الجريء.

قام الحكم الجديد بإجراءات احترازية منها القاء القبض على الاميرين المخلوعين المعتز والمؤيد فأودعا تحت الاقامة الجبرية في قصر الجوسق الخاقاني ووضعت عليما حراسة مشدّدة، ثم ارغما على بيع جميع ممتلكاتهما من أرض زراعية وبساتين مقابل أثمان زهيدة.

أما أحمد بن الخصيب فما انفك يحرّض على مضايقة الامام الهادي وتشديد المراقبة على منزله بل واجباره على التنازل عن داره وبيعها للدولة[٣٤٧]!

وبعث أحمد بن الخصيب في تلك الفترة رسالة إلى محمد بن فرج يطلب منه الحضور إلى سامراء والافادة من خدماته، كان محمد بن فرج قد اطلق سراحه، من السجن ولكنه لم يسترد ممتلكاته التي جمّدت في عهد المتوكل منذ سنة ٤٣٢هـ.

وكتب محمد بن فرج بدوره رسالة إلى الامام الهادي يستشيره بقبول اقتراح رئيس الوزراء فجاءه الجواب:

ـ «أخرج، فإنّ فيه فرجك ان شاء الله»[٣٤٨].

وعندما وصل محمد بن فرج سامراء حاول استرداد أملاكه المحجورة وعندما صدر القرار بإعادتها إليه كان قد توفي[٣٤٩].

وسقط بغا الكبير في فراش المرض وذهب إليه المستعين لعيادته، ثم توفي في اليوم التالي وتحققت مخاوفه من وجود خليفة ضعيف، فقد استحال القادة الاتراك إلى ذئاب شرسة يأكل بعضها بعضاً..

حضر احمد بن الخصيب إلى منزل الامام الهادي وهدّده إذا لم يتنازل عن الدار وتسليمها إليه..

وكان ابن الخصيب لا يجرؤ على ذلك في عهد المنتصر وفي حياة بغا الكبير الذي عرف عنه احترامه للعلويين منذ الرؤيا التي رآها قبل اكثر من ربع قرن[٣٥٠].

وفي العهد الجديد بدأ العلويون بالفرار مرّة أخرى.. وبدأ فصل جديد من مسلسل التشرّد المرير.. وفي غمرة الاحداث غادر «علي بن محمد» وكان موظفاً في بلاط المنتصر.. غادر سامراء مولّياً شطره صوب البحرين فالاحساء فالبصرة.. وليشعل بعد خمسة أعوام ثورة الزنوج في منطقة الأهوار جنوبي العراق[٣٥١].

بلغ من نفوذ ابن الخصيب حدّاً جعله متغطرساً في تصرفاته ووصلت به الوقاحة إلى أن يتهدد الامام ويطلب منه تسليم منزله إليه..

كان ابن الخصيب ووفقاً لتقارير الجواسيس على اطلاع على حجم الأموال التي ترد منزل الامام خاصّة في عهد المنتصر، وكان يعرف جيداً أن الامام يقوم بصرف الحقوق على الفقراء والمساكين الذين تضاعفت اعدادهم بسبب الفوضى وغياب الاستقرار والنهب.

كما أن انتشار الفكر الامامي بدأ يهدد مركز الحكم في العاصمة بعد أن اصبح الامام الشخصية التي تحظى بالاجلال واحترام الناس جميعاً.

قام رئيس الوزراء بزيارة رسمية إلى منزل الامام، الذي خرج لاستقباله فقال ابن الخصيب:

ـ سر جعلت فداك!

فأجابه الامام بكلمات تزخر بالرموز:

ـ «أنت المتقدّم»[٣٥٢].

وبعد أن استقرّ به الجلوس، وأجال نظره في المنزل، تأججت أعماقه الخاوية بالاحقاد والأطماع ولم يتمالك نفسه أن قال:

ـ لابدّ من إخلائها وتسليمها اليّ!

نظر الامام إليه بسكينة ووقار.. ان هذا المخلوق التافه يرى قدرته في، منصبه الخطير مستنداً إلى قدرة الاتراك غافلاً عن قدرة الله المطلقة.. قال الامام وقد تجلت أنوار الايمان في عينيه:

ـ لأقعدن لك من الله مقعداً لا تبقى لك معه باقية.

وشاء القدر أن يسدّد ضربتة بغتة لم تمرّ سوى أربعة أيام فقط حتى أقيل من منصبه إذ رأى القائد أوتامش أن يفرض نفسه رئيساً للوزراء معتمداً على قابليات كاتبه «شجاع بن القاسم»[٣٥٣].

أما احمد بن الخصيب فقد صودرت جميع ممتلكاته وممتلكات أولاده ونفي إلى جزيرة كريت[٣٥٤].

واصبح أوتامش الحاكم الفعلي للبلاد فيما عين «شاهك» الخادم مسؤولاً عامّاً لادارة شؤون القصر بما في ذلك الخزانة العامّة للبلاد.

اسفرت شخصية أوتامش عن ذئب أغبر[٣٥٥] يفتك بكل من يقف في طريقه فهو وراء تعيين «شاهك» الخادم في مناصبه الجديدة التي تمكنه من الاستحواذ على خزانة الدولة..

ودخلت على شبكة النهب والدة المستعين، أما الخليفة فقد انهمك في الاستمتاع بلذائذه الرخيصة تاركاً تدبير الأمور للوزير الذي تكفل تربية ابن الخليفة والاستحواذ على مخصصاته المالية الضخمة..

ولم يقف وصيف وبغا مكتوفي الأيدي، فقاما بتحريض بعض قطعات الجيش من المتضرّرين، فحوصر الجوسق الخاقاني حيث يقيم أوتامش وكاتبه.

في البداية حاول رئيس الوزراء الفرار من القصر ولكنه اخفق، فاستجار بالخليفة الذي رفض ذلك.. حوصر القصر ثلاثة أيام ثم اقتحم في يوم السبت وعثر عليه مختبئاً في قبو وتم اعدامه مع كاتبه وصودرت جميع ممتلكاته[٣٥٦].

وفي يوم الخميس الثالث من جمادى الأولى سنة ٢٤٩هـ ١٤ حزيران ٨٦٣م تحركت قطعات عسكرية من الزنوج المغاربة ورابطت عند الجسر ثم تفرقت في اليوم التالي.

وفي ١٦ تموز من الذي يصادف يوم الجمعة ٢٥ جمادى الأولى اشتعلت البروق في سماء مثقلة بغيوم مشحونة وهطلت الامطار بغزارة طوال اليوم; ثم سكنت الطبيعة بعد اصفرار الشمس قبيل الغروب[٣٥٧].

وفي غمرة الفوضى والفساد اشتعلت ثورة علوية كبرى بقيادة يحيى بن عمر من ذرّية زيد الشهيد بشعارها المتألق «الرضا من آل محمد» وكانت الكوفة مخزن الثوار على مدار الزمن

مركز الثورة، وسرعان ما امتد لهيبها إلى بغداد بعد أن تعاطف أهل السنة مع الثائر العلوي الذي بدأ اصلاحاته باطلاق السجناء في الكوفة.

واصبحت الثورة أملاً بالخلاص من ليل العباسيين الطويل..

ولكن غياب الخبرة العسكرية وفنون الحرب النظامية قد حسم الصراع لصالح العباسيين بالرغم من الانتصارات الباهرة التي أحرزها الثوار.

وكان دخول رأس يحيى على رمح طويل مدينة سامراء يوم حداد عام[٣٥٨] فيما عمّ الاستياء مدينة بغداد، وكانت الكوفة تغلي غضباً.

الفصل السادس والأربعون

تصدّعت الجبهة التركية واستشرت حمّى الاطماع والتآمر واستحال الضباط الاتراك إلى ذئاب يتربص أحدها بالآخر.

وفي الخفاء كان هناك صراع مرير يجري بين مساعدي الاتراك من اليهود والنصارى للحصول على المزيد من الأسلاب وظهر باغر كذئب أغبر لا يتورع عن الفتك بكل من يقف في طريقه، وشاء القدر أن تصطدم المصالح والمنافع الشخصية بين «بغا الشرابي» و «باغر» وكانت نقطة الاصطدام في الكوفة. فقد دسّ وكيل باغر اليهودي على ابن مارما النصراني وتآمر عليه فزجّه في السجن، وفرّ ابن مارما فيما بعد متجهاً صوب سامراء، وكان دليل بن يعقوب يعمل كاتباً لبغا فاستغلّ نفوذ بغا في منع باغر من الانتقام من ابن مارما.

وكان باغر ضابطاً يعمل تحت امرة بغا، ولكن الأخير كان يخشى باغر; ويحاول ارضاءه.

وبدأت الحوادث بالانفجار عندما جاء باغر سكران ليدخل على بغا وهو في الحمام وهو يتهدد «دليل بن يعقوب» بالقتل، قال بغا مدارياً الضابط الشرس:

ـ لو أردت أن تقتل ابني فارس ما منعتك فكيف امنعك من قتل دليل؟!

ـ إذن دعني اقتله!

ـ ان شؤون الخلافة بيده.. دعني أولاً أعيّن شخصاً آخر يقوم بعمله.

قال باغر بلغة تركية وهو يصرّ على أسنانه:

ـ لابدّ من قتله!

سكت بغا ولم يعلق على ما قاله باغر الذي انصرف وهو يترنح سكراناً أوعز بغا إلى كاتبه دليل إلاّ يغادر منزله فقد يتعرّض للاغتيال، كما قام بتعيين شخص آخر ليوهم باغر بعزل دليل عن مسؤولياته.. وحاول أن يصلح العلاقات بين باغر ودليل.. ولكن باغر ما انفك يتّهدد دليل بالقتل.

قرر باغر أن يكون له مقرّ في البلاط ويكون ضابطاً ثابتاً في قصر الخلافة، ووافق المستعين على مضض خشية من أن يقوم باغر باغتياله..

وتصاعدت حمّى التآمر عندما طلب المستعين من وصيف ترقية باغر ليكون المسؤول عن ادارة شؤون البلاط وأن يكون له دور «ايتاخ» في عهد المعتصم.

وشعر دليل بالخطر فحرّض بغا على التدخل لأن السماح بذلك يعني نهاية «بغا».

وعلى وجه السرعة قام بغا بزيارة مفاجئة للقصر، ونذّد بموقف وصيف الذي أبدا استعداده للوقوف إلى جانب بغا، واتفق القائدان سرّاً على اغتيال «باغر» في أول فرصة.

انتشرت شائعات حول نيّة القصر بترقية باغر إلى رتبة أمير، وستضاف إلى قوّاته قطعات أخرى من الجيش.

ولكن باغر شعر بان هناك من يتآمر ضده في الظلام فاجتمع سرّاً بأنصاره وكان بعضهم قد اشترك في عملية اغتيال المتوكل فعاهدوه على الوفاء له، واستقرّ رأيهم على القيام بحركة انقلابية تسقط فيها رؤوس كثيرة في طليعتها رأس الخليفة ورأس وصيف وبغا ثم تعيين خليفة آخر من أولاد المعتصم أو الواثق يحكمون باسمه!

وتسرّبت الأخبار إلى المستعين عن طريق زوجة باغر المطلّقة والتي باحت بذلك إلى المستعين!

وشعر الخليفة الضعيف بالرعب فاجتمع بالقائدين وصيف وبغا الذي وصلته الانباء عن طريق آخر.

واسفر الاجتماع عن تعيين موعد لاغتيال «باغر» في قصر «بغا» بسبب تردد باغر على القصر كجزء من واجبه كضابط ما يزال يخدم تحت إمرة «بغا»!

وسقط باغر في الفخ فاعتقل وسجن في الحمام.

وطارت الأخبار المثيرة إلى جنوده الذين هبّوا لنجدته وحدثت الفوضى في سامراء بسبب عنف التحرك في الكرخ وحركة الجنود المتذمّرين إلى الجانب الايمن من النهر.

وقام الجنود باحتلال ونهب بعض قصور الخلافة وحوصر قصر الجوسق الخاقاني.

ولتحطيم هيبة الجنود المشاغبين أمر وصيف بقتل باغر.

وكان المستعين قد لجأ إلى قصر وصيف المطلّ على الشاطىء.

وتضعضعت معنويات الجنود الذين رأوا بأعينهم رأس باغر الضابط العملاق، لكنهم اصرّوا على المرابطة مطلقين صيحات بالتركية تتهدد الجميع.

قرّر وصيف وبغا اصطحاب الخليفة والهروب إلى بغداد فاستقلّوا «حرّاقة» راسية في النهر وانحدروا إلى بغداد.

سيطر الجنود الثائرون على سامراء، ونهبت بعض القصور وقطعوا كافة الاتصالات مع بغداد.

وظهر «بايكباك» و«كلباتكين» و «ارناتجور» قادة للحركة العسكرية الجديدة.

وعندما اطل عام ٢٥١هـ كان الوضع ينذر بوقوع كارثة، خاصّة عندما حاول المستعين تعبئة قوّات من الزنوج المغاربة ضد الاتراك المتمرّدين; أدرك القادة الاتراك في سامراء أن مصيرهم سيكون مجهولاً، ولذا قرروا ارسال وفد برئاسة القائد «بايكباك» لتقديم اعتذار للخليفة واقناعه بالعودة إلى العاصمة وكادت المفاوضات تسفر عن نتيجة مرضية ولكن «بايكباك» تلقى صفعة

بسبب تعدّيه اصول اللياقة في مخاطبة مقام الخليفة، فعاد إلى سامراء وهو يضمر الانتقام من الجميع.

دخلت الاوضاع مأزقاً خطيراً باقدام الاتراك على رفع الاقامة الجبرية عن المعتز واعلانه خليفة بدل المستعين الذي أعلنوا عن خلعه!

وفي هذه الفترة العصيبة ظهر رجال عهد المتوكل لتعزيز موقع المعتز الذي يمثل امتداداً لسياسة أبيه، وبدأت في سامراء تعبئة جيش كبير للزحف على بغداد التي بدأت هي الأخرى تستعد للمقاومة باقامة خطوط دفاعية واستحكامات كلّفت الخزانة مبالغ طائلة.

قام المعتز بمصادرة ممتلكات اقرباء المستعين لتعزيز ميزانية الحرب، ووقف اليهود إلى جانبه بزعامة «الديزج» الذي عيّن قائداً للشرطة!

كما عُيّن أحمد بن اسرائيل رئيسا للوزراء لادارة شؤون البلاط والخلافة واصبحت فكرة الزحف لاحتلال بغداد وشيكة التنفيذ.

الفصل السابع والاربعون

لجأ المستعين إلى قصر محمد بن عبدالله بن طاهر حاكم بغداد وشرق ايران واصبحت دفّة الأمور في يد الحاكم الذي كان يعيش شكلاً من التردد بين مناصرة الخليفة الهارب أو الوقوف إلى جانب المعتز ابن المتوكّل الذي تربط اسرته معه صداقة قديمة..

وعملياً كان ابن طاهر يقود حركة الدفاع فاتخذ إلى جانب بناء خطوط بغداد الدفاعية

اجراءات لعرقلة الزحف القادم من الشمال.

تم تدمير جميع القناطر على كل الانهر المحيطة ببغداد وفتح الانهار لاغراق الأراضي التي تقع في تقدم الاتراك إذا ما راموا الزحف من جهة «الانبار».

أما بغداد فقد باتت محصّنة بسورها الكبير الذي امتد من «الشماسية» شمال بغداد إلى «سوق الثلاثاء» إلى دجلة ومنها إلى «بساتين زبيدة»، كما استكمل حفر الخنادق على امتداد السور الطويل واصبحت المجانيق الصغيرة والكبيرة جاهزة لاطلاق حممها الملتهبة، اضافة إلى عشرات العوارض المجهزة بمسامير طويلة.

وكان المنجنيق الذي يدعى بـ «الغضبان» رابضاً أمام باب كبيرة معلّقة.

كما عبأ ابن طاهر عياريّ بغداد وهم عشرات الألوف ورصد لهم مكافآت ومرتبات مغرية اضافة إلى استخدام مئات المرتزقة.

وهكذا سيطرت أجواء الحرب على الحياة في بغداد وبدأ ارتفاع الاسعار في المواد الغذائية.

وفي مطلع «صفر» ٢٥١ هـ زحفت قوات الاتراك بقيادة أبو أحمد بن المتوكل العامة فيما كان «كلباتكين» القائد الميداني الذي يصمم وينفذ خطط المعارك القادمة.

وخلال الزحف دُمّرت القرى الواقعة في الطريق واستولى الاتراك على جميع المحاصيل الزراعية.

وفي السابع من «صفر» نقل الجواسيس نبأ وصول القوّات الزاحفة المنطقة المتاخمة للشماسية في أطراف بغداد.

كما أفادت تقارير أخرى عن وجود خطة لاحراق الاسواق في جانبي بغداد، فتمّ كشطها جميعاً.

وفي يوم الثلاثاء ١٠ صفر قام ابن طاهر القائد العام لقوات الدفاع عن بغداد بحركة لاستعراض قوّاته أمام الاتراك لارهابهم مصطحباً معه مجموعة من الفقهاء والقضاة لا يفادهم إلى أبي احمد والتفاوض معه حول تفادي وقوع الحرب مقابل اعلان «المعتز» وليّا للعهد ولم تجدِ هذه الخطوة شيئاً، فيما قام الاتراك المرابطون قرب الشماسية باستفزازات لتفجير الوضع ولكن ابن طاهر اصرّ على عدم الردّ.

وتقدّم بعض الفرسان الاتراك صوب الباب ووجهوا زخة من السهام اكتفى قائد الحامية بالردّ عليها بقذيفة منجنيق قتلت أحدهم فانسحب الباقون.

وفي نفس اليوم وصلت تعزيزات من عدّة مئات من المرتزقة بغداد للاشتراك في حرب الدفاع.

وصعّد الاتراك في اليوم التالي الموقف بتكثيف هجماتهم على باب الشماسية وبات واضحاً أن المعارك الرئيسية سوف تشتعل في هذه المنطقة فارسلت تعزيزات اضافة مؤلفة من الفرسان والمشاة.

وفي أول اشتباك عنيف سقط عشرات الجرحى والقتلى في صفوف الفريقين.

وقامت كتائب من الاتراك بمحاولة لاقتحام بغداد من باب خراسان في الجانب الشرقي فاخفقوا.

ولم يحدث في نهر دجلة أي اشتباك يذكر.

وفي «قطربل» تقدم الزنوج بقيادة ربلة المغربي الذي كان يقود قوّات من «الفراغنة» أيضاً واتخذت القوات المتقدمة مواقعها قريباً من الدفاعات، وحدث تراشق عنيف بالسهام.

وقامت القوّات المدافعة بغارة ليلية جريئة فاكتسحت المناطق المحتلة ورمى الجنود الفارّون انفسهم في دجلة لعبور النهر إلى معسكر أبي أحمد في الجانب الشرقي، ولكن «التيارات» المشحونة بالمقاتلين قطعت عليهم الطريق فتم أسرهم فيما غرق الباقون.

وقد أدّى هذا النصر الساحق إلى أن يغيّر الاتراك الزاحفون خططهم وعندما

وصلت انباء هذه الهزيمة إلى سامراء انتعشت آمال الناس وحدثت حركة شعبية مضادة لخلافة المعتز[٣٥٩].

وكان سير المعارك والاشتباكات يسير لغير صالح الاتراك. وفي غمرة الحرب الاهلية وتدهور الاوضاع الاقتصادية اندلعت سلسلة من الثورات العلوية، في «اردبيل» و «الري»

وثورة في مكة وفي الكوفة وفي قزوين وزنجان.

تبادل المتحاربون النصر والهزيمة وكانت أمطار آذار تخفف من حدّة الاشتباكات التي حصدت عشرات الأرواح من السكان. وظهر عبيدالله بن يحيى وزير المتوكل في بغداد بشكل محيّر وليلعب دوراً في تمزيق جبهة بغداد بعد أن اقنع ابن طاهر بالتخلّي عن المستعين مؤكداً له أن الأخير يتآمر عليه بل أنه طلب من وصيف وبغا اغتياله والقضاء عليه.

وقد كان لهذه الخطوة اضافة إلى تدهور الاوضاع الاقتصادية وغلاء الاسعار وتذمّر السكان من الحصار أثراً كبيراً في تحرّط ابن طاهر وضغطه على المستعين للتنازل عن الخلافة وقد حصل ذلك بعد انشقاق بغا ولجوئه إلى المعتز.

وفي شهر ذي الحجة ٢٥١هـ شتاء عام ٨٦٦م وقّع المستعين وثيقة التنازل مقابل ضمان سلامته وأفراد اسرته وسلّم حلّة الخلافة ليغادر بغداد منفيّاً إلى مدينة واسط العراقية.

وأطلّ عام ٢٥٢هـ فيما كانت رياح كانون الباردة تلفح الوجوه ورعود الثورات تدوّي في كل الآفاق، وبدا تمثال الفارس حائراً لا يدري أين يشير برمحه الطويل(٣٦٠)؟!

وتصاعدت في هذه الفترة المتفجرّة وتيرة الاغتيالات، التي تحدث لأقل الشكوك.

وظهرت «قبيحة» أم المعتز كذئبة مجنونة تريد الانتقام من الجميع ولم يكن المعتزّ الذي ناهز التاسعة عشرة من عمره سوى أداة طيعة في يدها وأيدي القادة الاتراك الذين أثروا ثراء فاحشاً في الحرب الاهلية.

ولعب الجواسيس دوراً في انتشار الرعب، وانعدام الثقة.

وكانت أم المعتز تدير شخصياً شبكة مرعبة من الجواسيس وفي ضوء التقارير الصحيحة والكاذبة تسقط الرؤوس ويموت الناس في ظروف غامضة.

كان المعتز قد زجّ بأخويه في السجن «المؤيد» و «طلحة» الذي قاد الزحف على بغداد وحصل على لقب «الموفق».

استدعى المعتز «بغا الشرابي» حول معلومات تفيد بعزم الاتراك على اطلاق سراح المؤيد من السجن.. ولكن بغا الشرابي نفى ذلك بشدّة مؤكداً ان الاتراك يكنون احترامهم

فقط لقائد الحملة على بغداد!

في مدينة «بلد» توفي أحد ابناء الامام الهادي في ظروف غامضة، وكان «محمد» الذي يبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة قد غادر سامراء مفضلاً العودة إلى المدينة المنورة(٣٦١).

وقد هزّت الحادثة الأسرة الطاهرة، فلقد كان ذلك الشاب النبيل محطّ الآمال(٣٦٢); خاصّة الذين عرفوه وعرفوا اخلاقه الكريمة.

وسرعان ما توفى المؤيد في سجنة ورتّب محضر رسمي في أن الوفاة كانت طبيعية!

كانت «قبيحة» تصرّ على تصفية «المستعين» المخلوع، فصدرت أوامر شخصية من المعتز إلى «أحمد بن طولون» حاكم «واسط» باغتياله الذي رفض ذلك، لكنه وافق فيما بعد على ترحيله إلى سامراء.

وفي «سامراء» تم تسليمه إلى «سعيد الحاجب».

ولم يمهله سعيد وقتاً فأهوى عليه بالسيف ليتدحرج رأسه قرب النهر.

كان المعتز يلعب الشطرنج عندما جاءوا إليه برأس ابن عمّه فلم يلتفت إليه وقال وهو يشير إلى رف.

ضعوه هناك حتى انتهي من «الدست»(٣٦٣).

واكتفى بنظرة عابرة ثم أشار إلى حرسه بأخذه.

وصدر «عفو رسمي» عن وصيف وبغا بعد مساع قام بها اسماعيل ابن «قبيحة» وشقيق المعتز وضغوط الاتراك(٣٦٤).

وتم تنصيب اسماعيل ولياً للعهد(٣٦٥).

كما توفي «زرافة» أحد المؤيدين لحركة المنتصر بعد نجاحها(٣٦٦).

وبدا واضحاً أن هناك حرباً خفية للسيطرة على البلاط.

وارتفعت حمّى الاغتيال وسيطر جوّ المؤامرات على سامراء.

وفي غمرة هذه الاجواء كان منزل الامام يخضع لمراقبة خانقة ومع ذلك فقد تدفق

الناس إلى منزله لتقديم التعازي في ولده الشاب محمد.

كان المنزل يغصّ بعشرات المعزّين، وقد بدا «أبو الحسن» حزيناً وهو جالس على كرسي يتقبل العزاء.. وجهه الاسمر تغمره هيبة النبوّات وجاء ابنه الحسن فوقف عن يمين والده..

التفت إليه الوالد بحنوّ قائلاً:

ـ يا بني أحدثْ لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً(٣٦٧).

قال الحسن بخشوع:

ـ الحمد لله رب العالمين.. واياه أسال تمام نعمه لنا منك..وإنا لله وإنا إليه راجعون(٣٦٨).

وكان أبو هاشم يصغي إلى همسات البعض يتحدثون عن توقعاتهم في ان الشاب سيكون هو الأمام بعد رحيل والده.

واشتعلت في ذهن أبي هاشم قصة قديمة عندما توفي «اسماعيل» في زمن والده «الصادق» وظن بعض الشيعة أنه الامام بعد والده فانكروا امامة موسى الكاظم بل وانكروا حتى وفاة «اسماعيل» فظهرت فرقة «الاسماعيلة» منذ ذلك الوقت.. آه ما اشبه قصة الحسن مع أخيه محمد، قال الامام الهادي كما لو أنه قرأ ما يموج في قلب صاحبه:

ـ نعم يا أبا هاشم هو كما حدّثتك نفسك وإن كره المبطلون..

وسكت لحظات نظر خلالها إلى ابنه الحسن عن يمينه ثم قال:

ـ أبو محمد ابني الخلف من بعدي.. عنده ما يحتاج إليه ومعه آلة الامامة والحمد لله رب العالمين.

واعتصم بصمت الانبياء ثم تمتم لكأنه ينظر إلى الزمن القادم:

ـ كيف لكم بالخلف بعد الخلف؟!

تساءل أبو هاشم:

ـ ولم جعلني الله فداك؟!

قال الامام مبشّراً:

ـ لأنكم لا ترون شخصه ولا يحلّ لكم ذكر اسمه.

ـ فكيف نذكره؟!

ـ قولوا: الحجة من آل محمد(٣٦٩)!

الفصل الثامن والاربعون

البلاط الآن في أخريات عام ٢٥٢هـ تسيّره قدرة غامضة مؤلفة من أم المعتز زوجة المتوكل والمرأة الأكثر ثراءً في سامراء يعاونها الوزير النصراني ابن اسرائيل وغلام المتوكل النصراني وكان الشخص الوحيد الذي يرافق المتوكل واستطاع الفرار عشية اغتيال الضباط الاتراك للخليفة، وها هو الآن يصبح من ابرز الشخصيات في بلاط المعتز!

وكانت سياسة المعتز تصفية أعداء والده المتوكل ايا كانت اتجاهاتهم ولذا قام بترقية الضباط المغاربة ليكونوا عماد حرسه الخاص ويفرض بذلك سطوته فكان لوليد المغربي حصّة الأسد واصبح قائدا عسكرياً مرموقاً في تلك الفترة العاصفة.

واجتاحت بغداد وسامراء حملة اعتقالات واسعة طالت عشرات العلويين أو ممّن تشم فيهم رائحة الولاء لأهل البيت وكان في طليعة من اعتقل أبو هاشم الجعفري بأوامر شخصية من المعتز بذريعة ان البلاط يفكّر في ارساله إلى «طبرستان» للتفاوض[٣٧٠] مع الثائر العلوي «الحسن بن زيد» وتهدئة القلاقل هناك فنقل مخفوراً إلى سامراء في تلك الفترة.

وبدت خزانة الدولة بسبب الفوضى عاجزة عن سدّ نفقات الاتراك والمغاربة الذين قدرت ميزانيتهم بـ ٢٠٠/٠٠٠/٠٠٠ دينار سنوياً وهو ما يساوي ايراد الدولة في عامين[٣٧١]!

ولذا توقف صرف المرتبات إلى بعض القطعات العسكرية التي تضم المغاربة والاتراك المنضوين تحت قيادة بايكباك الذي كان مستاءً من عودة وصيف وبغا وتسنمها مواقع قيادية كبيرة.

وفي ٢٦ شوال اندلعت حركة عسكرية سادتها مظاهر الشغب وكانت تطالب بدفع

مرتبات اربعة أشهر.

وقد استدعت الاوضاع ان يتوجه «بغا الشرابي» و «وصيف» و «سيما» بأنفسهم للسيطرة على الموقف..

وعد بغا المشاغبين بأنه سوف يفاتح الخليفة شخصياً وغادر المكان فوراً فيما أقدم «وصيف» على خطوة حمقاء إذ قذفهم بحفنة من التراب صائحاً:

ـ خذوا تراباً بدل المال!

وقد فجرّت هذه الخطوة الموقف إذ هاجم بعضهم وصيفاً وسدّد له ضربتين وطعنه آخر بسكين ولكن أحد القادة المرافقين له انقذه ونقل إلى منزل قريب.

وشعر المشاغبون بالخطر عندما تأخر بغا في العودة ولذا هاجموا المنزل وانهالوا بالطبرزينات على وصيف حتى الموت ثم احتزوا رأسه، واندفع الغوغاء إلى نهب قصوره في سامراء وفي تلك اللحظات المصيرية ظهر ابنه «صالح» فقاد حركة جريئة وسيطر على الاوضاع بنجاح مما اضطر «الخليفة» إلى منحه جميع امتيازات والده.

وفي ذي القعدة أقدم صالح على خطبة ابنة بغا بعد أن وجد القائدان نفسيهما بحاجة إلى ترتيب جبهتهما ضد الخليفة وأنصاره من المغاربة والاتراك بقيادة بايكباك.

وهكذا سيطر جوّ محموم من التآمر والقى الرعب ضلاله الرهيبة وانعدمت الثقة بين الناس.. وكانت رائحة الشائعات تزكم الانوف.. وفي ذلك الزمن الرديء سُمع الامام الهادي يقول:

ـ «إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور، فحرام أن يُظنّ بأحد سوءً حتى يُعلم ذلك منه، واذا كان زمان الجور أغلب فيه من العدل، فليس لأحد أن يظن بأحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه..»[٣٧٢].

كان قد مضى شطر من الليل عندما كان «كافور» الخادم يجوس ازقة سامراء متجهاً صوب منزل بشر بن سليمان النخاس الذي اكتسب سمعة طيبة في تجارة الرقيق، فهو يتاجر بشراء العبيد والجواري ولكن وفق مبادئ اخلاقية دقيقة ولا يتورّط في صفقات يمكن أن تكون مشبوهة..

لقد تدنست تجارة الرقيق وغلب عليها الحرام.. الثورات والقلاقل الداخلية وبطش وقسوة الحاكمين وعدم تورّعهم من بيع السبايا المسلمات[٣٧٣] جعل من تجارة الرقيق سوقاً دنسة.. ومع ذلك فلا يعدم المرء أن يعثر بين النخاسين من يترفع عن ارتكاب الحرام ويتاجر بالمسلمات اللائي غارت القوّات الحكومية على منازلهن في المناطق المتوترة هنا وهناك.

مضى شطر من الليل ورياح كانون تجوس سامراء الأبواب موصدة وعواء ذئاب بعيد يتناهى خلال الريح الباردة سرعان ما يضيع بين سنابك حصان يمرق على عجل..

عندما جاء بشر لم يكن ليدرك بعد ماذا يريد الامام منه، ولكنّه خمّن أن الأمر يتعلّق بالرقيق على كلّ حال.

اتخذ بشر النخاس مجلسه قبال الامام وراح يتأمل بخشوع الوجه الأسمر والعينين اللتين تكادان تختصران العالم!

آه ما أنبل هذا الانسان.. انه لا يعرف رجلاً يعامل عبيده وجواريه هذه المعاملة لكأنهم أولاده وبناته.. أي قلب ينطوي عليه صدر هذا الرجل المبارك؟!

ان من يراه لن يصدّق أنه لم يبلغ الأربعين بعد! ولكن الشيب اشتعل في رأسه فهو يبدو في الستين!

أية أهوال أحالت هذا الشاب إلى شيخ وهو لم يناهز الأربعين سنة؟!.. انه يحدّث أخته الجالسة وراء الستر بصوت فيه عذوبة الينابيع..

ابتسم الامام لضيفه وقال بود:

ـ يا مبشر: انك من ولد الأنصار.. وهذه الموالاة لم تزل فيكم يرثها خلفٌ عن سلف، وانتم ثقاتنا أهل البيت.. وانّي مزكّيك ومشرّفك بفضيلة تسبق بها سائر الشيعة.. بسرّ اطلعك عليه.. وانفذك في ابتياع أمة!

ونشر الامام في ضوء القنديل قرطاساً وراح يسطر بلغة رومية وحروف رومية رسالة.. ولصق الامام الرسالة وختمها.. ثم أخرج «شنتقة»[٣٧٤] صفراء فيها ٢٢٠ ديناراً وسلّمها إلى بشر النخاس قائلاً:

ـ خذها وتوجه إلى بغداد إلى معبر الصراة.. وانتظر قدوم زوارق السبايا فإذا برزن الجواري فستحدق بهن طوائف المبتاعين من وكلاء قوّاد بني العباس وشراذم من فتيان العراق، فإذا رأيت ذلك، فأشرف من البعد على المسمّى عمر بن يزيد النخاس عامّة نهارك.. إلى أن تبرز إلى المبتاعين جارية رومية ترتدي حريرتين صفيقتين تمتنع من السفور ولمس المعترض، والانقياد لمن يحاول لمسها ويشغل نظره بتأمّل مكاشفها من وراء الستر الرقيق..

في الصباح الباكر كان بشر يتجه صوب شارع الخليج حيث ترسو السفن القادمة من بغداد أو التي تنتظر مسافرين يتجهون اليها..

رائحة المياه الغرينيه تملأ صدره، وكانت الشمس قد اشرقت فوق ذرى النخيل على امتداد جبهة النهر..

القى الملاح نظرة فربما يأتي مسافر آخر ولكن المرسى كان خالياً الاّ من بعض صيادي السمك وانسابت السفينة الشراعية يحملها التيّار المائي برفق تساعده نسائم الصباح التي تهب من الشمال.. في الضحى اجتازت السفينة معبر «الشماسية» ولاحت بعض جذوع النخيل المحترقة في الحرب الاهلية قبل اكثر من عام، وما تزال آثار الحرب واضحة في الضفاف.. بقايا السور الطويل الذي صمد بوجه الاتراك، وبعض الدور المهدّمة.

رست السفينة قرب نهر الصراة، وغادرها بشر متجهاً نحو المعبر واتخذ مكانه في مكان تغمره شمس الضحى الدافئة..

على مقربة من المعبر ينهض سوق الرقيق، وقد تشكل وفق متطلبات هذه التجارة.. دكّة ينادي عليها النخاس ومكان تعرض فيه الفتيات من وراء ستر شفاف.. أما إذا كان الرقيق غلماناً فيقفون قرب النخاس..

وصلت الزوارق وترجّلت منها فتيات يرتدين اشكالاً مختلفة من الثياب.. وبدأ سوق الرقيق يضج بالحركة والحياة..

وبدأ أحد النخاسين باطلاق أول نداءات هذه التجارة البشرية:

ـ حسناء تجيد الطهي وشيئاً من الغناء وتحفظ أخباراً مليحة..

قال رجل تبدو عليه الخبرة:

ـ وكم عمرها؟

ـ عشرون سنة.

ـ لتبرز حتى نراها.

صاح النخاس:

ـ خيزران!

نهضت فتاة عليها ملامح سكان أرمينيا.

حضر رجال آخرون يرتدون بزّات رسمية تدلّ على أنهم موظفون في الدولة أو وكلاء لبني العباس.. كما تحلّق بعض الشبان يمتعون النظر في وجوه الفتيات الجميلات.

وقف بشر قرب دكّة عمر بن يزيد النخاس.. يراقب عن كثب ما يجري.. كان النخاس قد باع جاريتين حتى الآن وينادي على الثالثة وكانت هناك فتاة رابعة تختبىء وراءها وعندما بيعت الثالثة بقيت فتاة في الرابعة أو الخامسة عشر من عمرها.. نادى النخاس بغلظة:

ـ عمرها أربعة عشر سنة رومية تحسن العربية كادت الفتاة تذوب حياءً وهي تحاول الاختباء تحت ثيابها الفضفاضة.

صاح شاب:

ـ لكننا لا نرى شيئاً!!

وعلق آخر:

ـ نعم دعنا نراها أولاً:

أزاح النحاس الستر جانباً وأراد أن يمسك بردنها لكنها جذبته وصاحت وبلسان رومي.

وأراد أحدهم أن يجذب نقابها فانكفأت إلى الوراء وقد اشتعل غضب الكرامة في عينيها.

قال رجل:

ـ كيف تريدنا ابتياعها هكذا؟!

انهال النخاس عليها بسوط كالأفعى فصرخت الفتاة بألم وحزن.. آه ما أسوأ أن يباع الانسان ويشرى في السوق كالحيوان؟!

هتف رجل تبدو عليها سيماء الصلاح:

ـ انني اشتريها بثلاثمئة دينار.. فقد زادني العفاف فيها رغبة.

قالت الفتاة بلغة عربية فيها لهجة رومية:

ـ لو برزت في زيّ سليمان بن داود وعلى مثل سرير مُلكه ما بدت لي فيك رغبة.. فأشفق على مالك.

صاح النخاس:

ـ وماذا أفعل أنا؟ ولابدّ من بيعك؟

قالت الفتاة:

ـ ولم العجلة؟ انني لن اختار الاّ من يسكن إليه قلبي واطمئن إلى وفائه وأمانته.

وأراد النخاس أن يصفعها ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة..

انفض الناس وانصرفوا إلى غيره.. وفي هذه اللحظة تقدّم بشر وحيّا النخاس بأدب قائلاً:

ـ ان معي كتاباً ملصقاً لبعض الاشراف، كتبه بلغة رومية وخطّ رومي، ووصف فيه كرمه ووفاءه ونبله وسخاءه، فناولها لتتأمل منه أخلاق صاحبه، فإن مالت إليه ورضيت فأنا وكيله في ابتياعها منك..

هزّ النخاس رأسه موافقاً وتقدّم بشر إلى الفتاة التي كانت ترتدي زيّا رومانياً اضفت عليه حشمة النصارى حياءً وستراً..

فضت الفتاة الرسالة المختومة وراحت تتأمل كلماتها وقد تألق وجهها بالفرح..

وامتلأت عيناها بالدموع قالت بصوت تهدّج بعاطفة نبيلة:

ـ بعني من صاحب هذا الكتاب!

التفت النخاس إلى بشر:

ـ لن أرضى بأقل من ثلاثمئة دينار.

هتف بشر:

ـ هذا ثمن باهض!!

ـ لقد سمعت بنفسك الرجل الذي دفع هذا المبلغ.

ـ هذا صحيح ولكن أنا أيضاً يا صاحبي اعمل في الرقيق.. ان ثمنها مرتفع.

ـ لن ابيعها بأقل من ثلاثمئة.

هتفت الفتاة:

ـ سوف أقتل نفسي إذا امتنعت!

وقال بشر:

ـ ان معي هذه «الشنتقة» وهي لصاحب الكتاب.

ـ كم فيها:

ـ مئتان وعشرون ديناراً.

- هاتها.

- على بركة الله.

وسجل الرجلان وثيقة البيع، وانصرف بشر إلى حجرة كان يأوي اليها كلما قدم إلى بغداد.. وكانت الفتاة تتبعه كحمل وديع وقد غمرتها سكينة المؤمنين..

في الحجرة وريثما يحين موعد العودة إلى سامراء، أخرجت الفتاة الرسالة لتقرأها مرّة أخرى.. ولثمتها ثم وضعتها على عينيها واستنشقت نفساً طويلاً لكأنها تريد أن تملأ صدرها

بشذى الكلمات..

ولم يتحمل بشر اكثر مما يرى!! هل هو حقيقة أم حلم كل ما يراه؟!

ربما يستطيع أن يدرك تصرفات الامام فهو رجل مبارك آتاه الله الحكمة وورث علوم جدّه محمدo ولن ينسى أبداً كيف تنبأ بهلاك المتوكل ذلك الطاغية الأرعن.. تنبأ بسقوطه في وقت كان الناس يرهبون حتى اسمه.. ولكن ما يراه لا يجد له تفسيراً فتاة رومية تقبّل كتاباً لا تعرف صاحبه!! قال بشر وقد اتسعت عيناه دهشة:

ـ أتلثمين كتاباً لا تعرفين صاحبه؟!!

لاذت الفتاة بالصمت، ثم قالت:

ـ أعرف أنك أمين، وأن من أرسلك قد استودعك سرّاً لم يطلعه على أحد.. أعرني سمعك وفرّغ لي قلبك، لاستودعك سرّاً لم اطلعه على أحد..

أنا «مليكا» بنت بنت يشوعا بن قيصر وأمي من ولد الحواريين تنتسب إلى وصي المسيح شمعون.. وراحت الأميرة الرومية تروي قصتها وقد اشتعلت المشاهد المثيرة في ذاكراتها الغضّة[٣٧٥].

الفصل التاسع والأربعون

في المركب الشراعي بدأت المناظر تنساب إلى الوراء والنخيل على امتداد جبهة النهر بدا كرموش حورية، وبالرغم من بقايا آثار الحرب الاهلية، إلاّ أن دجلة في ذلك الاصيل بدا موحياً يبتسم بأمل.. و«نرجس» تلك الفتاة الطاهرة ما برحت مأخوذة بشمس الاصيل التي أثارت في ذاكرتها الغضة مشاهد لا تنسى..

مشاهد سوف تبقى متألقة مدى العمر.. مشاهد حبيبة إلى روحها.. كم تعذبت طوال الشهور الماضية؟ لقد قاست الكثير.. كانت الغيوم تعبر سماء دجلة.. غيوم بيضاء ناصعة ظهرت بعد تلك الليلة المطيرة.. ذكّرتها الغيوم بحلّة العرس.. آه كم هو مقيت الزواج من انسان تافه.. ذلك الأمير الذي لا يعرف من الحياة سوى ظاهرها البراق.. ان ذكراتها تشتعل بالمشاهد المثيرة:

«كان القصر المهيب يجع بالحركة وباحة القصر تشهد بناء عجيب.. منصة عالية حيث يجثم عرش مرصع من الجواهر واعمدة من خشب يحسبها المرء رخاماً، ومدرج خشبي أنيق تنهض على جانبيه الصلبان..

ووصل الأمير المغرور ليرتقي المدرّج إلى حيث العرش..

أما هي فقد كانت تعيش مشاعر الفجيعة.. سوف تقضي العمر إلى جانب انسان تافه أحمق..

في البداية رفضت، ولكن هناك تقاليد تحكم القصر.. الأميرات للأمراء اتجهت إلى الكنيسة توسلت بالعذراء.. بكت..

هل هناك من طريق للخلاص؟ ماذا بوسعها أن تفعل؟ هل تحدث معجزة تنقذها من هذا الجحيم..

عندما وجدت نفسها في الطريق إلى المنصّة وقد احتف عشرات الاساقفة والأمراء والجنود كانت قد استسلمت لقدرها.. وفي تلك اللحظات حدثت المعجزة.. اهتزّت الأرض وتساقطت الأعمدة الخشبية وانهار العرش ومعه الامير المذعور الذي فقد وعيه..

حدث كل شيء في لحظات.. وعندما سكنت الأرض ظهرت على وجوه الاساقفة ملامح تشاؤم وعطّلوا مراسم عقد القران.. مثل طائر حبيس عادت «مليكا» إلى مخدعها ورمت بعيداً حلّة العرس وارتدت ثوباً اكثر حشمة ووقاراً، ثوباً يشبه مسوح السيدة العذراء وانطلقت صوب الكنيسة لتسجد أمام الصليب وتمثال مريم.. شكرت من كل قلبها الربّ وصلت بخشوع وبكت فرحاً.. ودعت الربّ أن تكون زوجة لانسان طاهر.. انسان لم يتدنّس قلبه بوساوس الأرض!

ـ يا الهي هل هو حلم ما أراه أم يقظة؟! في باحة القصر هوت المنصّة والعرش نهض عرش من نور.. السيد المسيح جالس على العرش ويدخل رجل مهيب.. رجل يرتدي ثياباً عربية شعره يشبه تموجات بحيرة رائقة.. سوالفه تتلألأ.. وابتسامة تشرق وجهه المضيء.. وينهض السيد المسيح فيعانقه وادركت أنه «أحمد» الذي بشّر به انجيل «برنابا»..

قال أحمد: يا روح الله جئتك خاطباً من وصيّك شمعون فتاته مليكا لابني هذا!

وأومأ إلى فتى أسمر.. عيناه نجلاوان تتألقان بالصفاء لكأنهما نافذتان تطلاّن على عالم من نور..

شمعون يبتسم، والحواريون..

عندما انتبهت وجدت نفسها بين أيدي الراهبان وكان جبينها يلتهب من الحمّى..

آه أنها لا تستطيع أن تبوح لأحد بما رأته.. عزفت روحها عن الطعام.. نحل جسمها.. وكانت روحها تشتد سطوعاً وعجز الطبّ عن فعل شيء..

وجاء جدّها فجلس عند الأميرة التي ما تزال تخبو كشمعة في نهايات ليل طويل قال لها بحنّو: هل تشتهين شيئاً قالت الفتاة: يا جدّي أرى أبواب الفرج علي مغلقة.. فلو كشفت العذاب عن أسرى المسلمين.. وفككت عنهم الأغلال.. لرجوت أن يهب المسيح وأمّه لي الشفاء.

قال الجدّ، وقد تمثلت في ذكراته محنة الأسرى يوم أعدم منهم اثنا عشر ألف أسير بأوامر من تيدورا:

ـ أعدك بذلك يا عزيزتي!

شاعت البهجة في قلب مليكا.. وتماسكت لتتناول قدراً يسيراً من الطعام..

مرّت ثلاث ليال ومليكا اعماقها تضطرم تحت تأثير الرؤيا.. ما تزال صورة الفتى العربي الاسمر تتألق في ذكراتها.. لكأنها رأته حقيقة لا في عالم الخيال.. والاحلام.

قبيل الغروب وقد غابت الشمس خلف ذرى الاشجار ظهرت العذراء مريم.. لم تكن وحدها كانت معها سيّدة وجهها يزهو نوراً على رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً، وقد اشرقت فوق رأسها شمس بهية وقمر منير(٣٧٦) تحفها حوريات الجنة قالت مريم: هذه سيّدة نساء العالمين.. فاطيما.. أم زوجك.. مليكا تهبّ ترمي بنفسها في احضان السيّدة الكريمة.. آه أنه لا يزورني.

قالت السيّدة: لأنك لم تدخلي دينه..

ـ وماذا أفعل يا سيّدة النساء؟

تشهدين بأن الله واحد لا له إلاّ هو وتصدقين رسالة أحمد الذي بشّر به المسيح.

عندما استيقظت من النوم كان اسم أحمد على شفتيها..

جففت حبّات عرق انبجست فوق جبينها الملتهب.. ما تزال مليكا محمومة.. تستغرقها الرؤيا العجيبة لقد تعلمت العربية منذ صباها.. منذ أن شهدت مذبحة الأسرى المسلمين الذين رفضوا اعتناق النصرانية واختاروا الموت(٣٧٧).

لقد اتقنت العربية لكنها لم تتحدث بها إلى أحد.. الرؤيا العجيبة.. تحيّر ذهنها.. تجعل قلبها فارغاً، والوجه الأسمر.. ذلك الفتى العربي من أين جاء؟! وهل ستلتقيه في عالم الحقيقة؟ أم سيبقى كل شيء رهن الخيال؟!

السفينة تشق أمواج دجلة صوب الشمال، وتيّار الذكريات المشتعلة كبروق سماوية ما يزال يستغرق وعي مليكا التي اختارت اسماً جديداً تختبىء وراءه قصّتها العجيبة..

في كل ليلة كانت ترى ذلك الفتى الأسمر صدّقت أنها زوجته وكانت روحها الظامئة تشتاق إلى رؤيته..

عيناه الواسعتان تختصران العالم..

عندما سمعت ذات يوم أن القصر يفكّر بارسال جيش ومهاجمة ديار الإسلام تحفّزت كل خليّة في كيانها، أن روحها تضطرم.. سوف تلتحق بالجيش بحجة التمريض وتنضم إلى الوصائف اللائي يقمن بهذه الخدمة..

لم تضع وقتها.. لكأنها مستسلمة لقدر عجيب.. شيء لا يمكن وقوعه الاّ في عالم الخيال أو عالم آخر مجهول!

تنكّرت في زيّ الخدم.. وغادرت القصر لتختفي إلى الأبد.. سوف يبحثون عنها.. في كل مكان دون جدوى سوف يبقى سرّها مكنوناً وقد تستحيل إلى قدّيسة في المستقبل!

قدرها أن ترافق طلائع الجيش الرومي(٣٧٨) ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء..

وعلى الحدود وقعت اشتباكات محدودة هزمت فيها طلائع الروم ووقعت مليكا في أسر المسلمين فكانت في سهم شيخ مسلم سألها عن اسمها فقالت على الفور:

ـ نرجس.

قال الشيخ:

ـ اسم الجواري.

وعندما وصلت بغداد طالعها عن بعد تمثال الفارس الذي يتربع فوق قبة قصر الذهب في قلب بغداد.. بيده رمح طويل يشير به إلى جهة الشرق..

مليكا في بغداد جارية في سوق الرقيق.. سرّها مكنون كلؤلؤة في صدفة في اعماق بحيرة تغفو بسلام.. حكايتها حكاية عجيبة أغرب من الاساطير..

كم انتابتها الهواجس طوال الأيام الماضية كيف تستلم للرؤيا وهل يسلم المرء نفسه للأحلام؟ ولكن تلك الرؤيا ليست اضغاث أحلام.. إنها اكثر اشراقاً من كثير من الوقائع لقد استغرقت شعورها وسيطرت على مشاعرها.

ووجدت نفسها تسير نحو قدر ينتظرها في مكان ما وفي لحظة ما.. ولكن عندما وقعت عيناها على الرسالة المكتوبة بلغتها أدركت أن القدر قد اختارها، ورسم مصيرها وما عليها سوى التسليم..

وعادت مليكا إلى نفسها عندما اقتربت السفينة من مشارف «سامراء» من بعيد طالعها ذلك البناء الحلزوني وحدست في نفسها أنه منارة مسجد كبير.

رست السفينة مرسى «الخليج» وانتقل المسافرون إلى الشاطىء حيث المدرجات التي تؤدي إلى شارع الخليج..

الفصل الخمسون

التوتر يسود سامراء، وقد بدا واضحاً أن الطغمة التي كانت متنفذة في زمن المتوكل قد عادت إلى الحكم كأشرس ما تكون كما أن تعيين ابن أبي الشوارب رئيسا لسلطة القضاء(٣٧٩) قد جاء ليعكس سياسة الدولة ازاء العلويين فابن أبي الشوارب معروف بولائه الاموي!

وفي هذه الفترة تم القاء القبض على كثير من العلويين كما اخمدت ثوراتهم بقسوة ووحشية ورحّل كثير من زعاماتهم إلى سامرّاء لوضعهم تحت رقابة مشدّدة أو توقيفهم(٣٨٠) وكان منزل الامام الهادي يخضع هو الآخر للرقابة حتى أن بعض وكلائه يتظاهرون بحرف وأعمال تغطية لدورهم في تعزيز الاتصال بين الامام وقواعده الشعبية(٣٨١).

وكان لكثرة الاضطرابات والقلاقل في أنحاء الدولة وفساد الطغمة الحاكمة ونهبها لأموال الأمة قد جعل من سامراء على فوهة بركان سرعان ما يثور ويحيل كل شيء إلى خرائب وحمامات دم..

وكان الصراع بين القادة الاتراك على أشدّه، وبدا بغا الشرابي يحاول المستحيل لاقناع المعتز بالرحيل إلى بغداد لكن دون جدوى(٣٨٢) فانصرف إلى التنسيق مع صالح بن وصيف للقيام بحركة عسكرية والاطاحة بالمعتز(٣٨٣) والقضاء على قوّات الحرس من المغاربة.

وقبيل الغروب وصل بشر النخاس «درب الحصا» حيث يوجد منزل الامام وكانت الجارية الرومية تتبعه وعيناها تشرقان بالأمل.

احتفى الامام الهادي بالفتاة التي وصلت على قدر.. كان المنزل تغمره سكينة الغروب الحسن قد أوى إلى السرداب كعادته يعبدالله، وجعفر(٣٨٤) لم يعد إلى المنزل بعد.. التفت الامام إلى كافور قائلاً:

ـ أدعُ لي اختي حكيمة.

كانت حكيمة قد تحدثت مع شقيقها حول زواج الحسن الذي جاوز العشرين ولم يتخذ زوجة له، ولاسباب مستورة بحجب الغيب في المديات البعيدة فضل الامام الهادي أن يقرن ابنه بفتاة تتحمّل هموم المصير.. تنجب له الصبي الموعود الذي بشّرت به الرسالات ويحقق أحلام الانبياء يعيد للحياة الانسانية كرامتها وللأرض خضرتها والربيع..

وصبي كهذا ينبغي أن تكون والدته سيّدة لا يعرفها أحد قادمة من صقع بعيد.. فيها خصال من «يوكابد» أم موسى ومن مريم ابنة عمران.. لأن الوليد سيحمل غضب موسى، ومعجزات المسيح عيسى بن مريم..

من أجل هذا اختار القدر الالهي «مليكا» لتشدّ الرحال وتخوض الاهوال لتصل على

قدر منزلاً في درب الحصا.. هاهي جالسة في حضرة الرجل الذي بلغ الاربعين من عمره وقد اشتعل رأسه شيبا.. لشدّما يشبه فتى الاحلام(٣٨٥).

وصلت حكيمة متلهفة لرؤية الفتاة وعندما سمعت شقيقها يقول مشيراً اليها:

ـ هاهي!

حتى هبّت لاعتناقها آه أنها فتاة كاملة..

انحنت مليكا وقبلت يد السيّدة المباركة..

وطوال الوقت كانت حكيمة لا تنفك تنظر إلى الفتاة.. ذات الوجه المضيء وقد تورّد الحياء فوق وجنتيها..

قال الامام مخاطباً الفتاة:

ـ كيف أراك الله عزّ الإسلام وذلّ النصرانية؟(٣٨٦)

قالت الفتاة بأدب:

ـ كيف أصف لك يا بن رسول الله ما أنت أعلم به مني.

قال الامام وهو يغمرها بحنانه:

ـ أريد أن اكرمك.. فأيّما احبّ اليك: عشرة آلاف درهم؟ أم بشرى لك بشرف الأبد؟

ـ بل البشرى يا سيدي!

قال الامام وهو يبشر بميلاد الطفل الموعود:

ـ فابشري بولد يملك الدنيا شرقاً وغرباً.. ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

قالت الفتاة وقد غمرتها روح مهيمنة:

ـ ممّن؟

ـ قال الامام بلغة رومية:

ـ ممّن خطبك رسول الله له.

توهجت في أعماقها مشاهد ذلك اليوم عندما انهارت الصلبان والاعمدة.. ويوم رأت المسيح يعانق النبي العربي.. وليلة رأت مريم ومعها سيدة متسربلة بالشمس والقمر، وعلى رأسها اكليل مرصع بكواكب درّية..

لاذت بالصمت وبدت في جلستها الهادئة حورية قادمة من جنّة ما..

قال الامام مخاطباً اخته:

ـ يا بنت رسول الله خذيها إلى منزلك.. وعلّميها الفرائض والسنن.

كانت الغيوم تحجب الشمس ولكنها ما تزال تبعث بدفئها ونورها الشفاف يغمر الأرض..

ونهضت حكيمة مصطحبة معها الفتاة الكريمة التي ستدعى بعدّة اسماء.. فهي «ريحانه» و«سوسن» و«نرجس» وحديثة.. اما اسمها الحقيقي «مليكا» فسيبقى مستوراً مع جذورها وسرّها المكنون..

إنها في الظاهر جارية لا فرق بينها وبين «ماريا» و «نسيم»[٣٨٧] ولكنها في الحقيقة «سيدة الاماء»[٣٨٨].

وانتقلت مليكا إلى منزل امرأة صالحة هي ابنة إمام واخت إمام وعمّة إمام وسيقدّر لها ذات يوم أن تشهد ميلاد المعجزة.

وتدور الأيام.. وسامراء غارقة في المؤامرات وقد استيقظ الشيطان.. ذرّ قرنيه وراح يعربد في كل مكان..

وفيما كانت الاشياء تهتز بعنف تحت سنابك خيل الاتراك كانت هناك نقطة مغمورة بالسلام..

في منزل هادئ بدرب الحصا..

هناك انسان ينظر إلى الافق البعيدة إلى قوافل قادمة من المستقبل.. من أجل هذا راح يبشر بإطلالة الفجر الخالد.. سيولد الطفل.. سيولد الفارس الأخضر سيولد الذي ينقذ

الانسانية المعذبة..

سيولد بشارة الرسالات القديمة.. ومن يصلّي خلفه عيسى بن مريم.. سيولد الذي يصارع التنين(٣٨٩)..

سيولد بشارة الرسول والكوكب الدرّي(٣٩٠).. والذي بشرّ بميلاده علي صوت العدالة والانسانية وحفيد علي الهادي الذي بدأ يخطط لبزوغ الأمل الاخير والشمس المستورة وراء حجب الغيوم..

الفصل الحادي والخمسون

مضت أربعة فصول وأطل عام ٢٥٤هـ واطل معه عام ميلادي جديد بعد ليلة خريفية طويلة(٣٩١)..

رياح كانون الثاني تجمد السواقي وتحيل بساتين الرمّان وعرائش الكروم إلى أعواد يابسة..

كل شيء ينذر بوقوع حوادث مثيرة.. كان المعتز ومن ورائه والدته يقود حملة رهيبة لتصفية جميع خصومه ومناوئيه وارتفعت حمّى التآمر.. قام أولاً بابعاد أخيه طلحة قائد الحملة على بغداد.. ثم غير منفاه من البصرة إلى بغداد.. وقد يعيده إلى سامراء ليضعه تحت مراقبة صارمة..

بايكباك ما يزال في مخبئه في مكان ما في كرخ سامراء.. المعتز يحاول الاجتماع به لتوجيه ضربة إلى بغا الشرابي وصالح بن وصيف بعد أن ثبت أنهما يتآمران للاطاحة به وانتخاب خليفة آخر يخضع لنفوذهما..

افادت تقارير الجواسيس بان صالح بن وصيف وبغا الشرابي مشغولين بحفلة زفاف ابنة الشرابي إلى صالح(٣٩٢)..

انتهز المعتز الفرصة، وعبر إلى الكرخ مع أركان حكومته وفصائل من قوّات الحرس الخاص..

ووصلت الانباء بغا الشرابي فغادر سامراء مع خمسمئة من جنوده إلى تل عكبراء ونصبت له خيمة على شاطىء دجلة فيما ظل جنوده في العراء تلفحهم رياح شتائية قارسة البرد.

وفي الاثناء كان المعتز قد وصل قصر الجوسق مع قطعات عسكرية بقيادة بايكباك لحراسة القصر الخليفة من هجوم محتمل..

لم تكن الأمور تسير في صالح بغا الشرابي الذي تناهت إليه شكوى جنوده من البرد وانفراده في خيمة يتدفأ بها.. وما لبث أن جاء «ساتكين» الضابط التركي ينقل إليه شكوى الجنود من وجودهم في العراء بلا طائل.. فكر بغا في التسلل واللجوء إلى منزل صالح بن وصيف فقال:

ـ دعني الليلة.. يجب أن افكر في الأمر..

وعندما انتصف الليل.. تسلل بغا دون سلاح مصطحباً خادميه فاستقل زورقاً انحدر به إلى المدينة..

وشاء القدر أن يكتشف حرس الجسر، الزورق الذي اقترب من الشاطىء..

وهناك تم توقيفه فاضطر إلى الاعلان عن هوّيته فقال قائد الدورية وهو زنجي:

ـ ان لدينا أوامر بمنع التجول في هذه الساعة من الليل.

قال بغا:

ـ اما أن تذهب إلى منزل صالح بن وصيف.. أو تهذب إلى منزلي.

ووعده بمكافأة.. ولكن و«ليد المغربي» اصدر أمراً بتوقيفه وغادر المكان على وجه السرعة متجهاً إلى القصر.. وسرعان ما اجتمع بالخليفة الذي كان ينام بسلاحه تحسباً من هجوم الاتراك.

هتف المعتز وهو يسمع الخبر المثير:

ـ ويلك جئني برأسه!

وفي بستان على الشاطىء تم قتل بغا الشرابي، وصلب رأسه فوق الجسر، واحرقت جثته.. وطورد ابناؤه في بغداد وزجّ باصدقائه في سجن المطبق وفي زنزانات «قصر الذهب» وصودرت جميع أموالهم، واحتفل البلاط بهذه المناسبة ومنح القاتل جائزة كبرى[٣٩٣] وبدا ان المعتز سوف يبسط سيطرته على الوضع في البلاد لولا القلاقل في ايران فثورة «الحسن بن زيد» ما تزال يستعر أوراها في غابات ايران، ثم ظهر «يعقوب الصفّار» في اقليم «سجستان»[٣٩٤] ليزحف باتجاه كرمان[٣٩٥].

وكانت هواجس المعتز تتضاعف ازاء العلويين، ففي مصر ثورة كبيرة يقودها ابراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن الصوفي.. وفي شمال ايران ثورة اخطر من تلك، وانعكست هواجسه على سياسته تجاه العلويين في بغداد والكوفة وسامراء.. في بغداد احتجز كثيرون وسجن بعضهم ورحل آخرون إلى سامراء ليلقوا في زنزانات خاصة في قصور الخلافة، وفي الكوفة كانت السياسة اشدّ بطشاً واشدّ تنكيلاً اتخذت شكل الحصار الاقتصادي وافقار العلويين حتى الموت، أو الاغتيال[٣٩٦].

وكان المعتز يبحث عن ذريعة لتصفية الامام الهادي الذي اضطر إلى ملازمة منزله، وامتناعه عن لقاء الناس، وكان يقضي معظم وقته في السرداب حيث تترقرق السكينة في جنبات ذلك المكان الهادئ تحت الأرض; مفضلاً الاتصال بالناس عبر وكلائه خاصّة عثمان بن سعيد العمري الذي حظي بثقة مطلقة، واشتهر بتجارة الزيت إمعاناً في تغطية دوره البالغ الحساسية[٣٩٧] وقد حاز من الثقة ما جعل تصريحاته تمثل مواقف الامام وتصريحاته.

وتأزمت الأوضاع بشكل ينذر بالخطر بعد الهجوم الوحشي الذي تعرّضت له مدينة «قم»[٣٩٨] ومقتل عشرات الأبرياء من سكانها بحجة تأييدهم لثورة الحسن بن زيد الطالبي...

وفي ذلك الجوّ المشحون بالخطر قام بعض صنائع الحكم بدسّ السم بطريقة ما إلى الامام[٣٩٩].. ولزم الامام الفراش بعد أن ظهرت عليه أعراض مرض ما.. وتدهورت صحة الامام بشكل مفاجئ في جمادى الآخرة ٢٥٤هـ حزيران سنة ٨٦٨م.

وزاره الطبيب ابن طيفور فنصحه باجتناب شرب الماء ولكن الامام فنّد رأيه قائلاً:

ـ وما بأس بالماء، وهو يدير الطعام في المعدة، ويسكّن الغضب ويزيد في اللبّ ويطفئ المرار[٤٠٠].

وعاده في مرضه ابو دعامة اسماعيل بن علي أحد قضاة العامّة.

وعندما نهض لينصرف خاطبه الامام بودّ:

ـ يا أبا دعامة قد وجب عليّ حقّك.. ألا احدّثك بحديث تسرّ به؟

قال الرجل بأدب جمّ:

ـ ما أحوجني إلى ذلك يا بن رسول الله!

قال الامام وهو يضيء في قلبه قنديلاً من الكلمات المقدّسة:

ـ حدّثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن موسى قال: حدّثني أبي موسى بن جعفر قال: حدّثني أبي جعفر بن محمد قال: حدثني أبي علي بن الحسين قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب قال: قال لي رسول اللهo: يا علي اكتب! فقلت: ما اكتب؟ قال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم.. الايمان ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال، والإسلام ما جرى على اللسان وحلّت به المناكحة».

واهتز وجدان الرجل لجمال الحديث وسلسلة سنده المضيئة فقال:

ـ يا بن رسول الله والله ما أدري ايّهما احسن؟ الحديث أم الاسناد؟

قال الامام وهو يكشف عن سرّ الكنز الذي لا ينفد:

ـ إنها لصحيفة بخط علي بن أبي طالب، واملاء رسول اللهo نتوارثها صاغر عن كابر(٤٠١)..

كان الحسن لا يكاد يفارق والده الذي تحسنت صحته قليلاً فطلب من ابنه أن يتفقد عمّته حكيمة ويقوم بزيارتها وينفذ الابن أمر والده، فكان على موعد مع القدر..

على مدى شهور كانت «مليكا» التي اصبح اسمها نرجس وفي بعض الاحيان كانت تنادى بـ «سوسن» تمضي حياة طيبة في ظلال امرأة صالحة تعلّمها شريعة الله وثقافة الإسلام الطاهرة.. فكانت تنمو كما تنمو اللآلي المتألقة في احضان أصداف دافئة.

الفصل الثاني والخمسون

عندما وقعت عيناه عليها في منزل عمّته تسمّر في مكانه، ينظر اليها، وهي ايضاً توهجت في ذاكرتها احلام مضيئة عن النبي العربي الاسمر بوجهه البهي.. ها هي تراه واقفاً أمامها ينظر اليها فتطرق حياءً فيما كان قلبها يخفق بحب طاهر نبيل.

قالت العمّة المباركة(٤٠٢) لابن أخيها:

ـ لعلّك هويتها!

قال الحسن عن نظرته الهوى الهابط:

ـ لا يا عمّة.. ولكنّي اتعجّب.

قالت العمّة:

ـ ولم العجب؟!

قال الفتى الأسمر:

ـ لأن هذه الفتاة سوف تنجب ولداً كريماً على الله عز وجل.. يملأ الله به الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

قالت العمّة وهي تعرف أن ابن اخيها سيكون سيّداً:

ـ أفأرسلها اليك يا سيّدي؟

قال الحسن بعد أن أطرق تأدّباً:

ـ حتى يأذن لي أبي!

ابتهج قلب حكيمة فرحاً سوف تزفّ لابن اخيها فتاة طاهرة نبيلة وسيكون هذا الزواج المبارك سبباً في ظهور أمل الانسانية.. والانسان الذي سينقذ المعذبين والمقهورين والذي سيغسل الأرض من كل الشرور فيعمّ الخير والمحبّة والسلام..

ما إن دخلت حكيمة على اخيها حتى بادرها قائلاً:

ـ يا حكيمة ابعثي نرجس إلى ابني أبي محمد.

قالت الاخت بسعادة:

ـ يا سيدي من أجل هذا قصدتك.. اردت أن استأذنك في ذلك:

قال الامام وقد تألقت عيناه فرحاً:

ـ يا مباركة.. ان الله تبارك وتعالى اراد أن يشركك في الأجر ويجعل لك في الخير نصيباً.

لم تضع حكيمة لحظة من الوقت إذ سرعان ما عادت أدراجها وقلبها يبتهج سعادة.. لقد أرادها الله أن تكون ممّن يحقق أهداف السماء في مسيرة الجهاد الطويل..

وقامت حكيمة بتزيين العروس في حجرة انتخبتها لتكون عشاً دافئاً لأسرة طاهرة.. اسرة سيكون لها مجد رفيع، وبدت نرجس بحلّة العرس البيضاء حورية هبطت من العالم العلوي لتقترن بفتى علوي هو فتى أحلامها الوردية..

كان فضاء المنزل يفوح بالعبير، ونسائم نديّة تهب من شطآن دجلة وسماء حزيران تزخر بالنجوم.. وقامت العمّة لتقدّم إلى ابن اخيها عروسه الطاهرة.. لتتحقق مشيئة الذي يجمع القلوب الطاهرة..

ومرّت أيام كان القمر يتضاءل فيها ليذوب في المحاق عندما انتكست صحة الامام الهادي.. وخلال تلك المدّة لم ينفك يعلن لكل من يزوره من اصحابه ومحبيه إمامة ابنه الحسن ويبشّرهم بان المهدي قد أطلّ زمانه.. انه الخلف بعد الخلف.. الذي لن يراه أحد الاّ من وفّق الله.. وخلال ذلك سوف يتيه اتباعه كأغنام غاب راعيها.. ولكن الله لن يتركهم في حيرتهم اذ ينهض رجال عميقو الايمان ينقذون «ضعاف عباد الله من شباك ابليس»[٤٠٣].

عاشت «مليكا» أسعد أيام حياتها في ظلال فتى كريم تضيء وجهه أنوار النبوّات كان يخاطبها بأسماء جميلة.. نرجس.. سوسن حديثة.. صقيل.. ريحانة.. اسماء ورود الربيع.. هل كان يبشر فصل جديد فصل الدفء والنور والربيع؟ من يدري هل كان يطلب منها أن تكون ربيعاً للبرعم الطاهر الذي سيظهر من أكمام الزمن؟ آه يا مليكا يا من جئت على قدر لتلتقي فتى ساقه

القدر أيضاً إلى هذه البقعة من دنيا الله.. مدينة غارقة في الظلمات فاختارها الله لتشهد ميلاد الكوكب الدرّي(٤٠٤).

وينتقل الحسن مع زوجته إلى منزل والده(٤٠٥) الذي ابتهج برؤية وارثه مع تلك الفتاة التي انتخبتها السماء لتلد الصبي المنتظر إنها سيّدة عظيمة جديرة بحمل الأمانة «وستحيط بها المخاطر»(٤٠٦)..

وانتشر خبر تدهور حالة الامام الصحية في سامراء وبغداد والكوفة..

وبدأ العائدون يأتون من كل حدب وصوب، وخلال تلك المدّة زارته شخصيات رفيعة مسؤولة في الدولة..

ساءت حالة الامام الصحية وكان السم ينتشر في عروق الامام وبات جسده خائراً تماماً، وسادت حالة من الوجوم والترقب مدينة سامراء..

وأطل يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة حزيران وكان البلاط يترقب أخبار الامام.. خاصّة عصابة الأربعة «قبيحة» أم الخليفة، رئيس الوزراء ابن اسرائيل ووزير البلاط النصراني أبو نوح والوزير الحسن بن مخلّد الذي اعتنق الإسلام لسبب ما..

أما المعتز الذي بلغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة فقد كان منصرفاً إلى لذائذه ويحاول المحافظة على عرشه بأي ثمن..

وضعت قوّات الحرس على أهبة الاستعداد تحسباً للطوارئ واستدعي من بغداد طلحة بن المتوكل..

كان «درب الحصا» في ذلك الضحى غارقاً في حزن مرير، وباب منزل الامام مشرعاً، وقد تجمهر عشرات الناس قرب الباب بعد أن ضاق المنزل بهم..

كان الخبر قد تسّرب إلى بعض اصدقاء الامام، ثم سرعان ما انتشر وقد تلقى أهالي المدينة الخبر بأسى ووجوم وبكى بعضهم.. بكى السلام الراحل.. والرجل المبارك الذي حلّ بين ظهرانيهم منذ عشرين سنة.. قضاها في خدمة الإسلام ومساعدة المنكوبين ونشر العلم الالهي..

كمنارة مسجد مضيء كان الامام.. روحانياً شفافاً في زمن تكاثفت فيه المادّة والطين.. زاهداً في زمن استعرت فيه حمّى الحرص.. تغمره السكينة في قلب العاصفة.. عاصفة الشرّ..

أحبّه الناس جميعاً الشيعي والسنّي.. المسلم والنصراني..

المنزل يغصّ بالجماهير وكان الشيعة اكثر الناس فجيعة.. الدموع تجري بصمت كسماء مثقلة بمطر خريفي.. وهواجس الحيرة تملأ القلوب عن الامام الذي سينهض بالأمانة.. والخوف يمنع الجميع عن السؤال، فهناك عيون زجاجية مبثوثة.. عيون جواسيس منحوتة من الصخر.. انوفهم كأنوف الكلاب.. وقلوبهم كُتَلٌ من رصاص..

جثمان الامام مسجّى وابنه الحسن يصلّي، ومناحة في حجرة مجاورة ارتدت سامراء ثوب الحزن والحداد، فقد تعطّلت الأسواق والمحالّ التجارية لقد رحل الرجل المبارك.

حضرت شخصيات رفيعة المستوى للمشاركة في العزاء وموكب التشييع وفي طليعتهم قائد الزحف على بغداد ابّان الحرب الاهلية طلحة بن المتوكل الذي يعدّ من ابرز السياسيين العباسيين والذي أُحضر من بغداد ليمثل الخليفة في تقديم التعازي..

استحال المنزل إلى سوق بسبب ضجة الاحاديث المتبادلة.. ومرّ وقت قصير عندما ظهر خادم بيده رقعة مطوية فنادى على خادم آخر:

ـ يا رياش خذ هذه الرقعة وامض بها إلى دار أمير المؤمنين، وقل هذه رقعة الحسن بن علي..

وتطلّع الناس إلى الباب الذي اغلق توّاً.. وبعد لحظات فتح الباب ليظهر كافور الخادم ثم ظهر شاب في العشرين من عمره هيئته تنمّ عن فجيعة.. كان حاسراً مكشوف الرأس يرتدي رداءً ناصع البياض قد شُقّ جزءٌ منه تعبيراً عن المصاب الجلل وفغر البعض أفواههم.. انه يشبه الامام الراحل تماماً.. بل أنه هو.. لقد كان صورة طبق الاصل لعلي الهادي!!

اتجه الشاب إلى طلحة بن المتوكل الذي عرف باسم «الموفق».. ونهض الجميع وهبّ «الموفق» لمعانقة الحسن الذي هتف قائلاً:

ـ مرحباً بابن العم(٤٠٧)..

واتخذ أبو محمد الحسن مجلسه بين بابي الرواق.. وساد الصمت المنزل وكان الجميع مأخوذين بالوجه الاسمر الذي لا يخطئ في ملامحه وجه الأب الراحل(٤٠٨).. ولم يعد يُسمع أحدٌ ينبس ببنت شفة إلاّ السعلة والعطسة(٤٠٩).. وكان جعفر(٤١٠) ينظر إلى اخيه نظرة فيها حسد وخرج النعش الطاهر للتشييع والصلاة عليه في المسجد الجامع..

وفيما كان النعش يخترق الرواق كحمامة شهيدة، ظهرت فتاة تهتف بفجيعة:

ـ ماذا لقينا من يوم لاثنين.. قديماً وحديثاً(٤١١)؟!

وشعر الامام بالأسى فقال لمن حوله:

ـ ألا يوجد من يردّ هذه الجاهلة؟

وبادر بعضهم فردّ الفتاة إلى حجرة النساء، فيما غادر النعش المنزل تحمله أكف وسواعد وقلوب المؤمنين..

ضاق شارع «أبي أحمد» وهو أطول شوارع سامراء وأعرضها بالجماهير..

شمس حزيران تغمر باشعتها الموكب الطويل، وفقدت قوّات الشرطة السيطرة على الموقف بعد أن اندفعت الجماهير وكل يريد أن يمسّ بيده النعش الطاهر قبل أن يوارى الثرى.

اليوم هو يوم ٢٥ جمادى الآخرة من سنة ٢٥٤، وقد بلغ الازدحام في الشارع الطويل أوجه فتقرّر الصلاة على الجثمان في الشارع حتى يسع كثرة الناس، وشعر «الموفق» بالخطر فقد يتحوّل هذا الموكب الجرّار إلى حركة مضادة للحكم القائم فأسرع في انهاء مراسم الصلاة وُحمل النعش مرّة أخرى ليدفن في منزله حسبما ورد في الوصيّة..

انتهت مراسم الصلاة التي أجريت بسرعة وأثارات إستياء الناس الذين لم يجدوا الوقت الكافي في إجراء مراسم التشييع كما ينبغي.. وكان واضحاً أن هناك توجساً مما قد يؤدي إليه هذا التجمع الذي لم تشهده سامراء منذ تأسيسها وحتى الآن..

بلغ من شدّة الزحام أن ضغط الناس الامام الحسن ودفعته الأمواج البشرية إلى جانب الطريق.. فصادف دكّة مرشوشة بالمياه فأستأذن البقال في أن يجلس. وحيّا البقال الامام بأدب وكان بعض الذين يمرّون يستوقفهم الوجه الاسمر لفتى تتألق في عينيه أنوار النبوّات.. وتحلّق بعض الناس حوله ينظرون إلى شابّ قد ذرّف على العشرين وقد اشتعل الشيب في ذقنه أية فجيعة هدّت هذا الفتى؟ وأية هموم يحملها وينوء بحملها؟! قليلون جدّاً يدركون محنة هذا الانسان الذي نهض بالامامة..

لم تمرّ سوى دقائق حتى جاء شاب بهي الوجه يقود بغلة شهباء فعرض على الامام الركوب.

وفي ظهيرة ذلك اليوم ووري الثرى رجل عاش في سامراء عشرين سنة امضاها عملاً وجهاداً ومقاومة.. فكان مثالاً في كل شؤون الحياة.

عاش في زمن مرير.. زمن عاصف الاحداث لكنه حافظ على استقامته وظل هو هو ثابتاً كالجبل قوّياً كالاعصار هادئاً كحمائم السلام طاهراً كقطرات الندى متألقاً كقمر بهي..

وعمّ الحزن مساحات شاسعة من الوطن الإسلامي المسلمون جميعاً بمختلف مذاهبهم افتقدوه.. وفجعت شيعته برحيله حتى النصارى حزنوا من أجله لقد كان رجل مباركاً عاش للناس جميعاً فحزنوا عليه جميعاً.

وبرحيله انتهى فصل تاريخي ليبدأ فصل جديد.. وتدور رحى الأيام..

ما وراء السطور

ملحقات وضمائم

ملحق رقم (١)

رسالة الامام الهادي في: «الجبر والتفويض»

«من علي بن محمد..

سلام عليكم، وعلى من اتّبع الهدى، ورحمة الله وبركاته.

فإنّه وَرَدَ عليَّ كتابكم، وفهمتُ ما ذكرتم من اختلافكم في دينكم، وخوضكم في القدر، ومقالة من يقول منكم بالجبر، ومن يقول التفويض، وتفرّقكم في ذلك، وتقاطعكم، وما ظهر من العداوة بينكم، ثم سألتموني عنه، وبيانه لكم، وفهمت ذلك كله!

إعلموا ـ رحمكم الله ـ أنّا نظرنا في الآثار، وكثرة ما جاءت به الأخبار، فوجدناها ـ عند جميع من ينتحل الإسلام ممن يعقل عن الله (عزّ وجلّ) ـ لا تخلو من معنيين:

إمّا حقٌ فيتبع.

وإمّا باطل فيجتنب.

وقد اجتمعت الأُمّة قاطبة، لا اختلاف بينهم: أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع أهل الفُرَق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون، مهتدون، وذلك بقول رسول اللهo: «لا تجتمع أُمّتي على ضلالة».

فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمّة كلها حقّ.

وهذا إذا لم يخالف بعضها [الأمّة] بعضاً.

والقرآن حق، لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه، وأنكر الخبر طائفة من الأمة الكتاب، فإن [هي] جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملّة [الإسلام].

فأوّل خبر ـ يُعرف تحقيقه من الكتاب وتصديقه، والتماس شهادته ـ خبر ورد عن رسول اللهo ووجد بموافقة الكتاب وتصديقه، بحيث لا تخالفه أقاويلهم; حيث قال: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعتري ـ أهل بيتي ـ لن تضلّوا ما إن تمسّكتم بهما، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».

فلمّا وجدنا شواهد هذا الحديث في كتاب الله نصاً مثل قوله (جل وعزّ): **[إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ]**(٤١٢) وروت العامّة في ذلك أخباراً لأمير المؤمنينA أنّه تصدَّق بخاتمه وهو راكع، فشكر الله ذلك له، وأنزل الآية فيه.

فوجدنا رسول اللهo قد أتى بقوله: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» وبقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي» ووجدناه يقول: «عليٌّ يقضي ديني، وينجز موعدي، وهو خليفتي عليكم من بعدي».

فالخبر الأوّل الذي استنبطت منه هذه الأخبار خبر صحيح، مجمع عليه، لا اختلاف فيه عندهم، وهو أيضاً موافق للكتاب.

فلما شهد الكتاب بتصديق الخبر، وهذه الشواهد الأُخَر لزم على الأمّة الإقرار بها، ضرورة إذ كانت هذه الأخبار شواهدها من القرآن ناطقة، ووافقت القرآن، والقرآن وافقها.

ثم وردت حقائق الأخبار من رسول اللهo عن الصادقينΔونقلها قوم ثقات معروفون، فصار الإقتداء بهذه الأخبار فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة، لا يتعدّاه إلاّ أهل العناد.

وذلك: إن أقوال آل رسول اللهo متّصلة بقول الله، وذلك مثل قوله ـ في محكم كتابه:ـ **[إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا]**(٤١٣).

ووجدنا نظير هذه الآية قول رسول اللهo: «من آذى عليّاً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن ينتقم منه».

وكذلك قولهo: «من أحبَّ عليّاً فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله» ومثل قولهo ـ في بني وليعة ـ «لأبعثنَّ إليهم رجلاً كنفسي، يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، قم يا علي، فسر إليهم».

وقولهo ـ يوم خيبر ـ: «لأبعثنَّ إليهم غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتى يفتح الله عليه».

فقضى رسول اللهo بالفتح قبل التوجيه، فاستشرف لكلامه أصحاب رسول اللهo

فلما كان من الغد دعا عليّاًA فبعثه إليهم، فاصطفاه بهذه المنقبة، وسمّاه كرّاراً غير فرّار، فسمّاه الله محبّاً لله ولرسوله، فأخبر أن الله ورسوله يحبّانه.

وإنما قدّمنا هذا الشرح والبيان دليلا على ما أردنا، وقوَّة لما نحن مبيّنوه من أمر الجبر والتفويض، والمنزلة بين المنزلتين، وبالله العون والقوة، وعليه نتوكل في جميع أمورنا.

فإنا نبدأ من ذلك بقول الصادقA: «لا جبر ولا تفويض، ولكن منزلة بين المنزلتين، وهي صحة الخلقة، وتخلية السَّربَ[٤١٤] والمهلة في الوقت، والزاد مثل الراحلة، والسبب المهيّج للفاعل على فعله».

فهذه خمسة أشياء جمع بها الصادقA جوامع الفضل، فإذا نقص العبد منها خلّة

كان العمل عنه مطروحاً بِحَسَبِه.

فأخبر الصادقA بأصل ما يجب على الناس من طلب معرفته، ونَطَقَ الكتاب بتصديقه، فشهد بذلك محكمات آيات رسوله ـ لأن الرسولo ـ لا يعدو شيء من قوله وأقاويلهم حدود القرآن، فإذا وردت حقائق الأخبار والتُمِست شواهدها من التنزيل، فوجد لها موافقاً، وعليها دليلاً كان الإقتداء بها فرضاً، لا يتعدّاه إلاّ أهل العناد كما ذكرنا في أول الكتاب.

ولما التمسنا تحقيق ما قاله الصادقA من المنزلة بين المنزلتين وإنكاره الجبر والتفويض، وجدنا الكتاب قد شهد وصدَّق مقالته في هذا.

وخبرٌ عنه أيضاً موافق لهذا: إن الصادقA سُئِل: هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال الصادقA: «هو أعدل من ذلك».

فقيل له: فهل فوّض إليهم؟ فقالA: «هو أعزّ وأقهر لهم من ذلك».

وروي عنه أنّه قال: «الناس في القدر على ثلاثة أوجه:

رجل يزعم أن الأمر مفوَّض إليه فقد وَهَنَ الله في سلطانه، فهو هالك.

ورجلٌ يزعم أن الله (جلّ وعزّ) أجبر العباد على المعاصي، وكلَّفهم ما لا يطيقون، فقد ظَلَمَ الله في حكمه، فهو هالك.

ورجل يزعم إن الله كلَّف العباد ما يطيقون، ولم يكلّفهم ما لا يطيقون، فإذا أحسن حَمَدَ الله، وإذا أساء استغفَرَ الله، فهذا مسلم بالغ».

فأخبرA ان مَن تقلَّد الجبر والتفويض، ودانَ بهما فهو على خلاف الحق، فقد شرحتُ الجبر الذي من دان به يلزمه الخطأ، وأن يتقلَّد التفويض يلزمه الباطل، فصارت المنزلة بين المنزلتين بينهما.

ثم قالA: وأضرب لكل باب من هذه الأبواب مَثَلاً يقرّب المعنى للطالب، ويُسهّل له البحث عن شرحه، تشهد به محكمات آيات الكتاب، وتحقِّق تصديقه عند ذوي الألباب، وبالله التوفيق والعصمة.

فأمّا الجبر الذي يُلزم مَن دان به الخطأ فهو قول من زعم أن الله (جلّ وعزّ) أجبر العباد على المعاصي وعاقَبَهم عليها.

ومَن قال بهذا القول فقد ظلم الله في حكمه، وكذَّبه ورَدَّ عليه قوله: **[وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا]** وقوله: **[ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ]** وقوله: **[إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ]** مع آي كثيرة في ذكر هذا.

فَمَن زعم أنه مُجبرٌ على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله، وقد ظلمه في عُقوبته ومن ظلم الله فقد كذَّب كتابه، ومن كذَّب كتابه فقد لزمه الكفر بإجماع الأُمّة.

ومَثل ذلك: مَثَل رجل مَلَكَ عبداً مملوكاً بملك نفسه، ولا يملك عرضاً من عرض الدنيا، ويعلم مولاه ذلك منه، فأمره ـ على علم منه ـ بالمصير إلى السوق لحاجة يأتيه بها، ولم يُملِّكه ثمن ما يأتيه به من حاجته، وعَلم المالك أن على الحاجة رقيباً لا يطمع أحدا أخذها منه إلاّ بما يرضى به من

الثَّمَن، وقد وَصَفَ مالك هذا العبد نفسه بالعدل والنصفة، وإظهار الحكمة، ونفي الجور، وأوعد عبده إن لم يأته بحاجته أن يعاقبه (على علم منه بالرقيب الذي على حاجته أنه سيمنعه) وعَلم أن المملوك لا يملك ثمنها، ولم يُملِّكه ذلك.

فلما صار العبد إلى السوق، وجاء ليأخذ حاجته التي بَعَثَه المولى لها، وَجَدَ عليها مانعاً يمنع منه إلاّ بشراء وليس يملك العبد ثمنها فأنصرف إلى مولاه خائباً بغير قضاء حاجته، فاغتاظ مولاه من ذلك، وعاقبه عليه.

أليس يجب ـ في عدله وحكمه ـ أن لا يعاقبه وهو يعلم أن عبده لا يملك عَرَضاً من عُروض الدنيا، ولم يُملِّكه ثَمَن حاجته؟

فإن عاقَبه، عاقَبَه ظالماً متعدّياً عليه، مُبطِلاً لما وَصَفَ من عدله وحكمته، ونصفته، وإن لم يعاقبه كذّب نفسه ـ في وعيده إيّاه، حين وعده ـ بالكذب والظلم واللذينَ ينفيان العدل والحكمة، تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

فَمَن دانَ بالجبر، أو بما يدعو إلى الجبر فقد ظَلم الله ونَسَبَه إلى الجور والعدوان إذ أوجب على من أجبره العقوبة، ومن زعم أن الله أجبر العباد فقد أوجب ـ على قياس قوله ـ ان الله يدفع عنهم العقوبة، ومن زعم أن الله يدفع عن أهل المعاصي ـ العذاب فقد كذَّب الله في وعيده حيث يقول: **[بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]**.

وقوله: **[إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا]** وقوله: **[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا]**. مع آي كثير في هذا الفنّ ممّن كذّب وعيدّ الله، ويلزمه ـ في تكذيبه آيةً من كتاب الله ـ الكفر.

وهو ممّن قال الله: **[أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ]**.

بل نقول: إن الله (جلَّ وعزَّ) يجازي العباد على أعمالهم، ويعاقبهم على أفعالهم بالإستطاعة التي مَلَّكهم إياها، فأمرهم ونهاهم بذلك، ونَطَقَ كتابه: **[مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ]** وقال (جلّ ذكره): **[يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ]** وقال: **[الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ]**.

فهذه آيات محكمات تنفي الجبر ومَن دانَ به، ومِثْلُها في القرآن كثير اختصرنا ذلك لئلا يطول الكتاب، وبالله التوفيق.

وإلى هذا ذهبت الأئمة المهتدية من عترة الرسولo فإنهم قالوا:

لو فوَّض [الله] إليهم على جهة الإهمال لكان لازماً له رضى ما اختاروه، واستوجبوا منه الثواب، ولم يكن عليهم فيما جَنَوه العقاب، إذا كان الإهمال واقعاً.

وتنصرف هذه المقالة على معنيين:

١- إمّا أن يكون العباد تظاهروا عليه، فألزَموه قبول اختيارهم بآرائهم ضرورةً كَرَهَ ذلك أم أحبَّ، فقد لزمه الوهن.

٢- أو يكون ـ جلّ وعزّ ـ عَجَزَ عن تَعَبُّدهم بالأمر والنهي على إرادته، كرهوا أو أحبّوا، ففوَّض أمره ونهيه إليهم، وأجراهما على محبّتهم، إذ عَجَز عن تَعبّدهم بإراداته، فجعل الإختيار إليهم في الكفر والإيمان.

ومَثَل ذلك: مَثَل رجل مَلَك عبداً ابتاعه ليخدمه، ويعرف له فضل ولايته، ويقف عنده أمره ونهيه، وادّعى مالك العبد أنه قاهر عزيز حكيم، فأمر عبدَه ونهاه، وَوَعَدَه على اتّباع أمره عظيم الثواب، وأوعده على معصيته أليم العقاب.

فخالَفَ العبد إرادة مالكه، ولم يقف عند أمره ونهيه، فأي أمر أمَرَه أو أي نهي نهاه عنه لم يأته على إرادة المولى، بل كان العبد يتبع إرادة نفسه، واتّباع هواه، ولا يطيق المولى أن يردَّه إلى اتّباع أمره ونهيه، والوقوف على إرادته.

ففوَّض اختيار أمره ونهيه إليه، ورضي منه بكل ما فَعَله على إرادة العبد لا على إرادة المالك.

وبَعَثَه في بعض حوائجه، وسَمَّى له الحاجة، فخالف على مولاه، وقصد لإرادة نفسه، واتَّبع هواه، فلما رجع [العبد] إلى مولاه نظر إلى ما أتاه به فإذا هو على خلاف ما أمَرَ به، فقال له: لِمَ أتيتني بخلاف ما أمرتك؟

فقال العبد: اتَّكلتُ على تفويضك الأمر إليَّ، فاتَّبعت هواي وإرادتي لأن المفوَّض إليه غير محظور عليه فاستحال التفويض.

أو ليس يجب على هذا السبب إمّا أن يكون المالك للعبد قادراً، يأمر عبده باتّباع أمره ونهيه على إرادته، لا على إرادة العبد، ويُملِّكه من الطاقة بقدر ما يأمره به وينهاه عنه؟

فإذا أمَرَه بأمر، ونهاه عن نهي عرَّفه الثواب والعقاب عليهما، وحذَّره، ورغَّبَه، بصفة ثوابه وعقابه، ليعرف العبد قدرة مولاه بما ملَّكَه من الطاقة لأمره ونهيه، وترغيبه وترهيبه، فيكون عدله وإنصافه شاملاً له، وحُجَّة واضحة عليه للإعذار والإنذار.

فإذا اتَّبع العبد أمر مولاه جازاه، وإن لم يزدجِر عن نهيه عاقَبَه.

أو يكون عاجزاً، غير قادر، ففوَّض أمره إليه، أحسَنَ أم أساءَ، أطاع أم عصى، عاجز

عن عقوبته وردِّه إلى اتباع أمره.

وفي إثبات العجز نفيٌ القدرة والتألّه، وإبطال الأمر والنهي، والثواب والعقاب ومخالفة الكتاب، إذ يقول: (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) وقوله عزّ وجلّ: **[اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ]** وقوله: **[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ]** وقوله: **[وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا]** وقوله: **[أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ]**.

فَمَن زعم أن الله تعالى فوَّض أمره ونهيه إلى عباده فقد أثبت عليه العجز، وأوجب عليه قبول كل ما عملوا من خير وشرّ، وأبطل أمرَ الله ونهيه، ووعده ووعيده، لعلّة ما زعم انّ، الله فَوَّضها إليه، لأنَّ المفوَّض إليه يعمل بمشيئته، فإن شاء الكفر أو الإيمان كان غير مردود عليه ولا محظور.

فَمَن دانَ بالتفويض على هذا المعنى فقد أبطل جميع ما ذكرنا من وعده ووعيده وأمره ونهيه، وهو من أهل هذه الآية: **[أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ]**.

تعالى عما يدين به أهل التفويض عُلُوّاً كبيراً.

لكن نقول: إن الله خَلَقَ الخلق بقدرته، وملّكهم استطاعة تعبّدهم بها فأمرهم ونهاهم بما أراد، فَقَبل منهم اتّباع أمره، ورضي بذلك لهم، ونهاهم عن معصيته، وذَمَّ من عصاه، وعاقَبَه عليها، ولله الخِيرة في الأمر والنهي، يختار ما يريد ويأمر به، وينهى عما يكره ويُعاقب عليه، بالإستطاعة التي مَلَّكها عبادَه لاتّباع أمره، واجتناب معاصيه، لأنّه ظاهر العدل والنصفة والحكمة البالغة، بالغ الحجّة بالإعذار والإنذار، وإليه الصفوة، يصطفي من عباده من يشاء لتبليغ رسالته، واحتجاجه على عباده.

اصطفى محمداًo وبَعَثَه برسالاته إلى خلقه، فقال ـ مَن قال من كُفار قومه حسداً واستكباراً ـ: **[لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ]** يعني بذلك أميَّة بن أبي الصلت، وأبا مسعود الثقفي.

فأبطل الله اختيارهم، ولم يُجز لَهم آراءهم حيث يقول: **[أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ]**.

ولذلك اختار من الأُمور ما أحبَّ، ونهى عما كره، فمن اطاعه اثابَه، ومَن عصاه عاقَبَه، ولو فوَّض اختيار امره إلى عباده لأجاز لقريش اختيار أميَّة بن أبي الصلت وأبي مسعود الثقفي، إذ كانا عندهم أفضل من محمدo.

فلما أدَّب الله المؤمنين بقوله: **[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ]** فلم يُجز لهم الإختيار بأهوائهم، ولم يقبل منهم إلاّ اتّباع أمره، واجتناب نهيه على يَدَي مَن اصطفاه، فَمَن أطاعه رَشَدَ، ومن عصاه ضلَّ وغوى،

ولَزَمَته الحجّة بما ملَّكه من الاستطاعة لإتّباع أمره، واجتناب نهيه فمن أجل ذلك حَرَمه ثوابه، وأنزل به عقابه.

وهذا (القول بين القولين) ليس بجبر ولا تفويض، وبذلك أخبر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) «عباية بن ربعي الأسدي»، حين سأله عن الإستطاعة التي بها يقوم ويقعد، ويفعل، فقال له

أمير المؤمنينA: سألت عن الإستطاعة، تملكها من دون الله أو مع الله؟ فسكت عباية فقال له أمير المؤمنين:

قل يا عباية. قال: وما أقول؟ قالA إن قلت أنك تملكها من الله قتلتك، وإن قلت: تملكها دون الله قتلتك!!.

قال عباية: فما أقول يا أمير المؤمنين؟

قال: تقول: إنك تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن يُملِّكها إياك كان ذلك من عطائه، وإن يسلُبكها كان ذلك من بلائه، هو المالك، لما مَلَّك، والقادر على ما عليه أقدرك، أما سمعت الناس يسألون الحول والقوّة حين يقولون: لا حول ولا قوة إلاّ بالله؟

قال عباية: وما تأويلها يا أمير المؤمنين؟

قالA: لا حول عن معاصي الله إلاّ بعصمة الله، ولا قوَّة لنا على طاعة الله إلاّ بِعَون الله.

قال: فَوَثَبَ عباية، فَقَبَّل يديه ورجليه.

وروي عن أمير المؤمنينA حين أتاه «نجدة» يسأله عن معرفة الله؟ قال: يا أمير المؤمنين بماذا عرفت ربَّك؟ قالA: بالتمييز الذي خَوَّلَني، والعقل الذي دلَّني. قال: أفَمَجبولٌ أنتَ عليه؟ قال: لو كنت مجبولاً ما كنت محموداً على إحسان، ولا مذموماً على إساءة، وكان المحسن أولى باللائمة من المسيء، فعلمت أن الله قائم، باق، وما دونه حدث حائل زائل، وليس القديم الباقي كالحدث الزائل.

قال (نجدة) أجدك أصبحت حكيماً يا أمير المؤمنين.

قال: أصبحتُ مُخيَّراً، فإن أتيت السيئة [بـ]مكان الحسنة فأنا المعاقَب عليها.

وروي عن أمير المؤمنينA أنّه قال ـ لرجل بعد أنصرافه من الشام فقال [الرجل]: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام بقضاء وقدر؟

قالA: نعم، يا شيخ; ما عَلَوتم تلعةً، ولا هبطتم وادياً إلاّ بقضاء وقدر من الله.

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين.

فقالA: مَه يا شيخ، فإنّ الله قد عظّم أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي مقامكم

وأنتم مقيمون، وفي انصرافكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من أموركم مُكرهين ولا إليه مضطرّين، لعلك ظننت أنه قضاء حتمٌ، وقَدَرٌ لازم؟

لو كان ذلك لَبَطَلَ الثواب والعقاب، ولَسَقَطَ الوعدُ والوعيد، ولما ألزمَت الأشياء أهلها على الحقائق، ذلك مقالة عَبَدَة الأوثان، وأولياء الشيطان.

إنّ الله أمَرَ تخييراً، ونهى تحذيراً، ولم يُطَع مُكرهاً، ولم يُعصَ مغلوباً ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار.

فقام الشيخ فقبّل رأس أمير المؤمنينA وأنشأ يقول:

أنــت الإمــام الــذي نرجــوا بطاعتــه ... يــوم النجــاة مــن الــرحمن غُفرانــا
أوضَـحت مـن ديننـا مـا كـان مُلتَبَسـاً ... جــزاك ربُّــك عنّــا فيــه رضــوانا
فلــيس معــذرة فــي فعــل فاحشــة ... قــد كنــت راكبهــا ظلمــاً وعــدواناً

فقد دلَّ أمير المؤمنينA على موافقة الكتاب، ونفي الجبر والتفويض اللـذَين يُلزِمـان ـ مَـن دانَ بهما وتقلَّدهما ـ الباطل والكفر، وتكذيب الكتاب، ونعوذ بالله من الضلالة والكفر.

ولسنا ندين بِجبر ولا تفويض، ولكنّـا نقـول بمنزلـة بـين المنـزلتين، وهـو الإمتحـان والإختبـار بالإستطاعة التي مَلَّكنا الله، وتعبَّدَنا بها، على مـا شـهد بـه الكتـاب، ودان بـه الأئمـة الأبـرار مـن آل الرسولo.

ومَثَلُ الإختبار بالاستطاعة مَثَلُ رجل مَلَكَ عبداً، وملك مالاً كثيراً، أحبَّ أن يختبره عبده علـى علم منه بما يؤول إليه.

فَمَلَّكَه من ماله بعض ما أحبَّ، ووقَفَه على أمور عرَّفها العبد، فـأمَرَه أن يصـرف ذلـك المـال فيها، ونهاه عن أسباب لم يحبَّها، وتقدَّم إليه أن يجتنبها، ولا ينفق من ماله فيها والمال يتصـرّف فـي أيّ الوجهين.

فَصَرَف المال: أحدهما في اتِّباع أمر المولى ورضاه، والآخر صرفه في اتّباع نهيـه وسـخطه; وأسكنه دار اختبار، أعلَمَه أنها غير دائم له السُكنَى فـي الـدار، وإنّ لـه داراً غيرهـا، وهـو مُخرِجُـه إليها، فيها ثواب وعقاب دائمان.

فإن أنفذ العبد المال الذي ملّكه مولاه في الوجه الذي أمَرَه بها جعل له ذلـك الثـواب الـدائم فـي تلك الدار التي أعلَمَه أنه مُخرجُه إليها.

وإن أنفق المال في الوجه الذي نهاه عن إنفاقه فيه جعل له ذلك العقاب الدائم في دار الخلود.

وقد حَدَّ المولى في ذلك حدّاً معروفاً، وهو المسكن الذي اسكنه في الدار الأولى فـإذا بلـغ الحـدّ استبدل بالمال وبالعبد، على أنه لم يزل مالكاً للمال والعبد في الأوقات كلهـا، إلاَّ أنـه [المـولى] وعَـدَ أن لا يسلبه ذلك المال ما كان في تلك الدار الأُولى، إلـى أن يسـتتم سـكناه فيهـا! فـوفى لـه، لأنّ مـن صفات المولى: العدل والوفاء والنصفة والحكمة.

أو ليس يجب إن كان ذلك العبد صَرَفَ من ذلك المال فـي الوجـه المـأمور بـه أن يفـي لـه بمـا وَعَدَه من الثواب؟ وتفضَّل عليه بأن استعمله في دار فانية، وأثابَه على طاعته فيهـا نعيمـاً دائمـاً فـي دار باقية دائمة؟

وإن صَرَفَ العبد المال ـ الذي ملَّكه مولاه أيام سُكناه تلك الدار الأولى ـ في الوجه المنهيِّ عنه، وخالف أمر مولاه، كذلك تجب عليه العقوبة الدائمة التي حذّره إياها غيـر ظـالم لـه، لمـا تقـدّم إليـه، وأعلَمَه وعَرَّفه، وأوجب له الوفاء بوَعده ووعيده.

بذلك يوصَف القادر القاهر.

وأما المولى: هو الله.

وأما العبد: فهو ابن آدم المخلوق.

والمال: قدرة الله الواسعة.

ومحنته: إظهاره الحكمة والقدرة.

والدار الفانية: هي الدنيا.

وبعض المال الذي ملَّكه مولاه: هو الاستطاعة التي ملَّكَ ابن آدم.

والأمور التي أمر الله بِصَرف المال إليها: هو الاستطاعة لاتِّباع الأنبياء، والإقرار بما أوردوه عن الله واجتناب الأسباب التي نهى عنها: هي طُرُق إبليس. وأما وعدُه: فالنعيم الدائم، وهي الجنّة.

وأمّا الدار الفانية: فهي الدنيا.

وأما الدار الأُخرى: فهي الدار الباقية، وهي الآخرة.

والقول: بين الجبر والتفويض هي الإختيار والامتحان، والبلوى بالإستطاعة التي مَلّكَ العبد.

وشرحها في الخمسة الأمثال التي ذكرها الصادقA أنها جمعت جوامع الفضل، وأنا مُفسِّرها بشواهد من القرآن والبيان إن شاء الله.

تفسير صحة الخلقة:

أما قول الصادقA فإن معناه كمال الخلق للإنسان، وكمال الحواس، وثبات العقل والتمييز، وإطلاق اللسان بالنطق، وذلك قول الله: **[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً]**.

فقد أخبر (عزّ وجل) عن تفضيله بني آدم على سائر خلقه ـ من البهائم والسباع ودوابّ البحر، والطير، وكل ذي حركة تدركه حواسّ بني آدم ـ بتمييز العقل والنطق.

وذلك قوله: **[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ]** وقوله: **[يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ]** في آيات كثيرة.

فأوّل نعمة الله على الإنسان صحّة عقله، وتفضيله ـ على كثير من خَلقه ـ بكمال العقل وتمييز البيان، وذلك أن كل ذي حركة على بسيط الأرض هو قائم بنفسه، بحواسّه، مستكمل في ذاته، ففضَّل بني آدم بالنطق الذي ليس في غيره من الخلق المدرِك بالحواس.

فمن أجل النطق ملَّك الله ابن آدم غيرَه من الخلق، حتى صار آمِراً ناهياً، وغيره مسخَّرٌ له، كما قال الله: **[كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ]** وقال: **[وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا]** وقال: **[وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ]**.

فمن أجل ذلك دعا الله الإنسان إلى إتّباع أمره، وإلى طاعته بتفضيله إياه باستواء الخلق، وكمال النطق، والمعرفة بعد أن ملَّكهم استطاعة ما كان تعبَّدهم به، بقوله: **[فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا]** وقوله: **[لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا]** وقوله: **[لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا]** وفي آيات كثيرة.

فإذا سلب من العبد حاسَّة من حواسّه رُفع العمل عنه بحاسّته، كقوله: **[لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ]** الآية، فقد رُفع عن كلّ من كان بهذه الصفة: الجهاد، وجميع الأعمال التي لا يقوم بها.

وكذلك أوجب على ذي اليسار [المستطيع] الحج، والزكاة لما ملَّكه من استطاعة ذلك، ولم يوجب على الفقير الزكاة والحج; قوله: **[وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً]** وقوله ـ في الظهار ـ: **[وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...]** إلى قوله **[فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا]**.

كل ذلك دليل على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يكلّف عباده إلاّ ما ملَّكهم استطاعته بقوَّة العمل به، ونهاهم عن مثل ذلك، فهذه صحة الخلقة.

وأما قوله: (تخلية السرب) فهو الذي ليس عليه رقيب يحظر عليه، ويمنعه العمل بما أمره الله به، وذلك قوله ـ فيمن استُضعف، وحُظِر عليه العمل، فلم يجد حيلة، ولا يهتدي سبيلاً ـ كما قال الله تعالى: **[إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً]** فأخبر أن المستضعف لم يُخلَّ سربه، وليس عليه من القول شيء، إذا كان مطمئن القلب بالإيمان.

وأما (المهلة في الوقت) فهو العمل الذي يمتنع الإنسان من حدّ ما تجب عليه المعرفة إلى أجل الوقت، وذلك من وقت تمييزه وبلوغ الحُلم، إلى أن يأتيه أجله.

فمن مات على طلب الحق ولم يدرك كماله فهو على خير، وذلك قوله: **[وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ]** وإن كان لم يعمل بكمال شرائعه لعلّة ما لم يمهله في الوقت إلى استتمام أمره.

وقد حظر على البالغ ما لم يحظر على الطفل إذا لم يبلغ الحُلم في قوله: **[قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ]** ـ إلى قوله ـ **[أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ]** الآية.. فلم يجعل عليهن حرجاً

في إبداء الزينة للطفل وكذلك لا تجري عليه الاحكام.

وأما قوله: (الزاد) فمعناه الجِدة: والبُلغة التي يستعين بها العبد على ما أمره الله به، وذلك قوله: **[مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ]** ألا ترى أنه قَبَل عذر مَن لم يجد ما ينفق، وألزم الحجة كلَّ مَن أمكنته البلغة والراحلة للحجة والجهاد، وأشباه ذلك؟

وكذلك قَبِلَ عذر الفقراء، وأوجب لهم حقاً في مال الأغنياء بقوله: (للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافاً، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)فأمر بإعفائهم، ولم يكلّفهم الإعداد لما لا يستطيعون ولا يملكون.

وأما قوله: «في السبب المُهيّج» فهو النيّة التي هي داعية الإنسان إلى جميع الأفعال وحاسّتها: القلب، فمن فَعَل فعلاً، وكان بدين لم يعقد قلبه على ذلك لم يقبل الله منه عملاً

إلاّ بِصدق النيّة، ولذلك أخبر عن المنافقين بقوله: **[يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ]**.

ثم أنزل [الله] على نبيّهo توبيخاً للمؤمنين: **[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ]**.

فإذا قال الرجُل قولاً: واعتقد في قوله، دعته النيّة إلى تصديق القول بإظهار الفعل، وإذا لم يعتقد القول لم تتبيّن حقيقته.

وقد أجاز الله صدق النيّة وإن كان الفعل غير موافق لها، لِعلّة مانع يمنع إظهار الفعل في قوله **[إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ]** وقوله: **[لاَ يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ]**.

فَدَلَّ القرآن وأخبار الرسولo أنّ القلب مالك لجميع الحواس يُصحِّح أفعالها، ولا يُبطل ما يصحّح القلبُ شيء.

فهذا شرح جميع الخمسة الأمثال التي ذكرها الصادقA أنها تجمع المنزلة بين المنزلتين، وهما الجبر والتفويض.

فإذا اجتمع في الإنسان كمال هذه الخمسة الأمثال وَجَبَ عليه العمل كَمُلا لما أمر الله (عزّ وجل) به ورسوله، وإذا نقص العبد منها خلَّةً كان العمل عنه مطروحاً بحسب ذلك.

فأما شواهد القرآن على الإختيار والبلوى، والاستطاعة التي تجمع القول بين القولين فكثيرة، ومن ذلك: قوله: **[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ]** وقال **[سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ]** وقال: **[الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ]**.

وقال ـ في الفتن التي معناها الإختبار: **[وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ]** الآية وقال في قصّة موسىA: **[فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ]** وقول موسى: **[إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ]** أي اختبارك.

فهذه الآيات يقاس بعضها ببعض، ويشهد بعضها لبعض.

وأمّا آيات البلوى بمعنى الإختبار: قوله: **[لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ]** وقوله: **[ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ]** وقوله: **[إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ]** وقوله: **[خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ**

أَحْسَنُ عَمَلاً] وقوله: **[وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ]** وقوله: **[وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ]**.

وكلُّما في القرآن من بلوى هذه الآيات التي شُرِح أوَّلها فهي اختبار، وأمثالها في القرآن كثيرة، فهي إثبات الإختبار والبلوى.

إن الله (جلّ وعزّ) لم يخلق الخلق عَبَثاً، ولا أهملهم سُدى، ولا أظهر حكمته لعباً وبذلك أخبر في قوله: **[أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا]**.

فإن قال قائل فلم يعلم ما يكون من العباد حتى اختبرهم؟

قلنا: بلى، قد علم ما يكون منهم قبل كونه، وذلك قوله: **[وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ]** وإنما اختبرهم ليُعلِمهم عدلَه، ولا يُعذِّبهم إلاّ بحُجّة بعد الفعل، وقد أخبر بقوله: **[وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً]** وقوله: **[وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً]** وقوله: **[رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ]**.

فالإختبار من الله بالإستطاعة التي ملَّكها عبدَه، وهو القول بين الجبر والتفويض، وهذا نطق القرآن، وجرت الأخبار عن الأئمة من آل الرسولo.

فإن قالوا: ما الحُجّة في قول الله: **[يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ]** وما أشبهها؟

قيل: مجاز هذه الآيات كلها على معنيين:

أمّا أحدهما: فإخبار عن قدرته، أي أنه قادر على هداية من يشاء، و[إ]ضلال من يشاء، وإذا أجبرهم بقدرته على أحدهما لم يجب لهم ثواب، ولا عليهم عقاب، على نحو ما شَرَحنا في الكتاب.

والمعنى الآخر: إن الهداية منه تعريفه كقوله: **[وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ]** أي عرَّفناهم **[فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى]** فلو أجبرهم على الهدى لم يقدروا أن يضلّوا.

وليس كلما وردت آية مشتبهة كانت الآية حجة على محكم الآيات اللواتي أَمَرنا بالأخذ بها، من ذلك قوله: **[مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...]** الآية.

وقال: **[فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ]** أي أحكَمَه، وأشرَحَه، **[أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ]**.

وفّقنا الله وإياكم إلى القول والعمل لما يحب ويرضى، وجَنَّبنا وإياكم معاصيه، بمنّه وفضله.

والحمد لله كثيراً كما هو أهله، وصلّى الله على محمد وآله الطيبين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

تحف العقول / ٤٥٨ ـ ٤٧٥

ملحق رقم (٢)

أسئلة يحيى بن أكثم:

ورفع يحيى بن أكثم أسئلة إلى الامام كان قد كتبها من قبل، وأعدّها لامتحانه فأجاب عنها الامام وأمر ابن السكّيت أن يكتب أجوبتها.

وفيما يلي نص الأسئلة والأجوبة بتصرّف:

س١: قال الله تعالى في كتابه: **[قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ]**(٤١٥) ان السائل هو سليمان و المسؤول هو آصف فهل كان سليمان و هو نبيّ محتاجاً إلى علم آصف؟

س٢: قال تعالى: **[وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا]**(٤١٦) كيف سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟.

س٣: قال تعالى: **[فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ]**(٤١٧) فان كان المخاطب النبيّo فقد شكّ، وإن كان المخاطب غيره فعلى من إذا أُنزل الكتاب؟.

س٤: قال تعالى: **[وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ]**(٤١٨) ما هذه الأبحر وأين هي؟

س٥: قال تعالى: **[وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ]**(٤١٩) فاشتهت نفس آدم أكل البر فأكل، فكيف عوقب؟!!

س٦: قال تعالى: **[أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا]**(٤٢٠) إذا كان يزوج الله عباده الذكران، فكيف عاقب قوماً فعلوا ذلك.

س٧: كيف جاز شهادة المرأة وحدها، وقد قال الله: **[وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ]**(٤٢١).

س٨: حكم عليA في أمر الخنثى أن ينظر إلى مبالها فان كان بولها بول الرجل فهي رجل، وان كان بول الانثى فهي انثى، فمن ذا ينظر إليها، فان كان الناظر إليها رجلاً فعسى أن تكون امرأة، وإن كان الناظر إليها امرأة فعسى أن تكون رجلاً،

وهذا ما لا يحلّ، وما هو ميراثها؟.

س٩: رجل أتى إلى قطيع غنم فرأى الراعي ينزو على شاة منها، فلما بصر بصاحبها خلى سبيلها، فدخلت بين الغنم كيف تذبح؟ وهل يجوز أكلها أم لا؟

س١٠: صلاة الفجر لمَ يجهر فيها بالقرآن مع أنّها من صلاة النهار وانّما يجهر في صلاة الليل؟.

س١١: ان علياً قال لابن جرموز بشّر قاتل ابن صفية بالنار[٤٢٢] فلمّ لم يقتله وهو إمام.

س١٢: أخبرني عن عليّ لمّ قتل أهل صفين، وأمر بذلك ـ أي قتلهم ـ مقبلين ومدبرين وأجاز[٤٢٣] على الجرحى، وكان حكمه يوم الجمل انّه لم يقتل مولّياً، ولم يجز على جريح، ولم يأمر بذلك، وقال: من دخل داره آمن، لمَّ فعل ذلك؟ فان كان الحكم الأول صواباً فالثاني خطأ.

س١٣: أخبرني عن رجل اقرّ باللواط على نفسه، أيحدّ أم يدرأ عنه الحدّ؟

ج١: انه لم يعجز سليمانA عن معرفة ما عرف آصف.. لكنّه صلوات الله عليه أحبّ أن يعرّف أمّته من الجنّ والانس انّه الحجّة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه ذلك لئلا يختلف في إمامته وولايته من بعده، ولتأكيد الحجّة على الخلق.

ج٢: أما سجود يعقوب لولده فان السجود لم يكن ليوسف، وانّما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله تعالى، وتحيّة ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لم يكن لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله تعالى باجتماع الشمل ألم تر أنّه يقول: في شكره في ذلك الوقت **[رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ]** الآية.

ج٣: إن المخاطب بذلك رسول اللهo ولم يكن في شكّ مما أنزل الله إليه ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث نبياً من الملائكة، ولمَ لم يفرق بينه وبين الناس في الاستغناء عن المأكل والمشرب والمشي في الأسواق، فأوحى الله إلى نبيّه، فاسأل الذين يقرأون الكتاب بمحضر من الجهلة هل بعث الله نبيّاً قبلك إلاّ وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولك بهم أسوة يا محمد، وانّما قال: **[فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ]** ولم يكن شكّ ولكن للنصفة كما قال تعالى: **[قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ]**[٤٢٤].

ولو قال: تعالوا فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيبوا إلى المباهلة، وقد علم الله ان نبيّه مؤدّ عنه رسالته، وما هو من الكاذبين، وكذلك عرف النبيّo بأنه صادق فيما يقول: ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه.

ج٤: فهو كذلك لو أن أشجار الدنيا أقلام، والبحر مداد يمدّ سبعة أبحر مداً حتى انفجرت الأرض عيوناً كما انفجرت في الطوفان، ما نفدت كلمات الله، وهي: ـ أي الأبحر ـ عين الكبريت، وعين اليمن، وعين برهوت، وعين طبرية، وحمة ماسيدان ترعة لسان، وحمة أفريقية تدعى سيلان، وعين باحوران، ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى.

ج٥: وأما الجنة ففيها من المأكل، والمشرب والملاهي ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين، وأباح الله ذلك لآدم، والشجرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته أن يأكلا منها، شجرة الحسد.. عهد

الله إليهما أن لا ينظرا إلى من فضّله الله عليهما والى خلائقه بعين الحسد فنسي ولم يجد لـه عزماً.

ج٦: ان الله تعالى زوّج الذكران المطيعين معاذ الله أن يكون الجليل العظيم عنى مـا لبّسـت بـه على نفسك... تطلب الرخصة لارتكاب المحارم، ومـن يفعـل ذلـك يلـق أثامـاً يُضـاعف لـه العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهاناً... إن لم يتب.

ج٧: أما شهادة المرأة وحدها التي جازت فهي القابلة اتي جازت شـهادتها مـع الرضـا فـان لـم يكن رضا فلا أقل من امرأتين، تقوم المرأتان بدل الرجل للضـرورة لأن الرجـل لا يمكنـه أن يقوم مقامها، فان كانت وحدها قُبل قولها مع يمينها.

ج٨: أما قول عليّ: في الخنثى، فهو كما قال، يرث من المبال ينظر قوم إليه عـدول يأخـذ كـل واحد منهم مرآة، ويقوم الخنثى خلفهم عريانة، وينظرون إلى المرآة فيرون الشيء ويحكمون عليه.

ج٩: أما الرجل الناظر إلى الراعي، وقد نـزا علـى شـاة فـان عرفهـا ذبحهـا وأحرقهـا وإن لـم يعرفها قسم الغنم نصفين وساهم بينهما[٤٢٥] فان وقـع السـهم علـى أحـد القسـمين، فقـد نجـا النصف الآخر، ثم يفرق النصف الآخر فلا يزال كـذلك حتـى تبقـى شـاتان، فيقـرع بينهمـا فأيّتها وقع السهم بها ذُبحت ونجا سائر الغنم[٤٢٦].

ج١٠: أما صلاة الفجر والجهـر فيهـا بـالقراءة لأن النبـيo كـان يغلـس بهـا[٤٢٧] فقراءتهـا فـي الليل.

ج١١: أما قول علي: بشّر قاتل ابن صفية بالنار، فهو لقول رسول اللهo: وكان ممّن خرج يـوم النهروان، فلم يقتله أمير المؤمنين بالبصرة لأنه علم أنه يقتل في فتنة النهروان.

ج١٢: أما قولك: إن علياً قاتل أهل صفّين مقبلين، ومدبرين، أجهـز علـى جـريحهم، وانـه يـوم الجمل لم يتبع موليا، ولم يجهز على جريحهم، وكل من ألقى سيفه وسلاحه آمنه، فان أهـل الجمل قُتل إمامُهم، لم يكن لهم فئـة يرجعـون إليهـا، وانّمـا رجـع القـوم إلـى منـازلهم غيـر محـاربين، ولا محتـالين، ولا متجسّسين، ولا متبـارزين، فقـد رضـوا بـالكفّ عـنهم وكـان الحكم فيه دفع السيف، والكفّ عنهم إذا لم يطلبوا عليه أعواناً.

وأهل صفين يرجعون إلى فئة مستعدّة، وإمام منتصب يجمع لهم السلاح من الرمـاح والـدروع والسيوف ويستعد لهم، ويسني لهم العطاء، ويهيّىء لهم الأموال، ويعود مريضـهم ويجبـر كسيرهم، ويداوي جريحهم، ويحمل راجلهم، ويكسو حاسرهم، ويردّهم فيرجعون إلى محاربتهم، وقتالهم.

فإن الحكم في أهل البصرة الكفّ عنهم لما ألقوا أسلحتهم اذ لـم تكـن لهـم فئـة يرجعـون إليهـا، والحكم في أهل صفين أن يتبع مدبرهم، ويجهز على جريحهم فلا يساوي بين الفـريقين فـي الحكـم، ولولا أمير المؤمنين وحكمه في أهل صفين والجمل لما عرف الحكم في عصاة أهـل التوحيـد، فمـن أبى ذلك عُرض على السيف.

ج١٣: أما الرجل الـذي أقـرّ بـاللواط فانّـه أقـرّ بـذلك متبرّعـاً مـن نفسـه، ولـم تقـم عليـه بيّنـة،

وانّما تطوّع بالاقرار من نفسه، واذا كان للإمام الذي من الله أن يعاقب عن الله كان له أن يمنَّ عن الله أما سمعت قول الله (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) فبدأ بالمنّ قبل المنع.

قد أنبأناك بجميع ما سألتنا عنه فاعلم..

مناقب ابن شهراشوب: ٤ / ٤٠٣ ـ ٤٠٦، تحف العقول: ٤٧٧ ـ ٤٨١.

ملحق رقم (٣)

رسالة الخوارزمي إلى أهالي نيسابور

«فلما انتهكوا ـ أي بني أمية ـ ذلك الحريم، واقترفوا ذلك الإثم العظيم غضب الله عليهم، وانتزع الملك منهم، فبعث عليهم (أبا مجرم) لا أبا مسلم فنظر لا نظر الله إليه إلى صلابة العلوية، والى لين العباسية فترك تقاه واتبع هواه، وباع آخرته بدنياه، بقتله عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وسلّط طواغيت خراسان، واكراد اصفهان، وخوارج سجستان على آل ابي طالب يقتلهم تحت كل حجر ومدر، ويطلبهم في كل سهل وجبل، حتى سلط الله عليه أحب الناس إليه فقتله كما قتل الناس في طاعته، وأخذه بما أخذ الناس في بيعته، ولم ينفعه أن أسخط الله برضاه، وإن ركب ما لا يهواه، وخلت إلى الدوانيقي الدنيا فخبط فيها عسفا، وتقضى فيها جوراً، وحيفا، وقد امتلأت سجونه بأهل بيت الرسالة، ومعدن الطيب والطهارة، قد تتبّع غائبهم وتلقط حاضرهم، حتى قتل عبدالله بن محمد بن عبدالله الحسني بـ(السند)، على يد عمر بن هشام الثعلبي، فما ظنك بمن قرب متناوله عليه ولان مسه على يديه... وهذا قليل في جنب ما قتله «هارون» [الرشيد] منهم، وفعله موسى [الهادي] قبله بهم، فقد عرفتم ما توجه على الحسين بن علي بـ[فخ] من موسى، وما اتفق على علي بن الأفطس الحسيني من «هارون»، وما جرى على أحمد بن علي الزيدي، وعلى القاسم بن علي الحسيني من حبسه، وعلى غسان بن حاضر الخزاعي حين أخذ من قبله.

والجملة ان «هارون» مات وقد حصد شجرة النبوة، واقتلع غرس الامامة.. وانتم أصلحكم الله أعظم نصيبا في الدين من الأعمش فقد شتموه ومن شريك فقد عزلوه، ومن

هشام بن الحكم فقد أخافوه ومن علي بن يقطين فقد اتهموه...».

وتطرّق الخوارزمي إلى تسجيل جرائم الحكم الاموي الغاشم ليعود بعدها إلى الحكم العباسي مرّة أخرى:

«وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله مقالاً، وجُلْ في عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالاً.

يجبى فيؤهم فيفرق على الديلمي، والتركي، ويحمل إلى المغربي والفرغاني، ويموت إمام من أئمة الهدى، وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت (ظراط) لهم و مسخرة، أو ضارب فتحضر جنازته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة..

ويسلم فيهم من يعرفونه دهريا، أو سوفسطائيا، ولا يتعرضون لمن يدرس كتابا فلسفيا ومانويا، ويقتلون من يعرفونه شيعيا، ويسفكون دم من سمى ابنه عليا!

ولو لم يقتل من شيعة أهل البيت غير المعلى بن خنيس قتيلداود بن على، ولو لم يحبس فيهم غير أبى تراب المروزي لكان ذلك جرحا لا يبرأ، وثائرة لا تطفأ، وصدعا لا يلتئم، وجرحاً لا يلتحم.

وكفاهم أن شعراء قريش قالوا في الجاهلية أشعاراً، يهجون بها أمير المؤمنينA، ويعارضون فيها أشعار المسلمين فحملت أشعارهم، ودونت أخبارهم، ورواها الرواة مثل الواقدي ووهب بن منبه التميمي، ومثل الكلبي، والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدي، ودأب بن الكناني، وان بعض شعراء الشيعة يتكلم في ذكر مناقب الوحي، بل ذكر معجزات النبيo فيقطع لسانه، ويمزّق ديوانه، كما فعُل بعبدالله بن عمار البرقي وكما أُريد بالكميت بن زيد الأسدي، وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النميري، وكما دمر على دعبل بن الخزاعي، مع رفقتهم من مروان بن أبي حفصة اليمامي، ومن علي بن الجهم الشامي، ليس الا لغلوهما في النصب، واستيجابهما مقت الربّ... حتى ان «هارون» بن الخيزران [الرشيد] وجعفر المتوكل على الشيطان لا على الرحمن كانا لا يعطيان مالا، ولا يبذلان نوالاً الا لمن شتم آل أبي طالب، ونصر مذهب النواصب مثل عبدالله بن مصعب الزبيري ووهب بن وهب البختري، ومن الشعراء مثل مروان بن أبي حفصة الأموي، فأما في ايام جعفر [المتوكل] فمثل بكار بن عبدالله الزبيري، وأبي السمط بن أبي الجون الأموي وأبن أبي الشوارب العبشمي.

وعرج بعد هذا الكلام على بني أمية وما اقترفوه من ظلم العلويين ثم استأنف الكلام عن العباسيين فقال:

وما هذا بأعجب من صياح شعراء بني العباس على رؤوسهم بالحق وان كرهوه، وبتفصيل من نقصوه وقتلوه، قال منصور بن الزبرقان على بساط هارون:

{٣٤١}

آل النبي ومن يحبهم ... يتطامنون مخافة القتل

أمن النصارى واليهود وهم ... من امة التوحيد في أزل

وقال دعبل:

الـــم تـــرَ أنـــي مـــذ ثمـــانين حجـــة أروح واغـــدو دائـــم الحســـرات
أرى فيـــئهم فـــي غيـــرهم متقســـما وأيـــديهم مـــن فيـــئهم صـــفرات

وقال علي بن العباس الرومي وهو مولى المعتصم:

تأليـــت ان لا يبـــرح المـــرء مـــنكم يشـــل علـــى حـــر الجبـــين فـــيعفج
كـــذلك بنـــو العبـــاس تصـــبر مـــنكم ويصـــبر للســـيف الكمـــى المـــدجج

وقال ابراهيم بن العباس الصولي: وهو كاتب القوم وعاملهم في الرضا لما قربه المأمون:

يمـــــن علـــــيكم بـــــأموالكم وتُعطـــــون مـــــن مئـــــة واحـــــدا

وكيف لا ينتقضون قوما يقتلون بنى عمهم جوعا وسغبا، ويملأون ديار الترك والديلم فضة وذهبا، يستنصرون المغربي والفرغاني ويجنون المهاجري والانصاري، ويوالون أنباط السود وزارتهم، وتلف العجم والطماطم قيادتهم، ويمنعون آل أبي طالب ميراث أمهم، وفيء جدهم... يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها، ويقترح على الايام الشهوة فلا يطعمها، وخراج مصر والأهواز، وصدقات الحرمين والحجاز تصرف إلى «ابن مريم المديني»، والى «ابراهيم الموصلي»، و«ابن جامع السهمي»، والى «زلزل الضارب»، و«برصوما الزامر»، واقطاع «بختيشوع النصراني» قوت أهل بلد، وجاري [المرتّب الشهري] بغا التركي والأفشين الاشروسني، كفاية أمة ذات عدد.

والمتوكل زعموا يتسرى بإثني عشر الف سرية، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سندية، وصفوة مال الخراج مقصورة على أرزاق الصفاغنة، وعلى موائد المخاتنة، وعلى طعمة الكلاّبين، ورسوم القرّادين، وعلى «مخارق» المغنّي، «زرزر»، و«عمر بن بانة المهلبي»، ويبخلون على الفاطمي بأكلة أو شربة، ويصارفونه على دانق وجبة، ويشترون العوادة بالبدر، ويجرون لها ما يفي برزق عسكر.

والقوم الذين أُحل لهم الخمس، وحُرّمت عليهم الصدقة، وفُرضت لهم الكرامة والمحبة، يتكفّفون ضرّاً، ويهلكون فقراً، ويرهن أحدهم سيفه، ويبيع ثوبه، وينظر إلى فيئه بعين مريضة، ويشتد على دهره بنفس ضعيفة، ليس له ذنب إلاّ ان جده النبيo، وأبوه

الوصي، وأمه فاطمة، وجدته خديجة، ومذهبه الايمان، وامامه القرآن، وحقوقه مروفة إلى القهرمانة والمفرطة والى المغمزة، والى المزرعة، وخمسه مقسوم على نقار الديكة الدمية، والقردة، وعلى رؤوس اللعبة واللعبة، وعلى مرية الرحلة.

«وماذا أقول في قوم حملوا الوحوش على النساء المسلمات وأجروا لعبادة [المخنث] وذويه الجرايات، وحرثوا تربة الحسينA بالفدان، ونفوا زوّاره إلى البلدان... وما أصف من قوم هم نُطُف السكارى في ارحام القيان؟ وماذا يقال في أهل بيت منهم البغا، وفيهم راح التخنيت وغدا، وبهم عرف اللواط؟

كان ابراهيم ابن المهدي مغنيّا، وكان المتوكل مؤنثا، وكان المعتز مخنثا، وكان ابن زبيدة [الأمين] معتوها مفركا.. وقتل المأمون أخاه، وقتل المنتصر أباه، وسمّ موسى ابن المهدى امه، وسمّ المعتضد عمّه».

عن رسائل الخوارزمي

* * *

ملحق رقم (٤)

قصيدة الشاعر العربي الأمير أبي فراس الحمداني

المعروفة بـ(القصيدة الشافية)

قصيدة الأمير، أبي فراس: الحارث بن يعلى بن حمدان، الحمداني، المقتول سنة ٣٥٧هـ فإنّه أمر أن تُشهَر خمسمائة سيف بالمعسكر وقت إنشاد هذه القصيدة، فجاءت بمثابة اعلان كبير وادانة للحكم العباسي.

وهي من القصائد الخالدة ومذكورة في أكثر المصادر، وقام بعض العلماء بتخميسها وبعضهم بتشطيرها، وتُقرأ في بعض المجالس.

بلغت الذروة في الحماسة، وإحقاق الحق، وتزييف الباطل، وقوّة البيان، وجرأة الإقدام، وتحدّي الظالمين وكشف الحقيقة.

وتتجلى الروح الثوريّة في كل بيت منها، مما يدل على روحه الكبيرة فجاءت ردّاً على قصيدة «ابن سكرة العباسي» التي يهجو بها العلويين، وهم ذريّة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبA التي مَطلعها:

بنـــى علـــيّ دعـــوا مقـــالتكم ... لا يـنقص الـدرَّ وضـعُ مـن وَضَـعَه

النص الكامل للقصيدة «الشافية»:

الحـــقُ مهتضَـــمُ، والـــدينُ مختـــرَمُ ... وفـــيء آل رســـول الله مقتســـمُ

والنـــاس عنـــدك لا نـــاس فـــتحفظهم ... ســـوم الرّعـــاة، ولا شـــاة ولا نعـــمُ

إنـــي أبيـــت قليـــل النـــوم، أرَّقنـــي ... قلـــبٌ تصـــارع فيـــه الهـــمُ والهمـــمُ

وعزمـــة لا ينـــام الليـــل صـــاحبُها ... إلاّ علـــى ظَفَـــر عفـــي طيّـــه كـــرمُ

يُصـــان مهـــري لأمـــر لا أبـــوح بـــه ... والـدرع والـرمح والصمصـامة الخـذمُ

وكـــل مـــائرة الضـــبعين مســـرحها ... رِمـــث الجزيـــرة، والخـــذراف والعـــنمُ

وفتيـــة قلـــبهم قلـــب إذا ركبـــوا ... يومـــاً، ورأيهـــم رأيٌ إذا عزمـــواُ

يـــا للرجـــال أمـــا لله منتصـــر ... مـــن الطغـــاة؟ ومـــا للـــدين منـــتقمُ؟

بنـــو علـــيٍّ رعايـــا فـــي ديـــارهم ... والأمـــر تملكـــه النســـوان والخـــدمُ

{٣٤٤}

محـــلاّون، فأصـــفى شـــربهم وشـــلٌ ... عنـــد الـــورود، وأوفـــى وردهـــم لَمَـــمُ
فـــالأرض إلاّ علـــى مُلاكهـــا ســـعة ... والمـــال إلاّ علـــى أربابـــه ديـــمُ
ومـــا الســـعيد بهـــا إلاّ الـــذي ظُلمـــوا ... ومـــا الشـــقي بهـــا إلاّ الـــذي ظَلَمـــوا
للمتقـــين مـــن الـــدنيا عواقبهـــا ... وإن تعجَّـــل فيهـــا الظـــالم الأثِـــمُ
لا يطغـــينَ بنـــي العبـــاس مُلْكُهـــم ... بنـــو علـــي مـــواليهم وإن رغمـــوا
أتفخـــرون علـــيهم، لا أبـــاً لكـــم! ... حتـــى كـــأنَّ رســـول الله جـــدُّكمُ
ولا تـــوازن يومـــاً بيـــنكم شـــرفٌ ... ولا تســـاوت لكـــم فـــي مـــوطن قـــدمُ
ولا لكـــم مـــثلهم فـــي المجـــد متصـــل ... ولا لجـــدّكم معشـــار جـــدِّهمُ
ولا لعـــرقكم مـــن عـــرقهم شـــبهٌ ... ولا نثيلـــتكُم مـــن أمِّهـــم أمـــمُ
قـــال النبـــي بهـــا (يـــوم الغـــدير) لهـــم ... والله يشـــهد والأمـــلاك والأمـــمُ
حتـــى إذا اصـــبحت فـــي غيـــر صـــاحبها ... باتـــت تنازعهـــا الـــذؤبان والـــرخُمُ
وصـــيّروا أمـــرهم شـــورى كـــأنّهم ... لا يعرفـــون ولاة الحـــق أيّهـــمُ؟
إن عُـــدّ أهـــل التقـــى كـــانوا أئمـــتهم ... أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل همُ
بيـــوتهم فـــي قـــريش يستضـــاء بهـــا ... فـــي النائبـــات، وعنـــد الحكـــم إن حكمـــوا
ثـــم ادّعاهـــا بنـــو العبـــاس ملكهـــم ... ولا لهـــم قَـــدَمٌ فيهـــا ولا قِـــدمُ
لا يـــذكرون، إذا مـــا معشـــر ذكـــروا ... ولا يحكـــم فـــي أمـــر لهـــم حكـــمُ
ولا رآهـــم أبـــو بكـــر وصـــاحبه ... أهـــلاً لمـــا طلبـــوا منهـــا ومـــا زعمـــوا
فهـــل هـــم مـــدّعوها غيـــر واجبـــة؟ ... أم هـــل أئـــتمهم فـــي أخـــذها ظلمـــوا؟
أمّـــا علـــيٌّ: فقـــد أدنـــى قـــرابتكم ... عنـــد الولايـــة، إن لـــم تكفـــر الـــنعمُ
هـــل ينكـــر الحبـــر: عبـــدالله نعمتـــه ... أبـــوكم؟ أم عبيـــدالله؟ أم قـــثمُ؟
بـــئس الجـــزاء جـــزيتم فـــي بنـــي حســـن ... أبـــاهم العَلَـــمُ الهـــادي، وأمَّهـــمُ
لا بيعـــة ردَعـــتكم عـــن دمـــائِهم ... ولا يمـــينٌ، ولا قربـــى، ولا ذمـــمُ
هـــلاّ صـــفحتم عـــن الأســـرى بـــلا ســـبب ... كالصـــافحين ببـــدر عـــن أســـيركمُ

هلا كففتم عن «الديباج» سوطكم[٤٢٨] ... وعن بنات رسول الله سبذكمُ

ما نزّهت لرسول الله مهجته ... عن السياط، فألاّ نُزّه الحرمُ

ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت ... تلك الجرائر، إلاّ دون نيلكمُ

كم غدرة لكم في الدين واضحة ... وكم دم لرسول الله عندكمُ

ءأنتم آله فيما ترون وفي ... أظفاركم من بنيه الطاهرين دمُ؟

هيهات لا قرَّبت قربى ولا نسبٌ ... يوماً، إذا أقصت الأخلاق والشيمُ

كانت مودّة سلمان لهم رَحِما ... ولم يكن بين نوح وابنه رَحِمُ

يا جاهداً في مساويهم يكتّمها ... غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتمُ؟

ذاق الزبيري غبَّ الحنث، وانكشفت ... عن ابن فاطمة الأقوالُ والتهمُ

ليس الرشيد كموسى في القياس، ولا ... مأمونكم كالرضا، إن أنصف الحكمُ

بأؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته ... وأبصروا بعض يوم رشدهم وعموا

يا عصبةً شقيت من بعدما سعدت ... ومعشراً هلكوا من بعدما سلموا

لبئس ما لقيت منهم وإن بليت ... بجانب الطف تلك الأعظم الرممُ

لا عن أبي مسلم في نصحه صفحوا ... ولا الهبيرى نجّا الحلف والقسمُ

ولا الأمان لأهل الموصل اعتمدوا ... فيه الوفاء، ولا عن عمِّهم حلموا

أبلغ لديك بني العباس مألكةً ... لا تدعوا ملكها، مُلاّكها العجمُ

أيُّ المفاخر أضحت في منابركم ... وغيركم آمرٌ فيها ومحتكمُ

وهل يزيدكم في مفخر علمٌ ... وبالخلاف عليكم يخفق العلمُ

يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم ... لمعشر بيعهم يوم الهياج دمُ

خلّوا الفخار لعلاّمين إن سئلوا ... يوم السؤال، وعمّالين إن علموا

لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ... ولا يضيعون حق الله إن حكموا

تنشى التلاوة في أبياتهم أبداً ... وفي بيوتكم الأوتار والنغمُ

منكم «عليّة»[٤٢٩] أم منهم؟ وكان لكم ... شيخ المغنّين إبراهيم[٤٣٠] أم لهُمُ؟

أم مـــن تشـــاد لـــه الألحـــان ســـائرة ... علـــيهم ذو المعـــالي، أم علـــيكمُ؟
إذا تـــلا ســـورةً غنـــى إمـــامكم: ... قـــف بالـــديار التـــي لـــم يعفهـــا القـــدمُ
مـــا فـــي ديـــارهم للخمـــر معتصـــرٌ ... ولا بيـــوتهم للســـوء معتصـــمُ
ولا تبيـــت لهـــم خنثـــى تنـــادمهم ... ولا يـــرى لهـــم قـــردٌ لـــه حشـــمُ
الـــركن والبيـــت والاســـتار منـــزلهم ... وزمـــزم، والصـــفا والخيـــف والحـــرمُ
ولـــيس مـــن قســـم فـــي الـــذكر نعرفـــه ... الاّ وهـــم غيـــر شـــك ذلـــك القســـمُ
يكـــاد يمســـكه عرفـــان راحتـــه ... ركـــن الحطـــيم إذا مـــا جـــاء يســـتلمُ
صـــلّى الإلـــه علـــيهم كلمـــا ســـجعت ... ورقُ، فهـــم للـــورى كهـــف ومعتصـــمُ

عن: ديوان الأمير أبي فراس الحمداني

هوامش البحث

(١) الإمام الهادي من المهد إلى اللحد ص٤٧ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
(٢) تجارب الأُمم، مسكويه: ٢/٢٩٧..
(٣) انظر: الإرشاد ص٢٧٤ ـ ٢٧٦ ولعلّه روى ذلك عن الشيخ الكليني: انظر الكافي ج١ ص٥٠١.
(٤) المصدر نفسه. يجدر ذكره انّ المتوكّل أسند إلى بريحة العبّاسي حكومة الكوفة فيما بعد.
(٥) انظر كتاب سامراء موسوعة العتبات المقدّسة للخليلي. وقد أشرف دليل بن يعقوب على مشروع شق النهر في شمال سامراء ليحيط بالقصر الجعفري ورصدت له ميزانية مفتوحة وقد أخفق المشروع فنيا بعد أن استشرف أموالاً طائلة.
(٦) باقر شريف القرشي، حياة الإمام الهادي دراسة وتحليل ص٣٠٢.
(٧) ما عدا أرض الحرم الطاهر قيدت أشبه ما يكون بالجزيرة الصغيرة وتشير المدونات إلى أنّ الثيران كانت تحيد عن القبر يميناً وشمالاً ولم تجد السياط على اجبارها في حرث القبر الشريف. انظر: أمالي الشيخ الطوسي.
(٨) بحار الأنوار ج٥٠ ص١٩٤.
(٩) أحداث التاريخ الإسلامي ج١ م٢ ص١٣٦٣، جاء في وفيات الأعيان انّ المتوكّل أمر بسلّ لسانه من قفاه وداس الجلاوزة في بطنه ثمّ حمل إلى داره فمات بعد سويعات ودفن في بغداد.. عرف بالسكّيت لطول سكوته أصله من الأهواز (في خوزستان) هاجر إلى بغداد وعاش فيها التقى الإمام الرضا A وسأله عن الحجّة بعد غياب النبيّ o فقال الإمام A: العقل؛ تعرف به الصادق على الله فتصدّقه والكاذب على الله فتكذّبه.
فقال ابن السكيت مبهوراً: هذا والله الجواب.
استشهد وله من العمر ثمانية وخمسون عاماً.
(١٠) المسعودي، مروج الذهب ج٤، ص١١.
(١١) نزهة الجليس ج٢ ص١٣٧؛ موسوعة العتبات المقدّسة ج١٢ ص٢٧٠.
(١٢) اثبات الوصيّة ص٢٤٠.
(١٣) بحار الأنوار ج١٢ ص١٣٤.
(١٤) انظر المزيد من التفاصيل في رواية «تراتيل في زمن الذئاب» ص٣٩٠ ـ ٤٠٠ وكذلك انظر: فارس الزمن الغائب ص٣٣ ـ ٤٧.
(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) انظر قصّة الحضارة الجزء الثالث المجلد الرابع ص ١٦٢ -١٦٤ حوادث سنة ٨٦٧م في روما.
(١٧). اثبات الوصية للمسعودي / ٢٣٣: «وكتب بريحة العباسي صاحب الصلاة بالحرمين
إلى المتوكل: «إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمد منها، فانه قد دعا إلى نفسه واتبعه خلق كثير»!
«وكتب إليه بهذا المعنى زوجة المتوكل» ـ الكافي: ٥٠١/١، الارشاد: ٣٣٣.
(١٨). الطبري: ٧ / ٣٤٨.
(١٩). رسالة المتوكل العباسي إلى الامام الهادي سنة ٢٣٤هـ:
«أمّا بعد: فان أمير المؤمنين عارف بقدرك، راع لقرابتك، موجب لحقك، مقدّر من الأمور فيك وفي أهل بيتك ما يصلح الله به حالك، ويثبت به عزّك وعزّهم، ويدخل الأمن عليك وعليهم يبتغي رضى ربّه، وأداء ما افترض عليه فيك وفيهم.
وقد رأى أمير المؤمنين صرف عبدالله بن محمد عمّا كان يتولاّه من الحرب والصلاة بمدينة الرسول o إذا كان على ما ذكرت من جهالته بحقّك، واستخفافه بقدرك، وعندما قرفك به نسبك إليه من الأمر الذي قد علم أمير المؤمنين براءتك منه، وصدق نيّتك في برّك وقولك، وانّك لم تؤهل نفسك لما قرفت بطلبه، وقد ولّى أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمد بن الفضل، وأمره بإكرامك وتبجيلك، والانتهاء إلى أمرك، ورأيك والتقرّب إلى الله والى أمير المؤمنين بذلك، وأمير المؤمنين مشتاق إليك يحبّ إحداث العهد بك، والنظر إليك، فان نشطت لزيارته والمقام قبله ما أحببت شخصت ومن اخترت من أهل بيتك ومواليك وحشمك على مهلة وطمأنينة ترحل إذا شئت وتنزل إذا شئت، وتسير كيف شئت، وان أحببت أن يكون يحيى بن هرثمة مولى أمير المؤمنين، ومن معه من الجند، يرحلون برحلك، ويسيرون بسيرك، فالأمر في ذلك إليك، وقد تقدمنا إليه بطاعتك فاستخر الله حتّى توافي أمير المؤمنين، فما أحد من اخوانه، وولده وأهل بيته وخاصته ألطف منه منزلة، ولا أحمد لهم أثرة، ولا هو لهم أنظر، ولا عليهم أشفق وبهم أبرّ، وإليهم أسكن منه إليك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».
وكتب هذه الرسالة إبراهيم بن العباس في شهر جمادي الآخرة سنة ٢٣٤هـ. الارشاد / ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٢٠). اثبات الوصية / ٢٢٨.
(٢١). الامام علي الهادي من المهد إلى اللحد / ٤٤٠ بالاستناد إلى كشف الغمة.
(٢٢). وفي هذه السنة (٢٢٨هـ) غلا السعر بطريق مكة فبلغ رطل الخبز بدرهم وراوية الماء بأربعين درهماً، واصاب الناس في الموقف (عرفات) حرّ شديد ثم مطر شديد وبَرَد، فأضرّ بهم شدة الحرّ ثم شدّة البرد في ساعة واحدة ومطروا بمنى في يوم النحر مطراً شديداً لم يروا مثله، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة، قتلت عدّة من الحجاج». الطبري: ٧ / ٣١٨.
(٢٣). إثبات الوصية / ٢٣٤.
(٢٤). مروج الذهب، إثبات الوصية / ٢٣٤.
(٢٥). بات علي بن أبي طالبA على فراش النبي عندما حيكت ضد الرسول o أخطر محاولة لاغتياله.
(٢٦). إثبات الوصية / ٢٣٦.
{٣٠٠}
(٢٧). ولد الامام وكان محمد في الثالثة من عمره ويكبر أخاه الحسن بسنة.
(٢٨). تيار فكري، جمد على ظاهر آيات القرآن الكريم فرسم صورة لله تبارك وتعالى تشبه الانسان، وقد شجّع المتوكل هذه الافكار لضرب المعتزلة.
(٢٩). تاريخ اليعقوبي: ٣ / ٢٠٩.
(٣٠). إثبات الوصية / ٢٣٧.
(٣١). حياة الامام الهادي / ١٣٧.
(٣٢). المصدر السابق / ١٣٦.
(٣٣). تذكرة الخواص / ٣٥٩.
(٣٤). المصدر السابق.
(٣٥). وروي عن يحيى بن هرثمة قال: «رأيت من دلائل أبي الحسنA الأعاجيب في طريقنا; منها: انا نزلنا منزلاً لا ماء فيه فاشفينا ودوابنا وجمالنا من العطش على التلف، وكان معنا جماعة وقوم قد تبعونا من أهل المدينة، فقال أبو الحسنA: كأنّي أعرف على أميال موضع ماء.
فقلنا له: ان نشطت وتفضلت عدلت بنا إليه وكنّا معك.

فعدل بنا عن الطريق فسرنا نحو ستة أميال فأشرفنا على واد كأنّه زهر الرياض فيه عيون وأشجار وزروع وليس فيها زارع ولا فلاّح ولا أحد من الناس، فنزلنا وشربنا وسقينا دوابنا وأقمنا إلى بعد العصر ثم تزوّدنا وارتوينا وما معنا من القِرَب ورحنا راحلين. فلم نبعد أن عطشت وكان لي مع بعض غلماني كوز فضة يشدّه في منطقته وقد استسقيته فلجلج لسانه بالكلام.. ونظرت فاذا هو قد أنسي الكوز في المنزل الذي كنّا فيه فرجعت أضرب بالسوط على فرس لي جواد سريع وأغذ السير حتى أشرفت على الوادي فرأيته جدباً يابساً قاحلاً مَحْلاً لا ماء فيه ولا زرع ولا خضرة ورأيت موضع رحالنا وروث دوابنا وبعر الجمال ومناخاتهم والكوز موضوع في موضعه الذي تركه الغلام، فأخذته وانصرفت، ولم أعرفه شيئاً من الخبر.

فلما قربت من القطر والعسكر وجدتهA واقفاً ينتظر فتبسّم (صلّى الله عليه) ولم يقل لي شيئاً ولا قلت له سوى ما سأل من وجود الكوز فأعلمته اني وجدته. اثبات الوصية / ٢٣٤.

(٣٦). الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣١٣.

(٣٧). نور الابصار / ١٦٤ ـ بحار الانوار: ١٣ / ١٢٧.

(٣٨). تاريخ الطبري: ٧ / ٣٩٩.

(٣٩). الارشاد / ٣٧٦.

(٤٠). وهذه القناة مكنت من تموين المسجد الجامع بالمياه الدائمة فجعل فيه على قول اليعقوبي «فوارة ماء، لا ينقطع ماؤها». موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٠٩.

(٤١). تاريخ بغداد: ١٢ / ٥٧.

(٤٢). «ولكن المتوكل، وهو الذي كان له ولع خاص بمثل هذه المشاريع العامة، لم يقنع بهذا فبذل قصارى جهده لتحقيق مشاريع الري على الجانب الذي تقع فيه عاصمته.. فكان أول مشروع قام به بعد توليه الخلافة المشروع المعروف بـ «قناة المتوكل» أو «قناة سامراء» الذي يؤمن ايصال المياه إلى عاصمته سامراء {٣٠١}

بطريقة الري الجوفي المعروف بري «الكهاريز». ويشتمل هذا المشروع على كهريزين ضخمين يستعمل أحدهما في الشتاء والآخر في الصيف، وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمالي الدور فيسيران حوالي أربعين كيلو متراً حتى يصلا إلى قلب العاصمة. وقد مد المتوكل هذين الكهريزين إلى الجنوب ليخترقا المطيرة ثم يسيران إلى ما يجاور القادسية. وبفضل هذا المشروع تمكن المتوكل من انشاء مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي سامراء باتجاه منطقة الحير، ومن أهم هذه المشاريع انشاء حوض للسباحة خلف «دار الخليفة» وهو الحوض المعروف اليوم باسم «بركة السباع»، ثم البركة الواسعة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من هذه البركة، وأخيراً حلبة السباق وتلّها الذي يشرف عليها المعروف باسم «تل العليق» وهي الحلبة التي أنشأها المتوكل في جهة الحير.. وهذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع الذي أنشأه في أول الحير بالمياه الدائمة فجعل فيه على قول اليعقوبي «فوارة ماء لا ينقطع ماؤها». موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٠٩.

(٤٣). الطبري: ٧ / ٣٩٨ والشاعر هو علي بن الجهم.

(٤٤). المصدر السابق / ٣٩٧.

(٤٥). وقد سجل الطبري صورة مفصلة عن وحشية السلطات في قمع الثورات:

«ذكر أن السبب في ذلك كان أن المتوكل كان اعتلّ في هذه السنة وكان مع ابن البعيث رجل يخدمه يسمى خليفة فأخبره بأن المتوكل قد توفى وأعد له دواب فهرب هو وخليفة الذي أخبره الخبر إلى موضعه من آذربيجان وموضعه منها مرند وقيل كانت له قلعتان تدعى إحداهما شاهى والأخرى يكدُر ويكدر خارج البحيرة وشاهي في وسط البحيرة والبحيرة قدر خمسين فرسخاً من حد أرمية إلى رستاق داخرّقان بلاد محمد بن الرواد وشاهي قلعة ابن البعيث حصينة يحيط بها ماء قائم ثم يركب الناس من أطراف المراغة إلى أرمية وهي بحيرة لاسمك فيها ولا خير . وذكر أن ابن البعيث كان في حبس إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب فتكلم فيه بغا الشرابي وأخذ منه الكفلاء نحواً من ثلاثين كفيلاً منهم محمد بن خالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني فكان يتردّد بسامرّا فهرب إلى مرنْد فجمع بمرند الطعام وفيها عيون ماء فرم ما كان وَهَي من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار في نحو من ألفين ومائتي رجل.. وكان الوالي بآذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر في طلبه فولى المتوكل حمدويه ابن علي بن الفضل السعدي آذربيجان ووجهه من سامرّا على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فزحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند وهي مدينة استدارتها فرسخان وفي داخلها بساتين كثيرة ومن خارجها كما تدور شجر الا في موضع أبوابها وقد جمع فيها ابن البعيث آلة الحصار وفيها عيون ماء فلما طالت مدته وجه المتوكل زيرَك التركي في مائتي ألف فارس من

الأتراك فلم يصنع شيئاً فوجه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكرية فلم يُغنِ شيئا فوجه إليه بغا الشرابيّ في أربعة آلاف ما بين تركي وشاكري ومغربي وكان حمدويه بن علي وعمر بن سيسل وزيرك زحفوا إلى مدينة مرند وقطعوا ما حولها من الشجر فقطعوا نحواً من مائة ألف شجرة وغير ذلك من شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون فيه ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وكان من معه من علوج رساتيقه يرمون بالمقاليع فكان الرجل لا يقدر على الدنو من سور المدينة فقتل من أولياء السلطان في حربه في ثمانية

{٣٠٢}

أشهر نحو مئة رجل وجرح نحو من أربعمائة وقتل وجرح من أصحابه مثل ذلك وكان حمدويه وعمرو وزيرك يغادونه القتال ويراوحونه وكان السور من قبل المدينة ذليلاً ومن القرار نحواً من مئة عشرين ذراعاً وكانت الجماعة من أصحاب ابن البعيث يتدلون بالحبال معهم الرماح فيقاتلون فإذا حمل عليهم من أصحاب السلطان لجؤا إلى الحائط وكانوا ربما فتحوا بابا يقال له باب الماء فيخرج منه العدة يقاتلون ثم يرجعون ولما قرب بغا الشرابي من مرند بعث فيما ذكر عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلاّ قاتلهم فان ظفر بهم لم يستبق منه أحداً ومن نزل فله الأمان وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة من قوم عيسى بن الشيخ فنزل منهم قوم كثير بالحبال ونزل ختن ابن البعيث على أخته أبو الأغر . وذكر عن أبي الأغر هذا أنه قال ثم فتحوا باب المدينة فدخل أصحاب حمدويه وزيرك وخرج ابن البعيث من منزله هاربا يريد أن يخرج من وجه آخر فلحقه قوم من الجند معهم منصور قهرمانه وهو راكب دابة يريد أن يصير إلى نهر عليه رحى ليستخفى في الرحى وفي عنقه السيف فأخذه أسيراً وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة ثم نودي بعدما انتهب الناس برئت الذمة ممن انتهب وأخذوا له أختين وثلاث بنات وخالته والبواقي سراري فحصل في يد السلطان من حرمه ثلاث عشرة امرأة وأخذ من وجوه أصحابه المذكورين نحو من مائتي رجل وهرب الباقون فوافاهم بغا الشرابي من غد فنادى مناديه بالمنع من النهب فكتب بغا الشرابي بالفتح لنفسه. الطبري: ٧ / ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤٦). تاريخ العباسين لابن وادران / ٦٢٣.

(٤٧). كان ايتاخ طباخاً في قصر الخليفة ـ المصدر السابق / ٥٨٢.

(٤٨). المصدر السابق.

(٤٩). «ثم دس المتوكل إلى ايتاخ من يشير عليه بالحجج فاستأذن المتوكل في الحج ولم يعلم انه دسيسة» المصدر السابق.

(٥٠). سير اعلام النبلاء: ٨ / ١٥٣.

(٥١). حياة الامام الهادي / ٥٣.

(٥٢). المصدر السابق / ٥١.

(٥٣). بحار الانوار: ٩٤ / ١٧٩.

(٥٤). الطبري: ٧ / ٣٤٧.

(٥٥). الكافي: ٧ / ٤٩٦.

(٥٦). عيون أخبار الرضا باب ٢٨ حديث ٩١.

(٥٧). بحار الانوار: ٥٠ / ١٢٥.

(٥٨). عرف عن علي بن الجهم حقده وعداوه الشديد للامام علي لأن قبيلته كانت قد طلبت الانتساب إلى قريش في زمن أبي بكر وعمر فرفضا ذلك ثم جاء عثمان فأدخلها في قريش، وعندما تصدّى الامام علي للخلافة، ألغى اجراء عثمان، فأعلنوا ارتدادهم عن الإسلام، وقد سأله المتوكل عن صحة ذلك فانكر وقال هذه دعوى الرافضة، وشتم القوم. تاريخ العباسيين / ٦٢٠.

(٥٩). الحمّاني الأفوه أبو الحسين علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد الشهيد.

حِمّان ـ بكسر المهملة وتشديد الميم ـ محلّة بالكوفة، والنسبة إلى حِمّان قبيلة من تميم، وهم بنو حِمّان بن عبدالعزيز بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. في الرعيل الأوّل من فقهاء العترة ومدرّسيهم في عاصمة التشيّع بالعراق في القرون الأولى ـ الكوفة ـ وفي السنام الأعلى من خطباء بني هاشم وشعرائهم المفْلقين، وقد سار بذكره وبشعره الركبان، وعرفه القريب والبعيد بحسن الصياغة وجودة السرد، أضف إلى ذلك علمه الغزير، ومجده الأثيل، وسؤدده الباهر، ونسبه العلويّ الميمون، وحسبه الوضّاح، إلى فضائل جمّة تسنّمت به إلى ذروة المجد.

أثنى عليه المسعودي في مروج الذهب في كلام يأتي له، وقال: كان عليّ بن محمد الحِمّاني مفتيهم بالكوفة، وشاعرهم ومدرّسهم ولسانهم، ولم يكن أحدٌ بالكوفة من آل عليّ بن أبي طالب يتقدّمه في ذلك الوقت.

وذكره النسّابة العمري في المجدي وأطراه بما ملخّصه: كان مشهوراً بالشعر، رثى يحيى بن بن عمر، وكان أشعر ولد أبيه يكنّى أبا الحسين. وقال في ترجمة الشريف الرضي: هو أشعر قريش إلى وقتنا، وحسبك أن يكون قريش في أوّلها الحارث بن هاشم والعبلي، وعمر بن أبي ربيعة، وفي آخرها بالنسبة إلى زمانه محمد بن صالح الموسوي، وعليّ بن محمد الحِمّاني. المحاسن والاضداد للجاحظ / ٩٠.

(٦٠). بحار الانوار: ١٣ / ١٣١. اعيان الشيعة: ٤ / ٢٧٤.
(٦١). وتم تعيينه حاجبا بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ٢٣٤. الطبري: ٧ / ٣٥١.
(٦٢). حياة الامام الهادي / ٤٣.
(٦٣). الطبري: ٧ / ٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٦٤). الطبري: ٧ / ٣٥٣.
(٦٥). اخبار العباسيين / ٥٨٦.
(٦٦). الطبري: ٧ / ٣٥٣.
(٦٧). احداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين: ١ / ١٣١٨.
(٦٨). كان الجاحظ قد زُجّ في السجن بسبب علاقاته مع الوزير محمد بن عبدالملك الزيّات الذي توفي تحت التعذيب مطلع سنة ٢٣٢هـ.
(٦٩). قال الجاحظ: «ذُكرت للمتوكل لتعليم ولده فلما مثلت بين يديه استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم، وصوفني» تاريخ العباسيين / ٥٩٣.
(٧٠). وحدثني بعض شيوخنا إن ايتاخ كان موته بالعطش، وانه أُطعم فاستقى فمنع الماء حتى مات عطشاً. الطبري: ٧ / ٣٥٣.
(٧١). راجع الملحق رقم «١» النص الكامل لرسالة الامام علي الهادي في الجبر والتفويض.
(٧٢). موسوعة العتبات المقدسة. سامراء: ١٢ / ٣٠٦.
(٧٣). المصدر السابق: ١٢ / ٢٠٣ بالاستناد إلى ثمار القلوب للثعالبي أبو منصور.
(٧٤). المصدر السابق: ١٢ / ٣٠٦.
(٧٥). العقد الفريد: ٦ / ٤٣٠.
(٧٦). فوات الوفيات: ٢ / ٣٥٦.
(٧٧). «قطربل» في ضواحي بغداد مشهورة بمعاصر الكروم.
(٧٨). التحف والهديا / ٢٨ تحقيق سامي الدهان.
(٧٩). الزبير الذي لقب بالمعتز.
(٨٠). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٤٤٣.
(٨١). الطبري ٧ / ٣٦٣.
(٨٢). دائر المعارف للبستاني: ٧ / ٤٥.
(٨٣). بحار الانوار: ٥٠ / ١٤١.
(٨٤). الامالي: ١ / ٢٩٣.
(٨٥). الامام علي الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٤٤.
(٨٦). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٢.
(٨٧). المصدر السابق: ١ / ١٣٢٨.

ديك الجنّ: هو عبدالسلام بن رغبان بن حبيب الكلبي. اشتهر بلقب ديك الجنّ، لأنّ عينيه كانتا خضراوين. شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي، يذهب مذهب أبي تمّام والشّاميين في شعره. كان يتشيّع تشيّعاً حسناً، ومعظم مراثيه في آل البيت. كان يحبّ جارية نصرانية تدعى (ورداً) من أهل حمص، هواها وتمادى به الأمر حتى غلبت عليه وذهبت به، فلما اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها، فأجابته لعلمها برغبته فيها، فأسلمت على يده فتزوجها وفيها يقول:

أنظُرْ إلى شَمسِ القُصُور وبدرِها ... وإلى خُزَامَاهَا وبَهْجَةِ زَهرهَا

لَمْ تَبلُ عَينُك أبيضاً في أسود ... جَمَعَ الجَمالَ كوجهِها في شَعرِها

وَرْدِيَّةُ الوَجَنَاتِ يَخْتَبِرُ اسمَها ... مِنْ ريقها مَنْ لا يُحيطُ بِخُبْرِهَا

وتَمَايَلَـــت فَضَـــحِكْتُ مِـــن أَردَافِهـــا عجَبـــاً ولَكِنِّـــي بَكِيـــتُ لِخَصْـــرِهَا

تُسْـــقِيكَ كـــأسَ مُدامَـــة مِـــنْ كَفِّهـــا وَرديـــة ومُدامـــةً مِـــنْ ثَغْرِهَـــا

ثم دسّ حسّادها عليه إنها كانت تخونه وهو غائب، فقتلها، ثم علم الحقيقة فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام إلاّ ما يقيم رمقه، وقال في ندمه على قتلها:

يَـــا طلعـــةً طَلَـــعَ الحِمَـــامُ عَلَيهَـــا وجَنَـــى لهـــا ثَمَـــر الـــرَّدَى بيَـــدَيْها

رَوّيـــتُ مِـــنْ دَمِهـــا الثّـــرىَ ولطَالَمـــا رَوّى الهـــوى شَـــفَتَّي مِـــنْ شَـــفَتَيهَا

قَـــدْ بَـــاتَ سَـــيَفي فـــي مَجـــالِ وِشَـــاحِها ومَـــدَامِعِي تَجْـــري عَلَـــى خَـــدّيهَا

فَوَحـــقِّ نَعْلَيْهـــا وَمـــا وطِـــىءَ الحَصَـــى شَـــيٌ أَعـــزُّ عَلَـــيَّ مِـــنْ نَعْلَيْهـــا

مَـــا كـــانَ قَتْلِيهَـــا لإِنِّـــي لَـــم أَكُـــنْ أَبكِـــي إذا سَـــقَطَ الـــذُبَابُ عَلَيْهـــا

لَكِـــنْ ضَـــنَنْتُ عَلَـــى العيـــونِ بِحُسْـــنِها وأَنِفْـــتُ مِـــن نَظَـــرِ الحَسُـــودِ إلَيْهَـــا

له أقوال في الحكمة منها قوله:

يُرفُـــد النـــاسُ آمنـــينَ وريْـــبُ الـــدَّهرِ يَرعَـــاهُمُ بِمُقْلَـــهِ لِـــصّ

أصله من مدينة (سلمية)، قرب مدينة (حماه) ومولده ووفاته في مدينة (حمص). لم يفارق الشام، ولم ينتجع بشعره. توفي عن ٧٤ عاماً. الأعلام: ٤ / ١٢٨، وفيات الأعيان: ٣ / ١٨٤، الأغاني: ١٤ / ٥١ وما بعدها.

(٨٨). الطبري: ٧ / ٣٦٣.

(٨٩). المصدر السابق.

(٩٠). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٢.

(٩١). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٣.

(٩٢). زوجة المتوكل كانت في الاصل جارية يونانية «موسوعة العتبات المقدسة» سامراء: ١٢ / ٢٦١.

ثم ما لبثت ان استولت على قلب سيّدها واصبحت زوجته الوحيدة حيث طلق الخليفة زوجته العربية «ريطة» التي رفضت السفور والتشبه بالغلمان.

(٩٣). الهة الجمال والحب لدى اليونان، ولدت من زبد البحر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب / ٣٨٢، سلسلة عالم المعرفة / ١٧٣ الكويت.

(٩٤). تاريخ العباسيين لابن وادران / ٦٢٨.

(٩٥). نجحت أمه في اقناع زوجها فيما بعد ذلك بعد عشرات الدسائس حيث وقفت أسرة آل خاقان إلى جانب اطماعها وكونوا معاً اخطبوطاً رهيباً في الدولة.

(٩٦). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٢.

(٩٧). الطبري: ٧ / ٣٦٤.

(٩٨). الشاعر هو يعقوب بن يزيد التمار ـ الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٢٥ بالاستناد إلى «سامراء في القرن الثالث الهجري» / ١٧٢.

(٩٩). خطط المقريزي: ٤ / ١٥٣.

(١٠٠). الطبري: ٧ / ٣٦٥.

(١٠١). توفي زنام الزامر أواخر سنة ٢٣٥هـ كان من مطربي خلفاء بني العباس منذ عهد الرشيد اشتهر بعزفه على الناي / الاعلام: ٣ / ٨٣.

(١٠٢). انثى الحمار.

(١٠٣). مروج الذهب: ٤ / ٤٣.

(١٠٤). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢.

(١٠٥). ابن الاثير: ٧ / ٥٥.
(١٠٦). الطبري: ٧ / ٣٦٦.
(١٠٧). الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢.
(١٠٨). الطبري: ٧ / ٣٦٩.
(١٠٩). نادل الخليفة والمسؤول عن اعداد مائدة الشراب والسكر.
(١١٠). كرخ سامراء المعروف بكرخ فيروز.
(١١١). الطبري: ٧ / ٣٦٦، بحار الانوار: ٥٠ / ١٨٦.
(١١٢). الطبري: ٧ / ٣٦٦.
(١١٣). المصدر السابق: ٧ / ٣٦٥.
(١١٤). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٤٩ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
(١١٥). المصدر السابق / ٤٣ بالاستناد إلى تاريخ بغداد.
(١١٦). الطبري: ٧ / ٣٦٥.
(١١٧). المصدر السابق: ٧ / ٣٦٧.
(١١٨). راجع تفاصيل هروب زوجة المتوكل سنة ٢٥٥. الطبري: ٧ / ٥٢٩.
(١١٩). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٥٦ بالاستناد إلى مروج الذهب. يقول البحتري الشاعر: فوالله ما انتضي ذلك السيف، ولا خرج من غمده إلاّ في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف». مروج الذهب للمسعودي.
(١٢٠). «احلف بالله لو لم يقتل المتوكل لما عاش من كثرة جماعه». أحد عبيد القصر ـ مرآة الزمان: ٦ / ٦٩.
(١٢١). تفرع نهري من دجلة ١٢٠كم شمال بغداد.
(١٢٢). من قصور المتوكل وقد كلّف بناؤه ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار.
(١٢٣). سُمع الخليفة يشتم السيدة فاطمة الزهراء B. الأمالي للشيخ الطوسي.
ويقول الطبري: «وذكر أن المنتصر كان قد شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأعلمهم بمذاهبه وحكى عنه أموراً قبيحة كرهت ذكرها في الكتاب فأشاروا عليه بقتله». الطبري: ٧ / ٤١٥.
(١٢٤). قال البحتري: يصف ذلك:

غنينـــا علـــى قصـــر يســـير بفتيـــه ... قعـــود علـــى ارجائـــه وقيـــام
تظـــل البـــزاة البـــيض تخطـــف حولنـــا ... جـــآجيء طيـــر فـــي الســـماء ســـوام
فلـــم أر كالقـــاطول يحمـــل مـــاؤه ... تـــدفق بحـــر بالســـماحة طـــام
ولا جـــبلا كـــالزوّ يوقـــف تـــارة ... وينقـــاد إمّـــا قدتـــه بزمـــام

ديوان البحتري: ٣ / ٢٠٢.
(١٢٥). حياة الحسن العسكري دراسة وتحليل / ٢٣٦.
(١٢٦). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٤٧ بالاستناد إلى امالي الشيخ الطوسي.
(١٢٧). المصدر السابق / ٥١ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
(١٢٨). حياة الامام الحسن العسكري دراسة وتحليل / ٢٣٦.
(١٢٩). نسبت هذه الابيات إلى عالم العربية ابن السكّيت، مرآة الزمان: ٦ / ١٣٦، والى الشاعر البسّامي أيضاً، فوات الوفيات: ١ / ٢٠٣.
(١٣٠). اثبات الوصية للمسعودي / ٢٤.
(١٣١). بحار الانوار: ١٣ / ١٤٢.
(١٣٢). اثبات الوصية / ٢٤٠.
(١٣٣). المصدر السابق / ٢٤١.
(١٣٤). يقول أبو حماد الرازي: دخلت على علي بن محمدA بسر من رآى فسألته عن اشياء من الحلال والحرام فأجابني عنها، فلما ودّعته قال لي: يا حماد إذا أشكل عليك شيء من أمر دينك فسل عنه «عبدالعظيم الحسني» وأقرأه مني السلام». معجم رجال الحديث: ١٠ / ٥٢.
من ذريّة الامام الحسن السبطA، كان عالماً وفقيهاً، وبلغ من شدّة تحرّجه وتديّنه أنه عرض على الامام عقائده قائلاً:

«اني اقول ان الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء، خارج عن الحدّين: حدّ الابطال وحدّ التشبيه، وانه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مُجسّم الاجسام، ومصوّر الصور وخالق الأعراض والجواهر، ورب كل شيء ومالكه، وجاعله ومحدثه.

وان محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين فلا نبي بعده إلى يوم القيامة، وان شريعته خاتمة الشرائع، فلا شريعة بعدها إلى يوم القيامة.

وأقول: ان الامام والخليفة، وولي الأمر بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب».

فقال الامام علي الهاديA «يا أبا القاسم هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده فاثبت عليه، ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة»... ولقد لوحق هذا السيد الكريم فاضطر إلى الاختفاء عن الانظار فهرب إلى الري.. وهناك اخفى هويته إلى أن توفي ومرقده الآن جنوب العاصمة الايرانية طهران حيث يؤمّه مئات الآلاف من المؤمنين لزيارته سنوياً. وسائل الشيعة: ١ / ١٣.

(١٣٥). اثبات الوصية / ٢٤١.

(١٣٦). بحار الانوار: ١٣ / ١٤٢.

(١٣٧). تاريخ اليعقوبي: ٣ / ٢٢٢.

(١٣٨). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٣٨.

(١٣٩). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٤٥.

(١٤٠). الكافي: ٣ / ٤٤٢.

(١٤١). عالج: كثبان رملية تمتد من «الدهناء» وحتى «نجد» في شبه جزيرة العرب.

(١٤٢). الكافي: ٦ / ٥٣٢.

(١٤٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٤ بالاستناد إلى كتاب الخرايج للراوندي.

(١٤٤). بحار الانوار: ١٣ / ١٢٩.

(١٤٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٥.

(١٤٦). وفيات الأعيان: ١ / ٢٩: وقد علّق على الرسالة ابن خلّكان: «وهذا الكلام مع وجازته في غاية الابداع».

(١٤٧). أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥.

(١٤٨). ومن روائع شعره في مدح الامام الرضاA:

كفى بفعال امرىء عالم ... على أهله عادلاً شاهدا

أرى لهم طارفاً مونقاً ... ولا يشبه الطارف التالدا

يمنّ عليكم بأموالكم ... وتُعطون من مئة واحدا

أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥، أعيان الشيعة: ٦ / ١٦.

وله شعر ينضح حكمة ووعياً للحياة:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فَرُجت وكنت أظنّها لا تفرج

وفيات الأعيان: ١ / ٢٩.

(١٤٩). تاريخ العباسيين / ٥٩٢.

(١٥٠). وهذه قائمة ببعض القصور التي بناها المتوكل:

١ ـ الجعفري وكلفة بنائه ٢/٠٠٠/٠٠٠ دينار غير نفقات التدشين التي منحت كهدايا للمغنين ٢/٠٠٠/٠٠٠ درهم، معجم البلدان: ٢ / ١٤٣، تاريخ الطبري: ٩ / ٢١٢.

٢ ـ البرج ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار وقد صُمّم وفق الروايات التي وصفت قصر سليمان النبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٢٢٢، الديارات / ١٠٣.

٣ ـ المليح ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم، ديوان البحتري: ٢ / ٣٩٧، معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.

٤ ـ الشبنداز ١٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٣ / ٣١٩.

٥ ـ المليح ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٥ / ٧٠.

٦ ـ المختار ١/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٤ / ١٩٢.
٧ ـ بلكوارا ٢٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم، كما كلفت نفقات وليمة تدشينه ٨٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم وقد ضربت مثلاً في الاسراف، معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.
٨ ـ الحير ٤/٠٠٠/٠٠٠ درهم، معجم البلدان: ٢ / ٣٢٨.
٩ ـ اضافة إلى برك المياه والمسابح، وحلبة كبرى لسباق الخيل.
(١٥١). استقبله الشاعر ابو العتاهية بقوله:

لـو كنـت فـي الـرأي منسـوباً إلـى رشـد ... وكـان عزمـك عزمـاً فيـه توفيـق
لكـان فـي الفقـه شـغلُ لـو قنعـت بـه ... عـن أن تقـول كـلام الله مخلـوق
مـاذا عليـك وأصـل الـدين يجمعهـم ... مـا كـان فـي الفـرع لـولا الجهـل والمـوق

الطبري: ٧ / ٢٦٨، تاريخ العباسيين / ٥٩٢.
(١٥٢). تقول الاسطورة اليونانية: «ان الانسان إذا ما ذاق قطعة من لحم أخيه الانسان، فأنه يتحول حتماً إلى ذئب». الجمهورية لافلاطون ـ ترجمة فؤاد زكريا / ٥٦٦.
(١٥٣). الطبري: ٧ / ٣٧١.
(١٥٤). ضواحي بغداد وتقابل الشماسية في الرصافة في خارطة بغداد العباسية.
(١٥٥). الطبري: ٧ / ٣٧٢.
(١٥٦). اصدر المتوكل أوامر مشدّدة بهدم جميع الكنائس التي تم انشائها في عهد الإسلام، واتخذت اجراءات مذلّة للنصارى مما جعلهم يشاركون في القلاقل التي ثارت ضد الحكم العباسي. احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٤٣.
(١٥٧). الفهرست لابن النديم / ١٦٢.
(١٥٨). لقب بابن السكّيت لكثرة سكوته.
(١٥٩). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٢، الكافي: ١ / ٢٤.
(١٦٠). الأمالي: ٢ / ١٩٣.
(١٦١). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٣٩ بالاستناد إلى بحار الانوار الجزء الرابع.
(١٦٢). يصف المتوكل الامام الهادي بالأسود لسمرته / الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٦٣ بالاستناد إلى ثاقب المناقب / مخطوط.
(١٦٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٤ ـ راجع الملحق رقم (٢).
(١٦٤). غافر: الآيتان: ٨٣ ـ ٨٤.
(١٦٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٠.
(١٦٦). اشتهر عن القاضي ابن اكثم اللواط بل وتجويزه ذلك مستدلاً بالآية الواردة في سؤاله.
(١٦٧). مناقب ابن شهراشوب: ٤ / ٤٠٦، تحف العقول / ٤٨١.
(١٦٨). تاريخ العباسيين / ٦١٩ ـ ٦٢٠.
(١٦٩). الطبري: ٧ / ٣٧٢.
(١٧٠). «وكانت الحكومة إذا إرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر إسم علي بل يُجعل سبب العقوبة انه شتم أبا بكر وعمر. الامام الصادق والمذاهب الاربعة: ١ / ٢٢٧.
(١٧١). الطبري: ٧ / ٣٧٥.
(١٧٢). الطبري: ٧ / ٣٧٤.
(١٧٣). المصدر السابق: ٧ / ٣٧٦.
(١٧٤). المصدر نفسه.
(١٧٥). المصدر نفسه: ٧ / ٣٧٨.
(١٧٦). بحار الانوار: ٥٠ / ١٩٤.
(١٧٧). عيون الاخبار: ٢ / باب ٦٦ ح٣٢.
(١٧٨). بحار الانوار: ٥٠ / ١٩٤.
(١٧٩). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٦٥.
(١٨٠). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٥٧.

(١٨١). تاريخ العباسيين / ٥٩١.
(١٨٢). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٨١.
(١٨٣). وفيات الاعيان: ٦ / ١٤٧.
(١٨٤). كانت سامراء تدعى أيضاً بـ «العسكر» لأنها انشئت في الأصل لتكون قاعدة للجيش التركي.
(١٨٥). بحار الانوار: ١٣ / ١٣٣.
(١٨٦). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٦.
(١٨٧). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٥١.
(١٨٨). الحائر: تعبير عن كربلاء وقد عرفت بهذا الاسم بعد اقدام المتوكل على اغراق المنطقة بالمياه فلم تغمر المياه البقعة الطاهرة حيث هوى الحسين شهيداً.
(١٨٩). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٥٤.
(١٩٠). المصدر السابق / ٢٥٠.
(١٩١). الكافي: ٤ / ٥١٧.
(١٩٢). المصدر السابق: ٦ / ٥٣٢.
(١٩٣). «فوجّه المتوكل رجلاً من الشيعة يقال له نصر بن الازهر ليعرف صحة من في أيدي الروم من أسرى المسلمين، وذلك في شعبان من هذه السنة». الطبري: ٧ / ٣٧٦.
(١٩٤). وكانت «تيودورا» امبراطورة الروم قد ارتكبت بحق الأسرى المسلمين مذبحة كبرى راح ضحيتها ١٢/٠٠٠ مسلم. الطبري: ٧ / ٣٧٦.
(١٩٥). معجم البلدان: ٣ / ٧٥.
(١٩٦). ديوان البحتري: ٢ / ٣٩٧.
(١٩٧). مشارق أنوار اليقين للحافظ رجب البرسي / ٩٩.
(١٩٨). سميت «قبيحة» لجمالها الفائق.. اما اسمها الحقيقي فمجهول في التاريخ ـ سامراء في المراجع الغربية / موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٦٠.
(١٩٩). معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.
(٢٠٠). الطبري: ٧ / ٢٥٨.
(٢٠١). تاريخ العباسيين لابن وادران / ٥٩٥، ابن شهراشوب: ٧ / ٩١، موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٥١.
(٢٠٢). وفيات الاعيان: ٦ / ٣٩٥، تاريخ بغداد: ١٤ / ٢٧٣.
(٢٠٣). حياة لامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٢٦ بالاستناد إلى رجال الطوسي.
(٢٠٤). الطبري: ٧ / ٣٨٠.
(٢٠٥). المصدر السابق: ٧ / ٣٨١.
(٢٠٦). المصدر نفسه.
(٢٠٧). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٦٢.
(٢٠٨). الكوميديا الارضية / ٧٧، نجيب محمود ـ دار الشروق.
(٢٠٩). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٣١١.
(٢١٠). أم المتوكل وهي جارية تركية.
(٢١١). مآثر الكبراء: ٣ / ٢٢٧.
(٢١٢). تحف العقول / ٤٨٢.
(٢١٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٥ بالاستناد إلى معاني الاخبار.
(٢١٤). المصدر السابق / ١٥٣ بالاستناد إلى أمالي المفيد.
(٢١٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٣.

«وفد جماعة من أعلام الشيعة على الامام الهاديA وهم أبو عمر و عثمان بن سعيد، وأحمد بن اسحاق الأشعري، وعلي بن جعفر الحمداني، فشكا إليه أحمد بن اسحاق ديناً عليه، فالتفتA إلى وكيله عمرو، وقال له: ادفع له ثلاثين ألف دينار، والى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار، كما أعطى وكيله مثل هذا المبلغ، وعلّق ابن شهراشوب على هذه المكرمة العلوية بقوله: «فهذه معجزة لا يقدر عليها إلاّ الملوك، وما سمعنا بمثل هذا العطاء» لقد وفّرA لهؤلاء الاعلام عيشاً رغيداً ينعمون به، ودفع عنهم

ضائقة الفقر، ومن الطبيعي ان خير العطاء ما أبقى نعمة. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٣ بالاستناد إلى المناقب.
(٢١٦). آل عمران: الآية ٢٢.
(٢١٧). الزمر: الآية ٨.
(٢١٨). الامام الهادي دراسة وتحليل / ٥١ بالاستناد إلى الاحتجاج للطبري.
(٢١٩). كُسْب الشاة: البعر الملتصق بصوف الشاة.
(٢٢٠). الكافي: ١ / ٤٩٩.
(٢٢١). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٦٤.
(٢٢٢). نساء الخلفاء لابن الساعي / ٩٤.
(٢٢٣). المصدر السابق.
(٢٢٤). عشرة آلاف درهم.
(٢٢٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٢ بالاستناد إلى اصول الكافي.
(٢٢٦). سيرة الائمة الاثني عشر: ٢ / ٥٥ هاشم معروف الحسيني ـ بالاستناد إلى رواية المفيد في الارشاد.
(٢٢٧). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٣٧ بالاستناد إلى الدر النظيم.
(٢٢٨). المصدر السابق.
(٢٢٩). المصدر نفسه.
(٢٣٠). سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٤٥٥.
(٢٣١). اثبات الوصية / ٢٢٨.
(٢٣٢). الطبري: ٧ / ٣٨٧.
(٢٣٣). يساوي الميل العربي: ٢ كم تقريباً.
(٢٣٤). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٨٨.
(٢٣٥). معجم البلدان: ٢ / ٨٦.
(٢٣٦). الطبري: ٧ / ٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٢٣٧). المصدر السابق: ٧ / ٣٩٢.
(٢٣٨). باع الوزير الخاقاني ولاية الكوفة في يوم واحد على ١٩ والياً أخذ كل واحد منهم رشوة فهجاه أحد الشعراء المعاصرين له بقوله:

وزيـــــر لا يمـــــلّ مـــــن الرقاعـــــة ... يـــــولي ثـــــم يعـــــزل بعـــــد ســـــاعة

إذا أهـــــل الرشـــــا هـــــادوا إليـــــه ... فـــــأحظى القـــــوم أوفـــــرهم بضـــــاعة

حياة الامام دراسة وتحليل / ٢٨٧، عن الفخري / ١٩٨.
(٢٣٩). الطبري: ٧ / ٣٨٥.
(٢٤٠). المصدر السابق.
(٢٤١). كان للمتوكل ٤/٠٠٠ جارية وقد قاربهن جميعاً. أخبار الدول / ١١٦، تاريخ الخلفاء / ٣٤٩.
(٢٤٢). وقعت الحوادث في أواخر سنة ٢٤٥هـ شباط سنة ٨٦٠م.
(٢٤٣). الجمهورية لافلاطون / ترجمة فؤاد زكريا / ٤٩٧.
(٢٤٤). كان عمر بن فرج مسؤولاً عن صرف الصكوك التي تصدر عن البلاط كمرتبات لموظفي الدولة، ويبدو أن الحادثة وقعت سنة ٢٣١ بعد استياء الواثق من أخيه جعفر المتوكل.
(٢٤٥). الطبري: ٧ / ٣٨٦.
(٢٤٦). المصدر السابق.
(٢٤٧). تاريخ الخلفاء العباسيين.
(٢٤٨). المصدر السابق.
(٢٤٩). الطبري ٧ / ٣٨٦.
(٢٥٠). يصادف محرّم الحرام من سنة ٢٤٦ هـ شهر نيسان سنة ٨٦٠ م.
(٢٥١). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٥١.
(٢٥٢). المصدر السابق.

(٢٥٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢ بالاستناد إلى شرح «شافية» أبي فراس الحمداني: ١٤٤/٢.
(٢٥٤). الطبري: ٧ / ٣٨٨.
(٢٥٥). اثبات الوصية / ٢٤٠.
(٢٥٦). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٧٩.
(٢٥٧). «وفي هذه السنة (٢٤٥هـ) أمر المتوكل ببناء الماخورة». ابن الاثير: ٧ / ٨٧.
(٢٥٨). معجم البلدان: ٢ / ١٤٣.
(٢٥٩). ديوان البحتري: ١ / ٤٠.
(٢٦٠). الطبري: ٩ / ٢١٢.
(٢٦١). «وهو المنتصر أول خليفة من بني العباس عرف قبره» الطبري: ٧ / ٤١٥.
(٢٦٢). سورة الفرقان: الآية ٢٨.
(٢٦٣). تاريخ العباسيين / ٥٩٢.
(٢٦٤). تزوج القائد بغا من خالة المتوكل. الطبري: ٧ / ٣٩٢.
(٢٦٥). الطبري: ٧ / ٣٨٨.
(٢٦٦). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٤٩.
(٢٦٧). المصدر السابق / ٥٠.
(٢٦٨). اصول الكافي: ١ / ٩٧.
(٢٦٩). سورة الاعراف: الآية ٤٢.
(٢٧٠). التوحيد / ١٠٤.
(٢٧١). من تلامذة الامام الصادق، وكان يقول بالتجسيم قبل تتلمذه على يد الامام.
(٢٧٢). التوحيد / ٩٧.
(٢٧٣). كشف الغمة: ٣ / ١٧٦.
(٢٧٤). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٠٣ بالاستناد إلى الاحتجاج للطبري.
(٢٧٥). اثبات الوصية / ٢٤٠.
(٢٧٦). المصدر السابق.
(٢٧٧). كان ابراهيم بن المهدي مغنياً، وكان المتوكل مؤنثاً، وكان المعتز مخنثاً، عن رسالة الخوارزمي إلى أهل نيسابور ـ حياة الامام الرضا: ٢ / ٢١٣.
(٢٧٨). اعتقل دعبل الخزاعي في مدينة البصرة وتعرض للتعذيب الوحشي بسبب بعض قصائده الثورية، ثم أخلي سبيله ففر إلى الاهواز ومنها إلى «سوسة» حيث يوجد مرقد النبي دانيالA وهناك اغتيل بعد صلاة العشاء بعكاز له زجّ مسموم وتوفي في الصباح، الاغاني: ١٨ / ٦٠، وفيات الاعيان: ١ / ١٨٠، تاريخ بغداد: ٨ / ٣٨٢، تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ: ٢ / ٢٨٤.
(٢٧٩). «لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أالله أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك»، دعبل الخزاعي / الديوان.
(٢٨٠). الطبري: ٧ / ٤٠٠.
(٢٨١). مقاتل الطالبيين / ٣٩٦.
(٢٨٢). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٥٠ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
(٢٨٣). الطبري: ٧ / ٣٤٩.
(٢٨٤). المصدر السابق والأجاجير: ما شوي من الطين.
(٢٨٥). المصدر السابق.
(٢٨٦). اثبات الوصية / ٢٤٠.
(٢٨٧). المصدر السابق.
(٢٨٨). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٦٠.
(٢٨٩). المصدر السابق: ١٢ / ٢٦١.
(٢٩٠). الطبري: ٧ / ٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٢٩١). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٦٤.
(٢٩٢). الأغاني: ٢٢ / ٢٠٠.
(٢٩٣). سورة الفرقان: الآيات ٦١ ـ ٦٤.

(٢٩٤). مروج الذهب: ٤ / ١١.
(٢٩٥). نزهة الجليس: ٢ / ١٣٧، تذكرة الخواص / ٣٦١، موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٧٠.
(٢٩٦). الطبري: ٧ / ٣٩٠.
(٢٩٧). المصدر السابق: ٧ / ٣٩٦.
(٢٩٨). المصدر نفسه.
(٢٩٩). المصدر نفسه: ٧ / ٣٩٠.
(٣٠٠). المصدر نفسه: ٧ / ٣٩١.
(٣٠١). «ركب يوم الفطر وقد ضرب له المصافّ أربعة أميال وترجّل له الناس». الطبري: ٧ / ٣٩٠. والميل العربي يساوي ٢ كم تقريباً.
(٣٠٢). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٦.
(٣٠٣). إثبات الوصية / ٢٤٠.
(٣٠٤). المصدر السابق.
(٣٠٥). البحار: ١٢ / ١٣٤.
(٣٠٦). الطبري: ٧ / ٣٩١.
(٣٠٧). المصدر السابق / ٣٩٢.
(٣٠٨). غلام المتوكل (عيسى بن ابراهيم) النصراني، وقد تمكّن من الفرار في تلك الليلة من القصر بعد أن شعر بوجود خطة لاغتيال الخليفة.
(٣٠٩). «وفي هذه السنة ٢٤٥هـ أمر المتوكل ببناء الماخورة» ابن الاثير: ٧ / ٨٧.
(٣١٠). «أبو أحمد شقيق المؤيد».
(٣١١). وهو نفس السيف الذي اشتراه الخليفة وكلّفه مبالغ طائلة وسلّمه إلى «باغر التركي» لحراسته شخصياً.
(٣١٢). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٧٠ بالاستناد إلى ثاقب المناقب.
(٣١٣). المصدر السابق.
(٣١٤). الطبري: ٧ / ٤٠٤.
(٣١٥). حياة الإمام الهادي دراسة وتحليل.
(٣١٦). سورة الحج / ٦٠.
(٣١٧). سورة غافر / ٤٠.
(٣١٨). اسمه عبدالله بن رابية الطوري / الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٥٠ بالاستناد إلى أمالي الطوسي.
(٣١٩). رواية محمد بن الحسين الاشناني، مقاتل الطالبين / ٣٩٦.
(٣٢٠). خان في بغداد. الطبري: ٧ / ٣٧٥.
(٣٢١). تم اعدام عيسى بن جعفر صاحب الخانات في بغداد بأوامر شخصية من المتوكل ورمي بجسده في دجلة. الطبري: ٧ / ٣٧٥.
(٣٢٢). قام المنتصر فور تسنّمه الخلافة بعدّة اجراءات اصلاحية في طليعتها التخفيف من محنة العلويين إذا قام بما يلي:
أولاً: ممتلكات العلويين المجمدة.
ثانياً: فدك إلى بني فاطمة.
ثالثا: أمره ببناء مرقد الامام لحسين ودعوته الناس لزيارته وزيارة مرقد «الامام عليA».
رابعاً: اقالة حاكم المدينة وتعيين حاكم جديد مع توصيات مؤكّدة بمعاملة العلويين معاملة لائقة، راجع الطبري: ٧ / ٤٠٠ ـ ٤١٧.
ولكن مجرى الأحداث الذي يشير إلى اغتياله بعد ستة اشهر من خلافته يؤكد أنه كان يواجه ضغوطاً شديدة من القادة الاتراك الذين كانوا يعملون لمصالحهم الخاصّة، ولكنه كان يخطط فيما يبدو لانقاذ الخلافة من النفوذ التركي المتفاقم ولذا فكروا باغتياله.
(٣٢٣). ركب أحمد بن الخطيب ذات يوم فتظلّم إليه متظلّم بقصّة فأخرج «ابن الخطيب» رجله من الركاب فزجّ بها في صدر المتظلّم فقتله فتحدّث الناس بذلك وقال بعض شعراء الزمان مخاطباً الخليفة:

اشكله عن ركل الرجال فإن ترد ... مالاً فعند وزيرك الأموال

(٣٢٤). مروج الذهب: ١٤٦/٤ ط. بيروت لبنان مؤسسة الاعلمي.

(٣٢٥). المصدر السابق: ١٤٥/٤.
(٣٢٦). البساط الذي كان مسرحاً لاغتيال المتوكل في منتصف الليل.
(٣٢٧). الطبري: ٤٠٨/٧.
(٣٢٨). المصدر السابق: ٤٠٥/٧.
(٣٢٩). الطبري: ٤١٣/٧.
(٣٣٠). تاريخ الخلفاء / ٣٥٧.
(٣٣١). المصدر السابق.
(٣٣٢). مروج الذهب: ١٤٢/٤ والشاكرية مفردة تعود إلى جذر فارسي فيما يبدو ولعل أصلها «شاگردية» لانها تعني الأجير، والخادم وقد اطلقت في بغداد على الجنود المرتزقة الذين يقاتلون في مقابل أجور محددة..
(٣٣٣). المصدر السابق: ١٤٣/٤.
(٣٣٤). المصدر نفسه: ١٤٩/٤.
(٣٣٥). البحار: ١٢٦/٥٠.
(٣٣٦). المصدر السابق: ١٢٥/٥.
(٣٣٧). مروج الذهب: ١٤٦/٤ ط. مؤسسة الاعلمي بيروت ١٩٩١م.
(٣٣٨). الطبري: ٤١٤/٧.
(٣٣٩). تاريخ الخلفاء: ٣٥٧.
(٣٤٠). مروج الذهب: ١٤٦/٤.
(٣٤١). تاريخ الخلفاء: ٣٥٧.
(٣٤٢). المصدر السابق.
(٣٤٣). الطبري: ٤١٥/٧.
(٣٤٤). المصدر السابق: ٤١٧/٧.
(٣٤٥). موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ٩٥/١٢.
(٣٤٦). قوات من «الشاكرية» الطبري: ٤١٨/٧.
(٣٤٧). البحار: ١٣٢/١٣.
(٣٤٨). الكافي: ٥٠٠/١.
(٣٤٩). المصدر السابق وكان الامام الهادي قد كتب إليه بشأنها: «سوف تردّ اليك وما يضرك الاّ تردّ عليك» المصدر السابق.
(٣٥٠). كان بغا لا يرتدي درعاً في القتال وعندما عُذل في ذلك قال: «رأيت في نومي النبي o ومعه جماعة من اصحابه فقال لي: يا بغا! أحسنت إلي في رجل من أمتي فدعا لك بدعوات استجيبت له فيك.. قال: فقلت: يا رسول الله ومن ذلك الرجل؟ قال: الذي خلّصته من السباع; فقلت يا رسول الله سل ربّك أن يطيل عمري.. فرفع يديه نحو السماء وقال: اللهم أطل عمره، وأتم أجله فقلت يا رسول الله خمس وتسعون سنة، فقال رجل كان بين يديه: ويوقّى من الآفات..
فقلت للرجل: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب فاستيقظت من نومي وأنا اقول: علي بن أبي طالب».
مروج الذهب: ١٧٤/٤.
(٣٥١). تاريخ ابن الوردي المجلد الأول /٣٥٠.
(٣٥٢). الكافي: ٥٠١/١.
(٣٥٣). المصدر السابق، مروج الذهب: ١٥٦/٤.
(٣٥٤). الطبري: ٤٢٠/٧.
(٣٥٥). نوع من الذئاب يعيش في صحاري آسيا الصغرى.
(٣٥٦). الطبري: ٤٢٤/٧.
(٣٥٧). المصدر السابق.
(٣٥٨). يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب.. أبو الحسين، أمّه فاطمة بنت الحسين بن عبدالله من حفيدات جعفر بن أبي طالب..
ثائر من أباة أهل البيت Δ، اشعل ثورته في عهد الطاغية العباسي المتوكل سنة ٢٣٥هـ واتجه إلى خراسان فردّه عبدالله بن طاهر إلى بغداد، وتعرّض للتعذيب وزج في سجن المطبق الرهيب.. ثم أفرج عنه فيما بعد فاتجه إلى الكوفة في عهد «المستعين» واستطاع بعد أن حشد جهد المعارضة من السيطرة على المدينة فأطلق من فيها من

السجناء، ورفع شعاره في البيعة إلى الرضا من آل محمد، فبايعه الناس وطرد نوّاب الخليفة، وعسكر في الفوجة، واشتبك مع الجيش العباسي وانزل به هزيمة ساحقة.
وتداركت اجهزة الدولة الخطر بارسال تعزيزات عسكرية هائلة وجرت قرب الكوفة معارك ضارية لم تصمد فيها قوّات الثورة وهوى الثائر من فوق فرسه شهيداً فقطع رأسه وارسل إلى المستعين.
كان حسن السيرة متديناً، يتمتع بساعدين مفتولين حتى انه إذا سخط على أحد عبيده لوى حول عنقه طوقاً من الحديد فلا يحلّه غيره.
رثاه كثير من الشعراء من بينهم الشاعر ابن الرومي.
الطبري / حوادث سنة (٢٣٥، ٢٥٠)هـ، مروج الذهب: ١٦٠/٤.
(٣٥٩). الطبري: ٤٥٨/٧.
(٣٦٠). اشيع عن تمثال الفارس الذي يتربع فوق القبة الخضراء في قصر الذهب انه حيثما يشير برمحه فان هناك ثورة ما.
(٣٦١). الامام الهادي من المهد إلى اللحد: ١٣٧.
(٣٦٢). حياة الامام الحسن العسكري: ٢٥.
(٣٦٣). الطبري: ٥/٧.
(٣٦٤). مروج الذهب: ١٩٠/٤.
(٣٦٥). المصدر السابق.
(٣٦٦). المصدر نفسه.
(٣٦٧). اثبات الوصية ط انصاريان ايران: ٢٤٥.
(٣٦٨). المصدر السابق.
(٣٦٩). المصدر نفسه.
(٣٧٠). الطبري: ٥١١/٧ ـ ٥١٢.
(٣٧١). المصدر السابق: ٤٧٨/٧.
(٣٧٢). المصدر نفسه: ٥١٤/٧.
(٣٧٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل: ١٦٣.
شهد مطلع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري سلسلة من الثورات والقلاقل الداخلية.. كانت ثورة الزنوج في جنوب العراق اكثرها عنفا وأطولها زمناً اذ استمرت ١٥ سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ).
(٣٧٤). محفظة نقود.
(٣٧٥). يمكن دراسة المدونات الشيعية في كتاب الغيبة للشيخ الطوسي واكمال الدين، للشيخ الصدوق ودراسة الحقبة الزمنية التي اكتنفت حوادث مصرع الامبراطور ميخائيل الثالث ونهاية حكم الاسرة العمورية.
(٣٧٦). سفر الرؤيا: ١/١٢، ٥، الكتاب المقدس ط سنة ١٩٨٣ بالاستناد إلى عقيدة المسيح الدجال سعد أيوب: ١٠٠.
(٣٧٧). الطبري: ٣٧٦/٧.
(٣٧٨). وقعت بين (٢٤٩ ـ ٢٥٣)هـ اشتباكات حدودية بين الروم والدولة الإسلامية راجع تاريخ «الطبري» حوادث الاعوام المذكورة وكذا تاريخ «ابن الأثير».
(٣٧٩). الطبري: ٥١٢/٧.
(٣٨٠). المصدر السابق.
(٣٨١). كان السفير الأول للامام المهدي يعمل في تجارة الزيت واشتهر باسم السمّان.
الامام المهدي من المهد إلى الظهور: ١٩٧.
(٣٨٢). الطبري: ٥١٨/٧.
(٣٨٣). المصدر السابق: ٥١٩.
(٣٨٤). جعفر المعروف بالكذاب ظهرت عليه دلالات الانحراف في حياة والده، خاصّة في علاقاته مع موظفي البلاط وصداقته لبعض الشبّان النزقين.
(٣٨٥). كان الامام الحسن العسكري شديد الشبه بوالده / اثبات الوصية: ٢٤٣.
(٣٨٦). بالرغم من تفاقم القلاقل الداخلية في الدولة الإسلامية فقد ظلّت موازين القوى في الصراع مع الروم في صالح الإسلام، وكانت غارات الروم عادة ما تُمنى بالفشل والتنازل عن المزيد من الأراضي.
(٣٨٧). فتاتان تعيشان في منزل الامام الهاديA.
(٣٨٨). الامام المهدي من المهد إلى الظهور: ١١٨.

(٣٨٩). سفر الرؤيا: ١٣/١٢.
(٣٩٠). كنز العمال: ج٧، فرائد السمطين: ج٢، بحار الانوار: ٧١/٥١.
(٣٩١). يصادف ١ محرم الحرام ٢٥٤هـ ١ كانون الثاني سنة ٨٦٨ احداث التاريخ الإسلامي: ١٢٩/٢.
(٣٩٢). ابن الاثير: ١٨٦/٧ ـ ١٨٧.
(٣٩٣). الطبري: ٥١٩/٧.
(٣٩٤). افغانستان في العصر الحاضر.
(٣٩٥). مدينة تقع شرق ايران.
(٣٩٦). مروج الذهب: ١٩٤/٤.
(٣٩٧). تاريخ الغيبة الصغرى: ٣٩١.
(٣٩٨). الغيبة للشيخ الطوسي: ٢١٥.
(٣٩٩). ابن الاثير: ١٨٩/٧، الطبري: ٥١٩/٧.
(٤٠٠). مروج الذهب: ٨٦/٤، دلائل الامامة للطبري: ٢١٦.
(٤٠١). الكافي / كتاب الاطعمة والاشربة.
(٤٠٢). مروج الذهب: ١٨٤/٤.
(٤٠٣). الغيبة الصغرى محمد الصدر: ٢٥٩.
(٤٠٤). حياة الامام علي الهادي دراسة وتحليل: ١٥١.
(٤٠٥). الحاوي للسيوطي: ٢٢٣/٢.
(٤٠٦). تاريخ الغيبة الصغرى: ١٣٢، كمال الدين: ٤٢٧/٢.
(٤٠٧). لقب طلحة بـ«الموفق» بعد نجاحه في تركيع المستعين واجباره على التنازل عن الخلافة / مروج الذهب.
(٤٠٨). اثبات الوصية ط انصاريان: ٢٤٣.
(٤٠٩). المصدر السابق.
(٤١٠). جعفر الكذاب وكان مع الأسف طائشاً سبب الكثير من المتاعب لأخيه.
(٤١١). يعتقد البعض بأن محنة أهل البيت Δ بدأت بعد وفاة النبي o واجتماع السقيفة الذي أسفر عن أقصاء الامام علي عن الخلافة وقد حصل ذلك يوم الاثنين كما هو معروف.
(٤١٢) سورة المائدة; الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.
(٤١٣) سورة الأحزاب; الآية: ٥٧.
(٤١٤) السرب ـ بفتح السين ـ: الطريق.
(٤١٥) سورة النمل: آية ٤٠.
(٤١٦) سورة يوسف: آية ١٠٠.
(٤١٧) سورة يونس: آية ٩٤.
(٤١٨) سورة لقمان آية ٢٦.
(٤١٩) سورة الزخرف آية ٧.
(٤٢٠) سورة الشورى: آية ٤٢.
(٤٢١) سورة الطلاق: آية ٦٥.
(٤٢٢) ابن صفية: هو الزبير بن العوام قتله ابن جرموز يوم «الجمل».
(٤٢٣) أجاز على الجرحى: أي أجهز عليهم.
(٤٢٤) سورة آل عمران: آية ٦١.
(٤٢٥) ساهم: أي قرع بينهما.
(٤٢٦) أخذنا هذه الفقرات من تحق العقول وفي المناقب غيرها.
(٤٢٧) يغلس بها: أي يصلي بها في الغلس، وهو الظلمة في آخر الليل.
(٤٢٨) علويّ أعدم بأمر المنصور.
(٤٢٩) أخت الرشيد: مطربة!
(٤٣٠) أخو عليّة مطرب وموسيقي.